أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS
Directeur : BAHIJ OSMAN

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص. ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ADAB *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél - 24502

العدد العاشر
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 10 - Octobre 1954
2ème Année

هذا الارهاب الفكري !

يعاني « العراق » الشقيق في هذه الفترة محنة شديدة في مختلف الوان حريته ، ولا سيما حريته الفكرية . وإن المرء ليقف مذهولاً امام هذه الموجة من الارهاب الفكري التي تُغرقُ فيها الحكومةُ القائمةُ الشعبَ العراقي الباسل ، سواء بما يمتّ الى الانتخابات الأخيرة ، او الى الغاء صحف وحجب صحف اخرى ، او الى تهديد المواطنين العراقيين بتجريدهم من الجنسية وابعادهم خارج بلادهم الخ ...

وقد لجأت الحكومة العراقية الى اصدار مرسوم بمنع دخول مجلة « الآداب » الى العراق منعاً باتّاً ، بحجة انها تحمل دعايات ضارّة . وحين سألنا توضيحاً وتفصيلاً ، أحالونا على صفحات من « الآداب » — العدد التاسع — نُشرت فيها المواد التالية : « المشرّدون » قصيدة لعلي الحلّي — « الفرقة الفدائية الاولى » قصيدة لعصام عبد علي — « في سوق العبيد » قصيده ليوسف الخطيب — « اصلاحات جديدة في التعليم بروسيا دفاع عن خطة مجلة «الآداب» بقلم عبد الكريم العاني.

ويستطيع القاريء ان يعود الى هذه الموادّ . ولا بدّ له ، حين ينتهي من قراءتها ،ان يقلب شفتيه استغراباً ودهشةثم يتساءل « اين الدعايات الضارّة في تلك القصائد والكلمات ؟ »

على ان عجبه سيزول ، كما زال عجبنا ، حين يعلم ان الحقيقة غير ذلك ، وان الانتقاد على هذه المواد ليس الاّ ذريعة يتذرع بها المسؤولون لمنع « الآداب » من تأدية رسالتها على الوجه الذي رسمته لنفسها . فقد اشترطت لامكان ادخال « الآداب » الى العراق ، عدة شروط ، نوردها فيما يلي :

١ — عدم نشر اية قصيدة لأي كاتب عراقي الا ما كان متعلقاً بالأدب والثقافة فقط .

٢ — الابتعاد عن نشر الرسائل والقصائد ذات الصبغة « الثورجية » او التقدمية .

٣ — الابتعاد عن نشر اي شيء يتعلق بالعمل والعمال .

ولا بدّ ان القاريء يضحك الآن ، كما ضحكنا ويتساءل : « اذا لم تتحدث « الآداب » عن العمل والعمال ، ولم تنشر قصائد وطنية « ثورجية » وتقدمية ، فعلامَ تصدر ، ولماذا تواصل جهودها ؟ »

اتنتظر حكومة العراق ، واية حكومة عربية اخرى ، ان تخصص « الآداب » صفحاتها لتمجيد الاوضاع القائمة في البلاد العربية ، ولا سيما في العراق ، ولكيل الثناء لحكومة تخنق الحريات وتعطّل الصحف بلا تمييز وتهدد بتجريد الجنسية وتدفع الى برلمانهانواب التزكية؟ او تعتقد الرقابة العراقية ان الشؤون « الثقافية » لا ترتبط بتصوير الواقع الاجتماعي ولا بتناول الشؤون القومية، ولا بمعالجة الاوضاع الفكرية ؟

اننا لا نريد ان نتهم احداً بالغباء ، ولكننا نحب الا يتهمنا احدٌ بالغباء كذلك. فان حكومة

هذا العدد

في الثامن عشر من شهر ايلول الماضي (سبتمبر) عُقد في مصيف بيت مري بلبنان « اسبوع أدباء العرب » الذي دعت اليه جمعية « اهل القلم » . وقد القيت في هذا المؤتمر محاضرات مختلفة عالجت أهم القضايا في ادبنا العربي الحديث ، كما جرت مناقشات واتخذت توصيات . وقد رأت « الآداب » ان تخصص معظم صفحات هذا العدد لهذا المؤتمر الذي يسجّل حدثاً هامّاً في تاريخ الادب العربي المعاصر .

عدد ممتاز

خاص بالشعر

تصدر مجلة « الآداب » في مطلع العام القادم (اي العدد الاول من السنة الثالثة) عدداً ممتازاً خاصاً بالشعر ، يضمّ دراسات ضافية عن الشعر العربي الحديث في مختلف الاقطار العربية ومجموعة من احدث قصائد كبار الشعراء العرب ، فضلاً عن الابحاث والموضوعات المتنوعة التي تمتّ الى الشعر بصلة . وستنشر في هذا العدد نتائج مسابقة « الآداب » في الشعر . ترقبوا هذا العدد الممتاز .

العراق تريد ان تحارب الشيوعية ؛ هذه هي الحقيقة ، وهي تتخذ ذلك ذريعة لخنق كل دعوة الى تغيير الواقع او الى الثورة على الاوضاع او الى توعية القراء على حقائق حياتهم. ولحكومة العراق ان تحارب الشيوعية ، او لا تحاربها ، فهذا من شأنها ، ولكنها تموّه الحقيقة وتشوّه الواقع حين تعتقد ان كل حركة تقدمية ينبغي ان تكون ذات صبغة حمراء .

لقد عرف القراء ان « الآداب » ليست مجلة شيوعية ، وهي لا تنشر اية مادة تشتمّ منها الدعاية الشيوعية ، بل لقد قرأوا مقالات مختلفة تناقش المفاهيم الشيوعية وتعارضها ، وكان على اثر ذلك ان شنّ بعضهم حملة عنيفة على المجلة واتهموا رئيس تحريرها بممالأة الاستعمار ، وهذا ايسر دليل على ردّ التهمة الموجهة الى « الآداب » بانها ذات صبغة شيوعية . إن « الآداب » مجلة قومية عربية ، لا شرقية ولا غربية ، وهي تضع حرية الفكر فوق كل اعتبار ، وهي اخلص لقضيتنا القومية العربية من ان تستقي خطتها من موسكو او من واشنطن او من لندن او من باريس . وإن الاخلاص لهذه القضية القومية العربية يقتضينا محاربة كثير من الآفات التي تنخر كيان الامة العربية ، كالاستعمار والاقطاع والاستثمار ، كما يقتضينا الدعوة الى كثير من المبادىء الرفيعة كالنزعة الانسانية والعدالة الاجتماعية . فاذا اتفق ان نلتقي مع سوانا في هذه الامور ، او في بعضها ، فليس ذلك يعني اننا نؤمن بمبادئهم ومفاهيمهم ، وانما هي محض مصادفة. اننا نعمل لقضيتنا القومية الكبرى ، ولسنا الا عرباً، لا شيوعيين ولا رأسماليين.

وليس عجيباً الاّ تميز الحكومة العراقية في مجلتنا بين هذين الاتجاهين . فهي تحارب كل نزعة تقدمية ، بحجة محاربة الشيوعية ، كأن التقدمية وقف على الشيوعية ، ومحتكَرٌ لها .

ولعلّ هذا التوضيح لموقفنا ، جديرٌ به ان يحمل المسؤولين في حكومة العراق القائمة على إعادة النظر في امر منع « الآداب » . ولكننا نحب ان نوضّح امراً آخر ، فنضيف قولنا بأننا لن نتراجع قيد انملة عن نهجنا في « الآداب » ، وسنظل ندافع دون رسالتنا ، وسنظل نستنكر هذا العهد من الارهاب الفكري الذى يطغى على العراق الشقيق ، ونعتقد ان هذا من صميم رسالتنا .

سوف تتحمل « الآداب » كل تضحية في سبيل الدفاع عن حرية الفكر والدعوة الى ما فيه خير القضية العربية ، وهي تعتمد في ذلك على مناصرة القراء الواعين ومؤازرة الادباء الشرفاء ، في هذه الامة العربية التي سيزول حاكموها عاجلاً ام آجلاً ، لتبقى هي وحدها الخالدة .

« الآداب »

اسبوع أدباء العرب في لبنان

الكلمة التي القاها رئيس جمعية اهل القلم

لغيري ، لمن له أن يرحب باسم لبنان ، ان يرحب بكم باسم لبنان . لغيري ، لمن يمثل لبنان وما يكنه لبنان من حب صادق للعرب ، اهلنا واخواننا ، ومن رغبة اكيدة في التعاون الرحب معهم ، ومن ايمان بوحدة المصير ، ان يقول كم هي سعيدة هذه الارض بأن تتسع لكم ، وكم هي غنية بوجودكم رخية الاحساس .

وليكن لي شرف آخر ، ليكن لي ان ارفع الصوت باسم اليازجيين الكبار ، باسم ناصيف وابراهيم وخليل وحبيب ، وباسم البساتنة العظام ، بطرس صاحب اول موسوعة عربية ، وسليمان معرب الالياذة شعراً ، وعبدالله صاحب البستان ، وباسم الحداديں نجيب وسليم ، وباسم الشدياق وسعيد الشرتوني والمعلم جريس همام والشيخين الاحدب والاسير ، باسم صروف والشميل ونمر والمطران ، وجبران والريحاني ومي ، وباسم الكثيرين غيرهم — ليكن لي ان ارفع الصوت باسم هؤلاء الذين تجندوا لخدمة العربية ورفعوا اعلامها عالية بهية وعقدوا على حبها بين قلوب تخفق عند ضفاف النيل ودجلة والفرات وبردى وفي رحاب الجزيرة وفوق اعالينا تحت ظلال الارز ، ليكن لي ان ارفع الصوت باسم كل ادباء لبنان لاقول مبلغ اعتزازنا بكم .

من الدبية ودير القمر وكفرشيما والحدث والشوير وبيروت وطرابلس وصيدا وبعلبك وبشري والفريكة وغيرها من كل موطن من مواطن اعلامنا رسل الأدب وخدام الفكر ، يشرئب اليكم الارز وتحاول عيون اطبقها الردى ان تتغلب على العدم فتنظر .

كان لجمعية أهل القلم مطمع في مراودة النجوم وها انتم بيننا ، ها انتم بيننا ، فكرة تجسدت وحلم استجاب .

واننا لا نخاف خيبة موجعة كتلك التي تعصف بالقلب البشري ، وقد ارهقه الشوق وبراه الانتظار يوم يرتمي الحلم المرتقب بين يدي صاحبه كائناً محسوساً . ان الغاية التي اذا ما بلغت رجعت وسيلة لبلوغ غايات اعظم ، والاحلام التي اذا ما تجسدت ملأت الكائن احلاماً مشعة فتية سامية ، لفي منتهى ما يكون الخصب وما يغدق فرح العقل .

ها انتم بيننا حلم استجاب وستكونون في منتهى ما يكون الخصب وما يغدق فرح العقل . فلماذا نجتمع ؟

من اهداف جمعية أهل القلم في لبنان السعي لاطلاع الادباء على آخر اوضاع الفكر في العالم واستحداث نتاجهم القلمي ، فنحن عندما نفكر ، فانما نلتفت الى مضمون الأدب اولاً ، الى الثقافة التي يعبر الأدب عنها . لقد طمحنا بالمستوى العالمي دفعة واحدة واردنا مشاركة الانسان همه لما وراء العبارة ، للمحتوى الأدبي ، للفحوى الفني — غير ان هذا الطموح لم ينسنا اننا نستخدم للتعبير لغة معينة هي لغتنا ولغتكم واننا نعاني مثلما تعانون من شؤونها وشجونها .

هي اللهجات في كل قطر تتغلغل وتتوغل وتعتو حتى الطموح في ان تحتل مقام لغات مستقلة لها كياناتها الخاصة وآدابها وادباؤها ولو على فقر في الثقافة وهلهلة في الفكر ، وهي هذه المجتمعات التي تخلفت خلال قرون طويلة عن ركب العلم والفلسفة حتى ، وقد أخذنا من جديد بناصيتها ، لنقع على الصعوبة في التعبير . لكم من لطائف فكرية ومن دقائق فلسفية تطالعنا فنعجز عن ادائها الا مداورة ، وهي هذه الرغبة في ان يستقل لغويو كل قطر في خلق المصطلحات العلمية والفلسفية ، وتبنيها ونحتها . والخوف اليوم ليس من ان تقتحم اللهجات العامية معاقل الفصحى بل من ان تتعدد الفصحى في بعض المناحي ويتعذر التفاهم بها الا على ابناء القطر الواحد .

وهو هذا التمسك بالقواعد دون التبسيط ، فلا نصل الا الى احدى نتيجتين : اما الى الركاكة واللحن وينزح الأدب ، واما الى اشغال الذهن حتى الاجهاد بطولات القواعد على حساب الثقافة وهنا ايضاً ينزح الأدب ويفنى .

واذا فرغنا من معالجة هذه الاوضاع فلا بد من التوقف عند المشاكل التي يعانيها الأدب العربي الحديث .



يؤخذ على ادبنا انه اخفق الا ما ندر في ان يكون شاهد امته وفي ان يعكس اوضاع البلاد العربية ، فلا الكفاح للتحرر من السلطة العثمانية ولا الحرب العالمية الاولى ولا الثورة العربية ولا الجماعات ولا الثورات المتتابعة للتحرر من وصاية الغرب وحمايته ولا الحرب الكونية الثانية ولا النكبة بفلسطين ولا الانتفاضات الاجتماعية التي نعيشها اليوم تركت لنا آثاراً ادبية في مستوى الآثار العالمية .

فلماذا ؟ ألنقص في ثقافتنا العامة ، نخبة وشعوباً ؟ من يتجاسر على النفي ومن يجرؤ على التأكيد ؟ لماذا ؟ ربما لأننا لم نتحسس حتى الان ، كما ينبغي لنا ، مشاكل العالم ، بل ربما لأننا قد فرقنا تفريقاً كيانياً بيننا وبين العالم وانطوينا على انفسنا انطواء مريراً فاذا بنا لا نحسن حتى التجديف عليه .

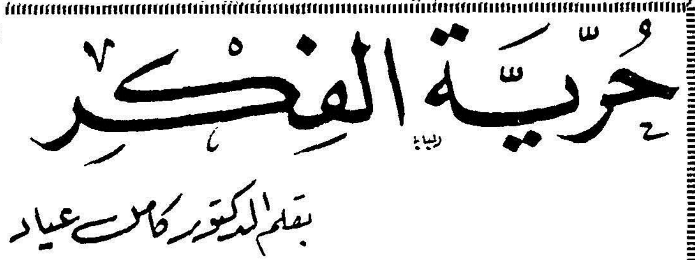
اذا لم يطمح ادبنا في ان يكون شاهد امته وحسب ، اذا لم يقصد لمعالجة القضايا الانسانية الكبرى ، اذا لم يتوغل في تفهم وضع الانسان في الكون ، اذا لم يتفلسف ، اذا لم يقبض على المادة بيد ولم يتناول الغيبيات باخرى ، واذا هو لم يعكس الصراع الضاري المستحكم بينهما في قلب الانسان ، فلن يبلغ منزلة ولن يستطيع حتى ان يكون شاهد أمته .

ينبغي لأدبنا ان يتثقف ، أي ينبغي له ان يعرف ، فالثقافة معرفة ، لا اية معرفة ، بل معرفة ما جعل الانسان شيئاً غير عارض في الوجود ، معرفة الشواهد على عظمته وهي معرفة فتوحاته الرائعة مدى العصور في دنيا الكلمة والصوت والشكل . هي معرفة كل اشكال الفن والمحبة والفكر التي اتاحت له ان ينعتق ويتحرر .

وتطالع الأدب العربي هنا معضلة من ادق المشاكل : هل يستطيع الأديب العربي مهما اكتملت ثقافته وسمت ان يعبر بحرية عن كل شيء !؟ هل يتمتع الأديب العربي بحريته ؟

اقول كلا . هنالك مواضيع حرام عليه أن تجفوها المطابع في اقطارنا

« التتمة على الصفحة ٧٠ »



دعيت لأتكلم عن حرية الفكر وانها لمناسبة ثمينة نادرة، أن يتاح مثل هذا البحث امام رجال الفكر والادب في العالم العربي ، وأن يكون ذلك في لبنان ، وفي هذه الفترة التي يُكبلُ فيها الفكر في معظم الاقطار العربية ، فليس فينا من لم يناضل ليكون حر الفكر ومن لم يجرحه التهجم او تعضه القيود في الدفاع عن حرية الفكر ، كما ان لبنان كان دوماً موطناً لفكرة الحرية ، والسابقَ في التطلع الفكري بين بلاد العرب ، وهو لا يزال كذلك رغم كل ما زحف اليه من عوامل الافساد .

وقصة الفكر ، وحرية التعبير ، ملحمة قديمة قديمة ، بدأت مع دبيب الانسان على هذا الاديم . واذا شئتُ أن استعمل المصطلحات الدينية قلتُ انه منذ شرد الله آدم على الارض ، ومنذ ربط رب الارباب زيوس الاله بروميتوس الى صخور القفقاس ، والفكر الحر شريدٌ على تراب الارض مضطهد شهيد. ولقد رمز القدامى ، سواء بقصة آدم في سفر التكوين او في اسطورة بروميتوس الى ان يقظة الفكر في الانسان كانت السببَ في ابعاده عن الجنة الى الارض ، والسببَ في العذاب الذي يلاقي عليها . ان اللعنة التي حُكم عليه بها هي ان يظل متمرداً ابداً ، متطلعاً دوماً الى افق جديد ... لا يُرضيه شيء فهو لا يمكن ان يفعل غير ذلك ما دامت شعلة الفكر تلتهب في اعصابه وقلبه .

ونحن في الواقع متفقون عند النقطة الاولى من الموضوع وهي ان الفكر انما هو فكر لأنه حر ولا بد من حريته ليظل فكراً فلا يتحول الى سرمدية الغريزة ... نحن متفقون حول ضرورة الحرية للفكر وتلازم الفكر والحرية . وهل يمكن ان نختلف ؟ ونحن باسم الفكر اجتمعنا وباسم حريته نبدأ كل صلاة ونضال .

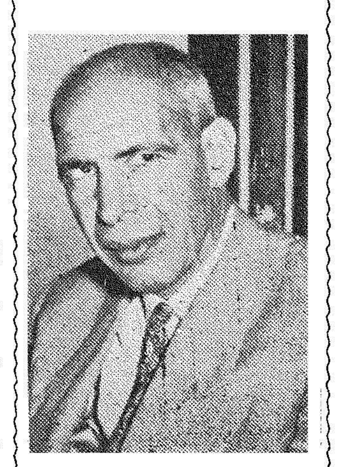
وعلى ان المتاهات ومفارقَ الطرق تتبدى لنا عند اول خطوة نخطوها بعد هذه النقطة الاولى . فعن اي حرية نتكلم وعن اي فكر ؟ ان حرية الفكر مِثلَ سائر انواع الحرية ليست مفهوماً مطلقاً مجرداً عن الواقع ، خارج الزمان والمكان ليست فكرة من عالم المثل ولا ترفاً نزين به جدران قاعة الاستقبال ولكنها من صميم الكيان الانساني ومن اسس الكبرياء البشرية . انها ما جعل الانسانَ يستحق انسانيته فهي لذلك قيد قبل ان تكون انطلاقاً ، وحدٌ قبل ان تكون تمرداً ، وشروط مادية قبل ان تكون مُثلاً ومنىً مجنحة .

فاذا لم يحدد مفهوم الحرية فانا لا نأمن ان ينقلب الى عكسه . ونحن اذا سمعنا مَن يدافعون عن الحريات كلها ، على وجه الاطلاق ، فمن حقنا ان نتساءل : الا يقصدون بذلك حرية الاقوياء في استعباد الضعفاء او حريةَ اصحاب الاموال استثمار العمال ، اوحريةَ الاحتكار او حرية الاتجار بالرقيق الابيض ؟

واذا رأينا فئة من الناس يطالبون مثلاً بحرية الصحافة المطلقة فنحن نعرف سلفاً ان بعضهم انما يريدون تبرير غاياتهم في ان يكذبوا ويضللوا ويرتكبوا كل خيانة دون ان يتعرضوا لأي عقاب .

ثم ماذا يفيد الانسانَ ان نقول له انت حر تستطيع ان تفكر كما تشاء دون ان نهيء له الوسائل المادية لهذه الحرية ، ونجعله قادراً على جمع المعلومات الصحيحة اللازمة ونفسح له المجالَ للتعبير عن آرائه ونشر افكاره ؟ ما الفرق بين ذلك وبين ان نقول للعاطل عن العمل : انت حر في ان تموت من الجوع ؟

هناك في الواقع حريات عادلة واخرى غير مشروعة واذا لم يكن من الصعب كثيراً التفريق بينها فانه من المستحيل التوفيق بينها . ان حرية الأسرة مثلاً تتعارض مع حرية العهر كما ان حرية الفلاح تتنافى مع حرية المرابي .



يتبين من ذلك انه لا بد قبل المطالبة بحرية الفكر من ان نحدد معنى هذه الحرية. ولهذه الغاية ، من الضروري ان نستعرض تطور حرية الفكر في مجرى التاريخ ... بعض الاستعراض .

ان اليونانيين القدماء هم الذين سبقوا كافة الامم في الدعوة الى حرية الفكر وحرية المناقشة ، واستطاعوا قبل غيرهم ان يحققوا هذه الحرية على اوسع مقياس ممكن . وقد

كانت هذه الحرية الفكرية شرطاً اساسياً لما امتازوا به من تأملات فلسفية ، وما بلغوه من تقدم علمي ، وما ابتكروه من منظمات سياسية ، وما انفردوا به من ابداع فني وأدبي . فآدابهم مثلا لم تكن لتتصف بهذا العمق والسمو والكمال لو انهم منعوا من البحث في جميع شؤون الحياة وانتقادها بكثير من الحرية . ولكن حتى لو فرضنا انهم لم يبدعوا تلك الروائع الخالدة ، التي ورثتها عنهم الشعوب المتحضرة ، فان مجرد تمسكهم بمبدأ حرية الفكر يؤهلهم لاحتلال اسمى المراتب بين قادة البشرية والمحسنين اليها .

ويبدو ان اهم عامل ساعد اليونانيين على التحرر الفكري ، هو انهم ، لما برزوا فجأة على مسرح التاريخ ، لم يكن لديهم كتب مقدسة ولغة ميتة وآداب متوارثة وأئمة معترف بهم . انه لم يكن لديهم ، كما قال (باكون) القديم من العلم والعلم بالقديم . ولاشك في ان اضطرار اليونانيين الى الانتشار على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، للتجارة وكسب الرزق واحتكاكهم لهذه الغاية ، بكثير من الشعوب القديمة المتحضرة ، ثم اطلاعهم على مختلف الأنظمة والعادات – كل ذلك قد اثار فيهم روح الشك والانتقاد تجاه كل التقاليد والسلطات ، ومهد لهم السبيل الى التفكير الحر .

اذا رجعنا الى مباحث اليونانيين الفلسفية ودراساتهم التاريخية ورواياتهم التمثيلية ، نراها تتعرض الى كافة العقائد الدينية والمشاكل السياسية والقواعد الاخلاقية دون تفريق ، وتعالجها بمنتهى الصراحة ، فتناقشها وتنتقدها ولا تتورع عن السخرية بالمؤسسات والتقاليد والآراء . ونستطيع الادعاء بان حرية الفكر التي كان يتمتع بها اليونانيون القدماء لا يمكن ان نجد مثيلا لها عند جميع الشعوب قبل القرن الثامن عشر .

وحوادث الاضطهاد الفكري القليلة التي يرويها التاريخ عن اليونانيين وهي لا تتجاوز الثانية ، لا تناقض هذه الدعوى ، بل تؤيدها .

فالذين اتهموا (آناكساغوارس) مثلا بالخروج على العقائد الدينية انما كانوا بعض خصوم (بريكلس) السياسيين . وقد عجزوا عن مهاجمة زعيم (آثينة) مباشرة فارادوا تشويه سمعته بمحاكمة صديقه الفيلسوف . . وكذلك لم تكن قضية (بروتاغوراس) سوى مؤامرة سياسية في الظروف الحرجة للحروب البيلوبونزية .

اما الحكم على سقراط فانه من أروع الشواهد على سلطان حرية الفكر . ان خصوم الفيلسوف السياسيين والشخصيين ، الذين ضاقوا ذرعاً من إنتقاداته للديموقراطية المشوهة ، قد اتهموه بانه لا يحترم الالهة وانه يفسد الشباب . وقد اظهر هؤلاء الخصوم مهارة كبيرة في انتقاء اعضاء المحكمة الشعبية ، الذين بلغ عددهم ٥٠٠ ، فلم يكن بينهم الا القلائل ممن يحسنون القراءة والكتابة . رغم ذلك كانت الاكثرية مستعدة لتبرئة سقراط لو قبل اقتراح المحكمة بان يتخلى عن عادته في الجدال والمخاصمة والوعظ ، فيترك مواطنيه في سلام دون ان يزعجهم بشكوكه الابدية . ولكنه رفض قائلا : « كلا ما دام وجداني ، هذا الصوت الصغير الباطني ، يأمرني بالاستمرار في ارشاد الناس الى طريق العقل الصحيح فاني سأتابع اعتراض كل من اصادفه وسأقول له ما يجول في خاطري ، مهما كانت النتائج . . . »

وقد اضطرت المحكمة ، بعد هذا التحدي ، ان تحكم عليه بالموت – ولكن بأكثرية ضئيلة . ثم انها سمحت بمهلة ثلاثين يوما ، يستطيع خلالها ان يهرب من آثينة اذا شاء . ولكنه أراد أن يجعل من مماته أيضاً أمثولة خالدة في التمسك بحرية الرأي واحترام القوانين السائدة .

ولا بد لنا هنا من الملاحظة بان (سقراط) كان ، عند الحكم عليه قد تجاوز السبعين من العمر وأنه قد قضى قبل ذلك مدة طويلة وهو يبشر بالاراء ذاتها دون ان يمنعه أحد . فاذا أضفنا ذلك الى المؤامرات السياسية والشخصية التي أدت الى محاكمته ، ثم لاحظنا معارضة عدد كبير من اعضاء المحكمة لادانته – ندرك روح التسامح والحرية التي كانت سائدة إذ ذاك في آثينة ، ويتضح لنا انه لم يكن من السهل إثارة تعصب الجماهير إلا باللجوء الى المكر والدسيسة .

ان دفاع (سقراط) عن حرية الفكر ، كما نقله افلاطون ، لا يزال ابلغ خطاب القي حتى الان في هذا الموضوع . فقد قال :

« لا يحق لأي شخص على وجه الارض ان يفرض على شخص آخر ما ينبغي ان يعتقده او ان يحرمه من حق التفكير كما يشاء . ان الانسان يستطيع ان يعيش سعيداً دون اصدقاء ودون مال ودون اسرة ، بل دون بيت – ما دام ضميره مرتاحاً . ولكن بما انه ليس في قدرة احد الوصول الى احكام صحيحة دون تمحيص دقيق لكل مشكلة ودون معرفة ما يؤيدها وما يعارضها ، فمن الضروري ان يفسح المجال امام الناس لمناقشة جميع المسائل بحرية تامة ودون تدخل من قبل السلطات .

وهكذا كان سقراط اول مفكر برر حرية التفكير بالاستناد الى المبدأين الاساسيين التاليين : ١) الاعتراف باستقلال وجدان الفرد و ٢) الاعتراف بالاهمية الاجتماعية للمناقشة والنقد .

وبالاجمال نستطيع القول بان اليونانيين القدماء كانوا يعتبرون حرية الفكر حقاً طبيعياً لا مجال للمناقشة فيه . على ان هذه الحرية لم تكن نتيجة تشريع مفروض . ولذلك لم تسلم من بعض النكبات ولم تمنع اضطهاد بعض المفكرين . ولكن حوادث الاضطهاد القليلة لم تعرقل تقدم المعرفة العلمية وازدهار الفنون والآداب .

بعكس ذلك كانت الحالة في القرون الوسطى . فان محاولة الكنيسة المسيحية فرض سيطرتها الدينية على العقول كادت ان تقضي على كل حرية في التفكير . لذلك لا نجد ، مدة عصور طويلة ، الا آثاراً باهتة للبحث العلمي والابداع الفني والادبي .

وقد انتقلت ، في تلك العصور ، فلسفة اليونانيين وعلومهم الى المسلمين الذين اتصف بعض خلفائهم بالتسامح وافسحوا المجال لحرية الفكر . فأدى ذلك الى ازدهار للعلوم والفنون والاداب مدة من الزمن .

الا أن الكثير من الخلفاء والحكام لم يدركوا قيمة حرية الفكر . فقاموا يضطهدون كل رأي جديد وانتهى الأمر الى الجمود والتأخر .

ثم كان عهد النهضة في اوروبا . ولا شك في ان الاحتكاك بين الشرق والغرب كان له اكبر تأثير في تنبيه الاوروبيين الى احياء تراث اليونان والرومان . وقد استيقظ اذ ذاك العقل الاوروبي ولكنه سرعان ما اصطدم بسيطرة الكنيسة فاضطر الى النضال عدة عصور حتى تم له الانتصار والظفر بحرية الفكر .

اذا رجعنا الى تاريخ حرية الفكر منذ عهد اليونان حتى اواخر القرن الثامن عشر ، نرى ان الجهود كانت متمركزة حول تحرير الفكر من قيود العقائد الدينية . ولكن بعد تقلص سيطرة الكنيسة ونشأة الدول القومية الحديثة وتقدم العلوم والاداب اكتسبت حرية الفكر مفهوماً جديداً ، واعني بذلك التحرر من القيود التي تفرضها الحكومات على المباحث العلمية والاراء السياسية والمذاهب الاجتماعية ، والتعاليم الاخلاقية . وقد تبلور النضال في سبيل حرية الفكر حول المطالبة بالتعليم العلماني واستقلال الجامعات وحرية الصحافة والنشر والكلام ، ولا شك في ان بعض الامم الغربية قد نالت قسطاً كبيراً من هذه الحريات في

القرن التاسع عشر. لكن الاوضاع قد تغيرت في اكثر البلدان بعد الحربين العالميتين، فتقلصت حرية الفكر او شوهت، ليس بسبب القيود القانونية التي اضطرت الحكومات الى فرضها فحسب، بل ايضاً بتأثير المصالح الاقتصادية وتحت ضغط المنظمات الاجتماعية.

★

وبعد فلعلي استطيع ان اخرج من هذه الجولة التاريخية بتعريف للحرية الفكرية هو التعريف الذي وضعه الفيلسوف الالماني المعاصر (ياسبرس) من **ان الحرية مرادفة للجهر بالحق. فالانسان الحر هو الذي يقول الحقيقة. وليس المقصود هنا الحقيقة المطلقة، الابدية بل الحقيقة النسبية التي يستطيع البشر في زمن معين، ادراكها. على ان اعترافنا بنسبية الحقيقة ليس معناه نشر كل ما يخطر على اذهاننا دون بحث ودرس وتمحيص ونقد اذ لا يمكننا ان نفهم الحرية اذا لم نشعر بالمسؤولية التي تفرضها علينا.**

ولعلكم تلاحظون، وتعجبون في الوقت نفسه اني آثرت طريق التاريخ على طريق الفلسفة في الوصول الى تعريف الحرية. والواقع اني فضلت الطريق الذي يجعل الحرية فكرة حية عملية، وواقعية على الطريق الذي يضيعها في ظلمات الفكر ومتاهات الميتافيزيك. فضلت ان أتتبعها في الحياة التي تولد وتنمو وتتطور على ان احددها حسب اهواء الفلاسفة، لانها قبل كل شيء مشكلة حياة وليست مشكلة فكر فحسب، وهي، اذا شئنا الرجوع الى الصعيد الفلسفي، لم تكن مشكلة في العصور القديمة، او على الاقل لم تكن تحمل المعنى الذي تحمله اليوم. وما برزت كمشكلة الا حين ظهرت عملياً في الحياة. وبعد الثورة الفرنسية فقط وبعد ظهور الحرية في الميدان السياسي، فكر (كانت) بالمشكلة. ولما عجز عن تركيز مبدأ الحرية على اساس علمي فلسفي حاول ارجاعه الى مفهوم الواجب الاخلاقي. فقال ان الانسان لا يكون حراً الا حين يشعر بالواجب. ولكن هذه التعاليم، التي قيل انها تصلح للملائكة لا للبشر، والتي لعبت دوراً هاماً في تنمية روح الاخلاص والطاعة والتضحية عند الشعب الالماني، قتلت في الوقت نفسه روح الحرية، ومسخت افراد الشعب الى آلات تتحرك بأوامر الملوك والحكام والقادة. و(شوبنهاور) الذي اراد اختصار العالم كله الى تصور وارادة قد ابتعد بفكرة الحرية الى عالم المثل الميتافيزيكية. وليس التطور المبدع لدى (برغسون) اقرب الى الواقع من مبدأ الواجب المطلق لدى (كانت) لان التطور لا يصبح مبدعاً الا في جو الحرية فهو نتيجة لها وليس سبباً... وماذا اعدد بعد؟ ان الفلسفة تفشل، غالباً في فهم الحرية، والحرية الفكرية خاصة، الا حين تفهمها على اساس من التطور التاريخي. وهذا ما رأيناه في تعريف (ياسبرس) من ان الحرية هي الجهر بالحق.

قد يبدو لأول وهلة ان الفكر حر بطبيعته فكل فرد يستطيع ان يفكر كما يشاء ما دام يحتفظ لنفسه بما يفكر. ولا يقف هذا التفكير الا عند الحدود التي تفرضها تجارب الفرد الشخصية وقوة خياله.

على ان هذه الحرية الطبيعية التي يتمتع بها التفكير الفردي لا قيمة كبيرة لها. انها لا ترضي صاحبها ذاته، بل ربما تزعجه وتؤلمه اذا لم يسمح له بأن يصارح الآخرين بأفكاره. وهي لا قيمة لها ايضاً في نظر هؤلاء اذا لم يطلعوا عليها.

وعدا ذلك فمن الصعب جداً اخفاء الافكار التي لها شيء من السيطرة على العقل. ان الشخص الذي يسوقه تفكيره الى الشك في اراء ابناء جنسه وفي عاداتهم فيستهجن عقائدهم ويتصور طريقة للحياة أفضل من التي يتبعونها — ان مثل هذا الشخص، اذا كان مؤمناً، باعتقاداته يستحيل عليه ان يكتم معارضته للآخرين ومخالفته لارائهم سواء بسكوته او تلميحاته او سلوكه العام. بل ان الكثيرين يفضلون مجابهة الموت على عدم الجهر بأفكارهم، كما كان الامر مع (سقراط) في القديم وكما هو مع امثاله حتى يومنا هذا.

> **« يجب ان يذكر الحكام والباحثون ان تجارب التاريخ تبرهن على ان كل اضطهاد للفكر لم يؤد في النتيجة الى الغاية المقصودة، ويجب لذلك ان يعتبر تدبيراً خاطئاً. إن الاضطهاد يزيد المخلصين تمسكاً بآرائهم واندفاعاً في الدعوة اليها. وفضلاً عن ذلك، فمن المستحيل في العصر الحاضر خاصة الحيلولة دون انتشار الافكار واطلاع الناس عليها بطريقة من الطرق. »**

وهكذا فان حرية الفكر، بمعناها الصحيح، تتضمن في الوقت نفسه حرية الكلام والنشر.

وقد اصبحت الامم المتحضرة منذ القرن الثامن عشر تعتبر حرية الكلام حقاً طبيعياً لا جدال فيه، ولكن البشر لم يحصلوا على هذا الحق الا بعد جهاد طويل وضحايا كثيرة. وكان لا بد من مرور عصور عديدة قبل ان تدرك الامم قيمة حرية الفكر وفائدتها.

ان المجتمعات البشرية، ما عدا القليل منها، كانت دوماً

تقاوم الافكار وتعارض حرية التفكير والتعبير . ومن السهل ان نكتشف اسباب هذه المعارضة :

فان افراد البشر بصورة عامة يميلون الى الكسل الفكري. ولذلك نراهم في حياتهم الفكرية يتمسكون ببعض العقائد المتوارثة التي اقتبسوها دون بحث وتمحيص كما يقاومون ، بصورة غريزية ، جميع الاراء والعقائد التي تخالف ما ألفوه . يضاف الى ذلك الخوف من ان تؤدي الافكار الجديدة الى زعزعة كيان المجتمع وقواعد نظامه . وقد كان الناس وما زالوا يزعمون بان من مصلحة الدول ومن الخير لها ان تؤمن الاستقرار التام وتحافظ على المؤسسات القائمة والتقاليد المتوارثة . لذلك يرى امثال هؤلاء في الافكار الجديدة مصدراً للقلق والخطر ويصفون كل من يشكك في المبادىء السائدة ويتساءل عن منشئها وحقيقتها وحكمتها بانه مشاغب ومفسد .

ومما يقوي النزعة الغريزية المحافظة الانقياد للعقائد الغيبية والخرافات والاساطير التي تضم كل انتقاد للنظام الاجتماعي المتوارث بانه كفر وزندقة .

ولكن المصيبة الكبرى هي ان هناك في كل مجتمع عناصر قويةً تؤلف طائفة او طبقة محدودة، متضامنة تتمتع بامتيازات خاصة وترى من مصلحتها التمسك بالاوضاع السائدة . فكانت دوماً وما زالت تسرع الى استثمار تلك الدوافع النفسية في سبيل مكافحة الافكار الجديدة . وخطر مثل هذه الفئات هو انها لا تهتم الا بمصلحتها الخاصة ،وانها تتصف بالوعي الذاتي وتملك الوسائل اللازمة لخنق الافكار .

لا شك في ان حرية الفرد في التعبير عن آرائه حول اي موضوع دون خوف من السلطات او المنظمات او سائر افراد المجتمع قد اصبحت في الوقت الحاضر مبدأ معترفاً به عند أكثر امم العالم حتى أنه قد ذُكر في ميثاق حقوق الانسان لمنظمة الأمم المتحدة .

ولكن ... رغم ذلك لا يمكن القول بان جميع الدول المشتركة في هذه المنظمة قد نصت في دساتيرها وقوانينها على حرية المواطنين في التعبير عن آرائهم ، بل هناك شواهد كثيرة تدل على ان حتى الدول التي كفلت دساتيرها وقوانينها هذا الحق لا تتورع عن اضطهاد حرية الفكر عملياً .

وليس من فرق كبير بين ان يتم هذا الاضطهاد بمخالفة النصوص القانونية صراحة او بالاستناد الى تفسيرات اضافية او انظمة استثنائية .فالنتيجة العملية واحدة وهي ان الحكومات رغم اعترافها مبدئياً بحرية المواطنين في التعبير عن ارائهم ، ترى ان هذا الحق ، مثل سائر الحقوق ، لا يجوز ان يكون مطلقاً دون اي قيد . انه في سبيل المحافظة على كيان المجتمع ومصلحته لا بد حسب رأيها ، من تحديد حقوق الافراد والجماعات .

على هذا الاساس يبرر كل مجتمع القيود التي يفرضها حتى على ابسط الحقوق الطبيعية ، اذ لا يمكن لاي مجتمع، دون هذه القيود ، ان يحافظ على نظامه وكيانه .

ولكن هل حرية التفكير والتعبير عن الرأي من الحقوق التي تشبه غيرها والتي يجب تحديدُها وتقييدها ؟

ويبدو أن هناك فرقاً جوهرياً بين حرية التفكير وبين سائر الحقوق . فبينما تؤثر القيود المفروضة على هذه الحقوق في سلوك جميع افراد المجتمع على السواء نلاحظ بان تقييد حرية الفكر لا يشمل الا عدداً ضئيلاً من الافراد اي اولئك الذين يستطيعون تكوين آراء جديدة ، خاصة بهم ويجسرون على الجهر بها مهما كانت ثورية وغير مألوفة .

رغم هذا الفرق نرى القائمين على الحكم وبعض الباحثين يدعون بان من واجب الحكام المسؤولين الحيلولة دون انتشار كافة الآراء « الهدامة » الضارة ، لأنها يمكن ان تدفع الناس الى اعمال تنافي مصلحة المجتمع وتفسد نظامه . وهم يذهبون الى ان الشرور التي تنجم عن اذاعة التعاليم « الهدامة » تفوق الضرر الذي يحدث مثلاً من سرقة احد الاشخاص لفرس جاره . لذلك لا بد للحكام الذين تقع عليهم تبعة السهر على مصلحة الدولة من ان يمنعوا انتشار كل رأي يعتقدون بأنه خطر يمكن ان يهدد المبادىء السياسية والدينية والاخلاقية التي يقوم عليها المجتمع .

هنا يجدر بنا أن نذكّر امثال هؤلاء الحكام والباحثين بان تجارب التاريخ تبرهن على ان كل اضطهاد للفكر لم يؤد في النتيجة الى الغاية المقصودة .ويجب لذلك ان يعتبر تدبيراً خاطئاً .

فالاضطهاد انما يزيد المخلصين تمسكاً بارائهم واندفاعاً في الدعوة اليها .وعدا ذلك فانه من المستحيل في العصر الحاضر خاصة ، الحيلولة دون انتشار الافكار واطلاع الناس عليها عن طريق من الطرق .

لقد انقضى زمن طويل قبل ان تنكشف هذه الحقيقة .

ويبدو ان القلائل جداً من الناس قد ادركوها حتى الان .

ثم كيف نميز الآراء الهدامة ، الخطرة من غيرها ؟ ما هي المعايير والمقاييس التي يمكننا الاعتماد عليها ؟ وهل يجوز ان نترك تقدير ذلك الى الحكام الذين يتبدلون باستمرار والذين كثيراً ما تتضارب وجهات نظرهم ؟ الا يروي لنا التاريخ ان كثيراً من الآراء والافكار التي اعتبرها بعض الحكام في زمن معين ، فاسدة وضارة ، يخشى منها على سلامة المجتمع قد اثبتت الايام بعد ذلك صحتها وفائدتها ، فادرك الجميع ، ولكن بعد فوات الأوان ، ان اضطهاد اصحابها كان خطيئة وان عدم انتشارها في حينها كان خسارة للمجتمع ؟ بل الا يكاد يكون هذا صحيحاً بالنسبة الى كل الافكار الجديدة حين ظهورها لأول مرة ؟

وفي الواقع فان الآراء والافكار الجديدة التي يمنع الحكام نشرها ويقاومها الرأي العام ليست على الاغلب خطرة في ذاتها وانما تلصق بها هذه الوصمة لمجرد انها غير مألوفة ولأنها تتعارض مع العقائد المتوارثة والمعلومات الشائعة .

*

وبعد فأين الوطن العربي والفكر العربي من مشكلة الحرية اليوم ؟ ان نقطة الأنطلاق في رأيي ، يمكن ان تبدأ بشكل سلبي وذلك بان نفضح ونحدد اعداء الفكر الحر والمستثمرين للفكر العبد . وفي هذا المجال نلاحظ : اولاً) اننا لا نزال الى حد كبير في المرحلة التي مر بها الغرب قبل القرن الثامن عشر ، واعني مرحلة الاصطدام مع العقائد الدينية . فاول ما يرمى به كل حر في البلاد العربية انه زنديق ، كافر ، ملحد . وقد يكون ذلك عن حق أو غير حق ولكنه على اي حال وجه من وجوه الضغط الفكري الواضحة ولعل اخطر ما يتبدى هذا الضغط حين تتبناه عناصر متعلمة مستثمرة .

ونحن ثانياً) واقعون على الرغم منا تحت الكابوس الاستعماري . وليس الاستعمار ظاهرة سياسية او اقتصادية فحسب ، ولكنه أيضاً مؤسسات تعليمية وتيارات فكرية وكتب وصحف ومدارس قائمة بكل مكان وتحت اسماء مختلفة ، وهو أيضاً وأيضاً مصالح مادية واعوان منتشرون وحكام بأمرهم يحكمون .

ونحن ثالثاً) نناضل ضد عدد من المؤسسات الاجتماعية البالية ومن النظم والتقاليد الرجعية او المحافظة . وقد غزتنا الحضارة الغربية غزواً سريعاً جعل التطور الذي لا بد منه في حياتنا الاجتماعية يشبه في سرعته ان يكون ثورة . وكلنا يشعر مثلاً بالهوة التي تفصل بين الجيل الذي هو منه والجيل السابق له والجيل الذي منه اولاده .

ونحن رابعاً) في بدء الطريق الى النضال الطبقي ضد فئات مستثمرة ، يتزايد نموها وتتشعب مصالحها في المجتمع العربي . وهذه الطبقات تجد في الكثير من الافكار الغربية ولا سيا في الحرية المطلقة فلسفة ترضيها وتتناسب مع مصالحها وواقعها . ومن الواضح ان تشويه الوجه العادل للحرية الحقيقية يؤدي الى نفس النتيجة التي يؤدي اليها قمع الفكر بل لعله اشد اذى وخطراً .

وهذه الوجوه الاربعة للضغط الفكري في العالم العربي ، بعد هذا كله ، يتعاون بعضها مع بعض ويستمد بعضها قوته وبقاءه من بعضها الآخر . فالنضال اذن ضدها نضال مريع ونضال مرير .

أما خطوط الطريق للعمل النضالي فيخيل الي أن ثمة ثلاثة معطيات اساسية لا بد من اقرارها اولاً بين يدي العمل ، نستمد احداها من تاريخنا العربي والثانية من المفهوم الصحيح للحرية والثالثة من حاجات المجتمع العربي الحديث .

الاولى – ان الحرية الفكرية هي من التقاليد الرئيسية في الفكر العربي . والنزعة العقلية الحرة ، حتى من سلطان الدين، هي النزعة البارزة الاولى في التراث العربي الفكري منذ تلمساته الاولى حتى ظهور اقطابه الكبار . فالمعتزلة ناقشوا الدين على اساس العقل وذهبوا في جدال الحرية الى انه ليس من العقل ولا العدل تكليف الانسان بالواجبات الدينية والاخلاقية وتحميله تبعة اعماله ومجازاته عليها ، اذا لم يعترف له سلفاً بحرية الاختيار . وقد بالغوا في التمسك بهذا الرأي حتى قال عنهم المستشرق (غولد زيهر) انهم في سبيل الدفاع عن حرية الانسان لم يتورعوا عن تقييد ارادة الاله . فالله عندهم يستحيل عليه ان يخالف العدل بينما وصفوا الانسان بقدرة الاختيار بين الخير والشر .

والمفكرون المسلمون وان لم يتكلموا صراحة عن حرية الفكر الا ان موقفهم من النزاع بين الدين والعقل لا يترك اي مجال للشك في تمسكهم بهذه الحرية فلم يكونوا يقبلون بأي سلطة فوق سلطة العقل او بأي قيد عند البحث عن الحقيقة .

هذا الحسن بن الهيثم مثلاً : وهو من اعظم العلماء الذين انجبتهم الانسانية ، يصرح بانه نشأ متشككاً في جميع الآراء

والعقائد ثم انتهى بعد البحث و التأمل الى انكار كل ما لاتؤيد الحواس وجوده او يبرهن العقل على صحته ، ثم هذا الفيلسوف ابن رشد يعلن في رسالته (فصل المقال) بانه حين تتعارض العقيدة والعقل فانه لا يتردد في ترجيح حكم العقل .

النقطة الثانية : ان نفهم الحرية بالمفهوم الاجتماعي وليس بالمفهوم الفردي . ان الحرية الفردية المطلقة ، من طراز القرن التاسع عشر ،قد انتهى عهدها وهي اذا شئت التحديد نوع من الأنانية . وانما يجب ان تفهم الحرية على انها القيد الواعي وعلى انها حرية التقيد أي حرية الارتباط لا الانعزال . ولئلا يساء فهم هذا القيد واستغلاله فاني احدده بأنه كل ما يسيء الى الكيان القومي العربي العادل الذي نعمل على اقامته وكل ما يجمد الاوضاع الاجتماعية التي نعمل على تقويضها . فإننا مثلاً لا يمكن ان نقبل بحرية الخيانة او حرية الاستثمار . فالحرية الحقيقية هي ان نشعر بهذا الارتباط الصميمي مع المجتمع العربي وندرك ضرورة هذا الارتباط وننفدع للعمل بما يتطلبه.

واما الثورة التي يعلنها بعض الفنانين الحالمين بالاستقلال الشخصي والحرية الطليقة فهي ثورة زائفة ما داموا يعيشون في مجتمع يباع فيه الناس ويشترون ، ومن جملتهم الفنانون والكتاب، بيع الخراف . ان هذه الثورة نوع من الجبن المتأنق وهي هرب من المعركة ولا يمكن ان يكون للفن اي مهمة انسانية منفصلة عن وظيفته الاجتماعية ما دام قبل كل شيء عملاً اجتماعياً لا معنى مجرداً فحسب .

النقطة الثالثة : ان نؤمن بأن الوطن العربي بحاجة الى جميع الامكانيات الكامنة في افراده . بحاجة الى كل فكرة تنبت فيه . ولا سبيل الى ابراز هذه الامكانيات الا باقرار حريه الفكر . واذا كنت ارثي لتلك الامكانيات التي ولدت وماتت وما تزال تولد وتموت في الوطن العربي دون ان يتاح لها سبيل الظهور والتحقق فاني اعتقد ان توفير الحرية للطليعة المبدعة هو شرط عاجل واساسي للابداع ولاستمرار الابداع. وميدان العمل والانتاج في الوطن العربي ارحب بكثير من ان تملأه قبضة من المفكرين والعلماء او يكفيه اتجاه محدد من الفن ، أو تُرضي حاجاتِه عدةُ مذاهب من الادب .

على ضوء هذه النقاط الثلاث من جهة ، والعوامل الاربعة التي سبقتها من جهة اخرى نجد ان طريق العمل للحرية الفكرية قد اتضح . فلا بد ، اولاً : من النضال الوصول الى حرية الفكر ، لا بد من وجود شهداء . وقد يكون من السهل الكلام على حرية الفكر ولكن ما اصعب أن يكون الفكر حراً . ما اصعب أن يُحقق حريته . اذ لا يكفي أن تقول انك حر وأن تريد الحرية ولكن يجب ان تعرف كيف تكون حراً . وليس النضال الذي سنقوده بالنضال السهل او المحدود اذا نحن تصورنا القوى التي تترابط على مفارق الطرق . على اني أتفاءل دوماً حين ارى الضغط الفكري وتساقط الضحايا . فذلك يعني ان قضية الحرية اصبحت عميقة ، عريقة في النفوس .

والفكر بعد لا يمكن ان يموت . قد تمنع جريدة من الصدور وقد يسجن شاعر ويحرق كتاب وتسلب الجنسية من مفكر ولكن اعداء الفكر الحر لا يظفرون الا باحراق الورق وباضطهاد الجسد . اما الفكر الحر فيهرب دوماً من قبضاتهم وينتشر بالرغم عنهم من خلال قضبان السجن ومن وراء اللهيب ورغم المنفى والحرمان .

ولا بد ثانياً من العمل ضد اسباب القمع الفكري جميعاً وفي جبهة واحدة ووقت واحد . إن حرية الفكر كما يبين لنا التاريخ والواقع يختلف مضمونها وحدودها حسب الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . لذلك فان الدعوة لحرية الفكر لا يجوز ان تنفصل عن السعي لاصلاح هذه الاوضاع . ليس هناك نضال لحرية الفكر وحدها. هذا سخف او تضليل. وليس هناك من نضال فكري قائم بذاته. يجب ان يشمل النضال في الوقت نفسه القوى الاستعمارية والرجعية والمصالح الطبقية على السواء. إن الجهد الفكري وحده لا قيمة لنضاله ولا جدوى. فالنضال بالقلب هو اضعف الايمان كما يقال ولا يمكن لحرية الفكر ان تقوم على اساس ثابت وطيد الا بالعمل لها في مختلف الميادين معاً .

ولا بد ثالثاً : من توفير الشروط المادية كي يتمكن المفكر من تحقيق حريته. ففي كل مجتمع تسود شروط مادية معينة يخضع لها جميع الافراد وبينهم اهل الفن والقلم ايضاً. وهذه الشروط المادية يمكن ان يكون لها تأثير كبير في حرية الفكر . فاذا اردنا ان نتمتع بحرية الفكر وجب علينا ان نسعى قبل كل شيء الى تنظيم هذه الشروط على اسس قويمة ، عادلة ، واعني بذلك مثلاً ان يتفق اهل القلم على تقرير الاجور ،

« التتمة على الصفحة ٧٠ »

القلم

خالد الشواف



[مهداة الى أهل القلم في اسبوعهم الحافل]

لبنانُ ، لا غرو أن خفوا وأن وفدوا ... فانهم أهله مــــن حوله احتشدوا

آمنتُ بالقــلم الجبار يجمعهم ... جمع الحجيــج لدى البيت الذي قصدوا

آمنت .. كل العرى لولاه واهيــــةٌ ... وكل جامعةٍ من غــيره بددُ

إن البلاد الـــتي أزجت مواكبها ... اليه ساعيةً في عرفـــه بــلدُ

لاتحسبوه يراعاً ُقــدَّ من قصبٍ ... هذا فمٌ ، وفؤادٌ خافقٌ ، ويــدُ

ومشعلٌ لسواد الشعب مشتعلٌ ... لا كوكبٌ في سماءِ الفرد يتّـقدُ

وقائمٌ عند مــاء الحوض يخفره ... كما ينافــح دون المورد الأسدُ

ونافخٌ في حديد الصور يبعث من ... أجداثهم قبل يوم البعث من رقدوا

وناصحٌ بمراقي الخــير مؤتمنٌ ... وفاضح لمهــاوي الشر منتقِدُ

ما ضرّ بالحق الاّ خرّ منحطماً ... للظلم ركنٌ من الأركان أو عمدُ

سل الطواغيت .. هل غير الصرير نفى ... عنهم رقاداً ؟ .. وهل قاموا وهل قعدوا ..

وهــل تألب إلاّ منهمو نفرٌ ... عليـــه ُيرهبه حيناً ويضطهدُ ...

لعلهــم يحسبون الحرف منطمساً ... إذا دم سال يوماً أو هوى جسدُ

هيهات .. ما الحرف الاّ الفكر منطلقاً ... فلا يخور لما يلقى ومــا يجــدُ

يا عصبة الفكر ، لاجبنــاً ولا خوراً ... عليكمو أمــل الأنسان منعقدُ

اليوم أشرف ما يسمى الأديب بــه ... (مناضلٌ صامدٌ) لا (بلبلٌ غردُ)

وإن للفكر محراباً ُيــلمُ بــهِ ... في كل جيلٍ من الفانين من خلدوا

مشى يراع الليــالي فوق رفرفه ... فخط سطرين لا يمحوهما الأبدُ :

لا يحفظ الدهرُ إلاّ ما تخط يــدٌ ... بنّاءةٌ ُفجرتْ مــن خلفها كبدُ

ولا ُيوَرّث ضخم المجــد أمّتَه ... إلا طريــدٌ ومحرومٌ ومضطهدُ

الأدب العربي وازدواجية اللغة

بقلم فؤاد أفرام البستاني

من عادة اقطاب السياسة وجهابذة الاقتصاد وغيرهم من المضطلعين بشؤون المجتمع ان يتداعوا حيناً بعد حين الى مؤتمرات يتداولون فيها الآراء ، ويتناقشون ويقررون ما يتفقون على صلاحه في تحقيق اهدافهم .

فما ضر ارباب الفكر واهل القلم ان يتنادوا ، وهم من المضطلعين بشؤون المجتمع كذلك ، الى مؤتمر يتباحثون فيه في قضايا الادب والفن ، غير غافلين عن الفروق بين الموضوعين . واهمها انه اذا سهل توجيه الاقتصاد باركانه الزراعية والصناعية والتجارية وفقاً للحاجات المحلية والاسواق العالمية ، واذا امكن تطوير السياسة بتطورات الحالة الدولية ، فلا تعنو الفنون الصحيحة لارادة موجه ولا تخضع لرغبة مسخر . انما من حق اهل القلم ان يعرضوا مشاكل الفكر وقضايا الادب ومناحي الفن متأثرة بالمجتمع مؤثرة فيه فيتدارسوها ويتبادلوا الآراء في حاضرها ومستقبلها . وعلى هذا دعتكم ايها الزملاء الكرام ، جمعية اهل القلم اللبنانية الى هذا الاسبوع نأتمر فيه في شؤون الادب العربي لا ائتمار الاطباء على العليل ، ولا ائتمار شيوخ اللغة في مجامعهم الرسمية ، بل ائتمار جماعة من المخلصين شاؤوا التساند والتعاون في تفهم مشاكل الادب الحاضرة وتوضيحها ، وفي العمل من ثم على معالجتها .

ولقد كان من حظي ان افتتح هذه الابحاث بان اعرض امامكم خطوطاً وتلميحات من مشكلة هي في طليعة المشاكل العريقة في ادبنا العربي : مشكلة ازدواجية اللغة . ولست اطمح الى وجود حل لهذه المشكلة ، بل لست اطمح الى التوفق بعرضها كاملة تامة . انما هي خطوط وملاحظات اطرحها مواد للباحثة والمناقشة عساها تعيننا في التحديد والتوضيح . ويكفي كثيراً من مشاكل الادب والفن ان تحدد وتوضح ، فتقسل فيها اقوال السذج واحكام الجهال .



ليعد كل منا بالخيال الى زمن دراسته ، وليتذكر ماقاسى من جهود في الانتقال من التعبير المحكي الى التعبير المكتوب . واذا خانته الذاكرة ، فليرافق صغار الكتاتيب في سنواتهم الاولى ، وليتخيل ما يعترضهم من صعوبات في تحصيل اولى دروسهم بالمفردات : فهذه في البيت ، والشارع ، اي في الحياة العائلية والتجارية وغيرها « طاولة » (هذا في لبنان اما في مصر فتدعى ترابيزة ، وفي العراق ميز الخ ...) وهي في المدرسة منضدة .

وهذا في البيت «لوح اسود» وفي المدرسة « سبورة » .
وهذه في البيت « محّاية » وفي المدرسة « طلاّسة » .

وامثال ذلك اكثر من ان تحصى . هذا في المفردات . وهناك القواعد . فاين المثنى ؟ واين ضمير الاناث ؟ بل اين الاعراب بكامله في اللغة المحكية ؟ – وينبغي ان اقول – في اللغات ؟ لان لغة كل قطر تختلف عن لغة القطر الآخر احياناً اختلافها عن اللغة الفصحى .

وندع لفظ الحروف جانباً ، فكم من قاف لفظت همزة وكافاً ؟ وكم من كاف لفظت شيناً ؟ وكم من ثاء لفظت تاء وسيناً ؟ وكم من ذال لفظت دالا وزاياً ؟ وكم من ظاء لفظت زاياً مفخمة ، وكم من ضاد لفظت دالا مفخمة او ظاء ، حتى كاد نعت لغة الضاد يتبرأ من ان ينطبق على عربيا"تنا المحرفة .

هي صعوبة تربوية اساسية تنتج من هذه الازدواجية فتكوّن مشكلة في التعليم تعيق تحصيل ابنائنا دروسهم في الزمن المفروض .

بيد انها لو كانت الوحيدة لهان الامر ، ولانصرف لها اختصاصيو التربية ، فعالجوها وفقا لما يرتأون ، ولما تمدّهم به اساليب التربية الحديثة .

انما هناك اثر هذه الازدواجية في التعبير من حيث انها تنحرف بالناشىء المعبرّ عن مجال الحياة الواقعية ، فتصرفه عن طراءة العبارة الطبيعية التي تدفعه اليها بيئته القريبة ويولدها اختباره الشخصي ، مهما يكن ناشئاً في الحياة الى العبارة المكتوبة المحنطة منذ القدم ، المعلّبة في « فقه اللغة » او « الالفاظ الكتابية » او « نجعة الرائد » .

فاذا شاء التعبير عما يخالجه من عاطفة او فكرة لجأ الى هذه القوالب المحفوظة والمركبات الجاهزة سواء أوافقت الحالة الواقعيّة التي يود نقلها ام لم توافقها . او لم نسمع بطلا من ابطال احدى المسرحيات العصرية ، وقد شاء التعبير الفني عن اعجابه بجمال حبيبته ، يصيح كمن وجد صورة رائعة لهذا

الجمال : « انك كالعهن المنفوش » . وكم شهدنا من رجل اذا شاء التعبير عن خيبته يلجأ الى خفي حنين ، وهو لا يدري ما الخفّان ومن حنين هذا ؟ اولم تسمعوا بعض المثقفين يتكلمون عن « الازمّة » الخانقة ويشدّدونها نسبة لاشتداد الضائقة ؟ وما لنا وللناشئين ، جهالاً باللغة او انصاف مثقفين ، ولنسمع الشيخ احمد فارس الشدياق ، من اقطاب اللغة في عصره ، او لم تلتبس عليه « الدراري » و « الدرر » حين كتب في مقدمة « سرّ الليال » – وهو كتاب في اللغة – « فلهذا كان اقصى همي ان اغوص في بحر هذه اللغة على **دراري** هذه الالفاظ ...» وشتان ما بين لآلىء البحار وكواكب السماء . وهل كان بالامكان ان يدفع الى هذه الغفلة لو كان يجري استعمال الدراري للكواكب على لسانه في لغته المحكيّة يومياً ؟

والامثلة على هذا اكثر من ان تحصى . ولكل منا في حقل اختباره الاماثيل والعبر ، حتى صحّ قول الشيخ ابراهيم اليازجي – قبل سبعين سنة – وهو من هو في الذود عن حمى الفصحى ، والغيرة على سلامتها وصفائها :

« ولا يخفى ان اللغة اليوم قد اصبحت كأنها لغة قوم آخرين ، لذهابها من الالسنة من عهد عهيد ، وايداعها بين الواح المصاحف لا تبدي ولا تعيد ... الا وان اللفظ وضع ليكون مسموعاً لا منظوراً ، واشخاصه انما هي الاصوات الناطقة لا الرسوم الصامتة . فكيف يتأتى لهذه المناجيات السرّية ان تغلب على تلك المناغيات الجهرية ، مع تواترها على حواسه في المعاشرات اليومية والمحادثات البيتية ، لا ينطلق لسانه الا بها ، ولا يجري في خاطره الا صورها ، ولا يرنّ في صماخه الا صداها » .

على ان هذه المشكلة – مشكلة التفاوت بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية ليست حديثة العهد – وفي هذه الظاهرة تخفيف من غلواء الحاكمين حكماً مبرماً على اللغة الفصحى ، والداعين الى ان نستبدل بها اللغة ، بل اللغات العامية .

فلنتريّث في الحكم ولنسمع الخليل بن احمد الازدي الفراهيدي ، يحدد البلاغة بقوله :

«ركن البلاغة اللفظ ، وهو ثلاثة انواع : **نوع لا تفهمه العامة ولا تتكلم به** ، ونوع تفهمه العامة وتتكلم به ، ونوع تفهمه العامة ولا تتكلم به ، وهو احمدها . »

ألا يفرض هذا التحديد في نوعه الاول بوناً بين لغة العامة ولغة بعض ارباب البلاغة ؟ او لا تتبطن ازدواجية اللغة منذئذ – اي منذ العهد العباسي الاول – بازدواجية كانت من نتائجها ازدواجية التعبير الادبي الفائق ، وكدت اقول ازدواجية الأدب ؟ وهل كان تعبير الهمذاني والصاحب وابن العميد صورة صحيحة – وان فنية فائقة – عن تعبير الشعب في شيراز والرّي وهراة وغزنة ؟ بل هل كان الشعب في هذه الحواضر الفارسية يفهم لغة هؤلاء الادباء فضلاً عن تذوقها والاستمتاع بها ؟

لنقرأ همزة بدون حركة المقامات والرسائل على شعب نيسابور واصبهان وهمذان في زمن اربابها ، اي في القرن العاشر ، ولنتصور ما يكون تأثيرهم بها ، وارتياحهم لوقعها ؟

وما القول اذن في ادباء الاندلس ولغة عامة الشعب كانت اذ ذاك خليطاً من الاسبانية القديمة ، والبربرية والقوطية والعربية حتى غدت الازجال هي وحدها المعبرة تعبيراً صحيحاً عن عبقرية الشعب الاندلسي ، لا الشعر الرفيع ولا النثر المسجّع الجاريان على تقليد الاسلوب المقرّر .

اما الموشحات فقد كان منها الطبيعي الفطري ، ثم الاصطناعي – وهو الذي وصل الينا في منظومات ابن الخطيب وزملائه .

او نخطىء اذا قابلنا بين هذا الادب الارسوقراطي المحصور في طبقة من سراة الادباء المنعمّين بأفانين التعبير من لغة لا نجد جذوراً لها في الشعب ، ولا صدى في مسامعه ؟ او نخطىء اذا قابلنا بينه وبين ما كان يتفنن به ادباء اللاتين من منتجات رائعة في نظر حلقتهم الارستوقراطية وهم عائشون في بعض المستعمرات والحواضر الرومانية ، في بيروت مثلاً او بعلبك او اورشليم ، في بيئة لا تحسّ بين جوانحها نبرة لكل ما يردّدون .

ننتقل بالفكر الى هذه البيئات قبل الف او الفي سنة ، وكأننا ننتقل بالفعل في يومنا هذا الى بعض مدارسنا الاكليريكية المارونية فنشهد بعض حفلات المحافل الادبية يتبارى فيها الطلاب باللغة السريانية شعراً ونثراً ، او الى بعض المدارس الدينية الاسلامية في ايران وشمالي العراق ، فالجزيرة السورية ، وارياف مصر ، يتبارى فيها الطلاب باللغة العربية الفصحى . ولا نبعدنّ كثيراً في الزمان والمكان . لندع الشعب اللبناني الى بعض المدارس ، ولنقم أمامه ما اصطلح

على تسميته بالاسواق العكاظية . ولنطلق طلابنا ، ابناءه ، يتعاكظون على مرأى منه ومسمع فيلقي احدهم قصيدة في وصف النمر يعارض بها ما ينسب لبشر بن ابي عوانة . وينشد الاخر موشحاً يترسم به خطى ابن الخطيب ، ويتلو الثاني ابياتاً يضرب فيها بين الدخول فحومل . فيصفق الحاضرون ويطرب المدعوّون ، ولكن هل يكون لتصفيقهم ولحماستهم من قياس غير ارتفاع النبرات، وجهارة الاصوات، وحركات الايماء والالقاء في تمارين ابنائهم ..؟

تمارين مدرسية ، فروض او وظائف يقوم بها الطلاب تطبيقاً لاصول مدروسة وقواعد متوارثة ، واقتداء بأمثلة قديمة اقرّها العرف والتقليد في اسّ الادب الكلاسيكي . وهل كان القسم الكبير من ادبنا الرسمي الا من هذه التمارين والتطبيقات المدرسية ؟

ما الذي اهاب بالحريري الى تأليف المقامات ؟ اولاً يعترف هو نفسه بأنه ألفها اقتداء « بمقامات البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع » .

وما الذي دفع اليازجي الى تأليف مجمع البحرين سوى تقليد الهمذاني والحريري معاً ؟ وهذا الشعر المتردد بين الفنون التقليدية من ابي تمام والبحتري الى احمد شوقي ، اية حاجة فنية دفعت اليه ؟ بل اية رغبة حيوية شعبية قام يلبيّ في تقليده ؟

واحمد شوقي نفسه — مع حفظ الالقاب — هل كان يعمد الى نظم قصائده الكبرى من مدح وتهنئة ورثاء الا متوكئاً على ما تركه الشعر العريق في الفنون نفسها حتى اصبح من الممكن ، بل من الميسور ، ان نردّ كل قصيدة منها الى مستندها القديم فكرةً ووزناً وقافيةً بل صوراً وتشابيه . اولم يلجأ في تهنئة مصطفى كمال ، الى بائية أبي تمام في تهنئة المعتصم . معركة عمورية ومعركة سقارية . المكان قريب وديوان أبي تمام قريب كذلك . فلا عبرة بالاحد عشر قرناً ، وبكل ما تحمله من تطورات وولادات وجنازات في اساليب الحياة والتعبير عنها . او لا يقرب من هذا موقف شيخنا اليازجي الكبير صاعداً في اول الصيف على بغلته الشقراء من كفرشيما الى بحمدون ، وقاطعاً هذه الاودية والمشارف التي تسمعون حفيف اغصانها المائسات، وخرير سواقيها المتسابقة، وتنشقون عبير ثمارها اليانعة ، وتنتشون بمناظرها الخلابة ، وهو يصرف شخصيته عن كل ذلك ضارباً بخياله في مجاهل الصحراء مؤلفاً مقامته اليامية ، مفتخراً بأنه حفظها عن ظهر قلب حتى اذا وصل استدعى بقرطاس فدوّنها . متى كان ذلك ؟ وفي أي بلد ؟ لنرفع عن جلد « مجمع البحرين » اسم الشيخ ناصيف اليازجي ، واسم بيروت مكان طبعه . ولنرفع الكتاب احجية لعلماء الأدب فيقترحوا نسبته الى أي عصر من عصور الانحطاط .

وما القول في انواع المعارضات والتخميسات والتشطيرات من تخميس الحلي لقصيدة السموأل الى معارضات « يا ليل الصبّ متى غده » الى تشطير معلقة عنترة للشيخ عبدالله البستاني ، تمارين مدرسية وفنّن ارستوقراطي اللغة ، وتلذّذ ترفي في النظم والنثر ، على غير حاجة واقعية ولا دافع فني ، بل انتشاء وتخدّر بالفاظ وتعابير محنطة لا وقع لها ولا اصل ، ولا صدى فهم في الشعب . اذ لم تكن هذه الازدواجية الاصلية من العوامل التي صرفت القسم الكبير من ادبنا عن ان يكون **ادب شعب** الى جعله **ادب لغة** .

او ليس جديراً بالاعتبار ثم بالاسف ان تكون اللغة ، بعد ان تخلّصت من رسميات ابن المقفع ، فنزلت الى معترك الحياة حتى مبادلها على يد الجاحظ قد عادت فانتكست في بلاط البويهيين منكمشة في ابراج الزخارف اللفظية ، ساهراً عليها ابن العميد والصاحب وبديع الزمان ، آخذة بافتعال الصور والخيالات والاحاسيس كما تفتعل الزهور في المدافىء الزجاجية ؟ حتى ضاعت السليقة الفنّانة في متاهات الاسجاع والجناسات . ونشأ في وجه هذه الملاهي الزخرفية وقد يقول المقلّد : على هامشها ، ادب شعبي فيه من الطبيعة تنوعها وفيضها وفيه جمالها وقبحها ، وفيه حيويتها الخصبة على غير تشذيب ولا تهذيب . هو ادب الف ليلة وليلة الذي يزدريه الاخذون مأخذ التقليد الخارجي لرثاثة ثيابه وتشعث مظهره . على ان الحياة الفنّانة تردّ عليهم بابقائه حيّاً خالداً ، بل بجعله الكتاب العربي الوحيد في التأثير العالمي فيترجم الى اللغات المختلفة ويقرأه الادباء تحت كل كوكب ، ويدخل في نتاج الثقافة الانسانية بينا المقامات والرسائل وسائر مظاهر الادب الزخرفي لا تذكر الا محنّطات في تاريخ الادب ، شواهد على نوع خاص من منتجات الثقافة الكتابية . هذه ادب لغة وتلك ادب شعب . وان انسَ لا انسَ استغراب اندريه جيد — وقد

زارنا لعشر سنوات خلت – الا ّ يكون « لألف ليلة وليلة » في نظر ادباء العرب ، تلك الروعة التي تكتنفه في نظر ادباء العالم الغربي : والسبب سهل بسيط مردّه الى ضعف اللغة في حكايات الكتاب .

وقد يكون من المفيد ، ونحن نعالج المشاكل الادبية من حيث اثرها في المجتمع ، ان نشير وان تلميحاً الى نتائج هذه الازدواجية في الخلق الفردي والخلق الاجتماعي .

هي ازدواجية لغوية في الاصل . ولكنها قد تؤدي الى ازدواجية نفسانية في النشء اولاً ثم في سائر الجمهور . فنعبّر عن ازدواجية في حياتنا بين الحياة الواقعية الصحيحة سواء أكانت رفيعة ام وضيعة .

والحياة الخيالية المستمدة من احلام القراءات ومغامرات الافلام السينمائية .

اولا نخشى من نتائج ذلك ازدواجاً في شخصيتنا الاجتماعية :

فكما ان المفردات المحفوظة عن الكتب المرددة ، دون ان يكون لها اسّ واقعي ، لا تبرهن عما ترمي اليه ولا تدل صراحة وحقيقة على ما نحملها اياه . كذلك نخشى ان تصبح تصرفاتنا الخارجية وعلاقاتنا مع البشر آداباً مصطنعة وتظاهرات بالصداقة والاخلاص ، لا تنم عن الواقع ، فتقودنا عن غير قصد الى شيء من الباطنية . نضمر غير ما نبدي ، فنلجأ الى مجاملات ومظاهر لا تعادل الحقيقة ، كما نلجأ في تعبيرنا ، الى قوالب وتراكيب لا تعبر تماما عن الواقع الفكري .

ولا نطيل هذه الاشارة لئلا نخرج عن القضية الى نتائجها البعيدة ، فنعود الى عرض مبادىء نعتقدها معينة على تدبر هذه المشكلة الازدواجية . فنرى ان اللغة الحيّة على تطور دائم . فلا نخاف الخوف كله من وجود لغة محكية الى جنب لغة مكتوبة . وهو امر طبيعي شرط ان لا تتسع الشقة بينهما . فطبيعي ان تكون اللغة المكتوبة متحجرة بعض الشيء في تحديد كلماتها ، وضبط قواعدها ، حتى تنشأ ضرورة على اصلها لهجات حيةّ . ولهذا يعدل اليوم في درس اللهجات عن الكتابة الى آلات التسجيل ، فتسجل اللغة الشفهية بنبراتها الحيّة ونغمتها المتهادية ابداً بتهادي الحياة المتطورة دائماً بتطور مرافق الحضارة واساليب المعيشة . وكلما انتقلت لغة الى طور الكتابة نشأ عن اصلها كما قلنا عدد من هذه اللهجات .

كل هذا طبيعي . ولكن ليس طبيعياً ان تكون اللغة المكتوبة بعيدة عن لغة الشعب حتى لا تفهم .

ثم ان الشعب هو الذي يحيي لغته ويطورها بتطور حياته ، ويغنيها بغنى ثقافته ومدنيته . ومن انتظر من لغة – اية كانت – ان تحيي شعباً وترقيه كان انتظاره طويلا ....

وهناك امر آخر ارجو ان ينتبه له . وهو ان اللغة لا يعقل ان تكون واحدة متماثلة لجميع افراد الشعب . فكما نتحقق اختلافاً ذوقياً في المأكل والمشرب والملبس والمسكن كذلك لابد من الاختلاف في اساليب التعبير بل في تذوق هذه الاساليب .

وبعد فأي موقف معقول ينبغي ان يكون موقفنا من هذه الحالة ؟ واية معالجة ممكنة لهذه المشكلة .

أنقبل على اللغة العامية في كل بلد من بلادنا نحمّلها ، على ضآلتها الحاضرة وضعفها الظاهر ، عبء التعبير عن حاجاتنا العلمية والفنية المتزايدة يوما عن يوم ، معرضين عن ثلاثة عشر قرنا من التقليد اللغوي العريق ، رامين بمفتاح عجيب طالما اولجنا – ويولجنا على رغم ما تعالاه من صدأ العصور – ابواب البلاد العربية جمعاء ، فأولانا اداة للتفاهم بين الملايين من العرب والمستعربين ؟

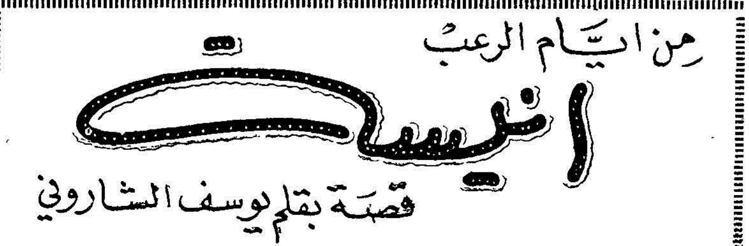
ام نبقى على تشبثنا بالفصحى مزدرين بهذه اللهجات المتصاعدة من مجال الحياة الواقعية ، مستزيدة يوماً فيوماً اختبارات اجتماعية وكثافات فنيّة لاجئين في حاجاتنا التعبيرية الى القوالب الجاهزة والاساليب المحنّطة ، راضين طوعاً او كرهاً عن هذه الازدواجية التي لمسنا عقمها وخطرها ؟

وهل من اللازم المحتوم ان نتخذ موقفاً من هذين الموقفين أو ليس هناك موقف وسط بين الحلين ؟

او ليس في تعميم التعليم ، واتساع مجال الصحافة ، وتقدّم الطباعة . وانتشار الاذاعات وسائل ينبغي درسها وتقديرها في حلّ هذا المشكل ؟ ولا نغفل عن اثر الاغاني الشعبية والافلام السينمائية .

كلها خطوط تتضافر على تحديد القضية في صعوبتها وخطرها وتعدنا اذا ما تأملناها ملياً لمناقشة الجلسة القادمة مساء غد إن شاء الله على ان نتدبّر كل ذلك بشروط ثلاثة : صراحة العالم ، وجرأة الطبيب الجرّاح ، وغيرة الاب على مستقبل ابنائه .

فؤاد افرام البستاني
عن ادباء لبنان

كانت الفتيات الصغيرات جالسات يحدقن في مدرستهن العجوز وهي تقص عليهن قصة يهوذا ، وكانت تصف لهن كيف كان المسيح يحب تلاميذه جميعاً كما تحبكن امهاتكن ايتها الفتيات ...

وكانت انيسة عبد الملاك اكثر هؤلاء الصغيرات تحديقاً وانصاتاً ، فقد كانت من اسرة من اقباط مصر المتمسكين بتعاليم الدين تمسكاً شديداً ، يأخذ والدها نفسه به كما يأخذ به افراد اسرته جميعاً ، يؤدي الشعائر الدينية على أكمل وجه ، فيصطحب اسرته صباح كل احد ليؤدي فروض العبادة في الكنيسة، لا يفوته صيام كبير أو صغير، كما كانت له عادة الاجتماع بأفراد أسرته صباح كل يوم يصلي بهم ويطلب من الله المعونة وعدم الخطأ فيما يؤدونه أثناء النهار . وهي عادة أخذ بها نفسه قبل الزواج ، ثم اشرك فيها زوجته فيما بعد وظل محافظاً عليها حتى بعد ان ازدادت الاسرة وأصبحت تتكون من خمسة اشخاص . كذلك كان يغمض عينيه كلما جلست الاسرة الى المائدة يذكّر الله انه لم ينس الفقراء والمساكين رغم ما امامه من طعام ، بينما صغيرته انيسة – وكانت أصغر أفراد الاسرة – متلهفة على الطعام تود لو ينتهي ابوها من صلاته بأسرع ما يكون لتخطف اللقمات الى فمها الصغير . وفي كل مساء كانوا يجتمعون مرة أخرى يرتلون معاً ترتيلة مسائية ، حتى اذا وصلوا إلى هذين البيتين :

ان أتى في الليل سقم — أو دنا أمر رهيب
عز قلبي يا سروري — واشف نفسي يا طبيب

احست انيسة بالرهبة والفزع من هذا الليل الذي تقبل عليه ، وشعرت انها تدخل في مغامرة لا تدري نتيجتها ، ثم ما تلبث ان تتجه نحو فراشها حيث تنحني لتصلي صلاة حفظتها عن ظهر قلب تطلب من الله ان يحميها من « الحيات والعقارب وكل قوات الشرير » وهي جملة تدرك معناها جملة وان لم تدرك معناها لفظاً لفظاً – شأنها في ذلك شأن الترتيلة – ولهذا كانت تتصور الليل مليئاً بالعقارب والثعابين واللصوص، ولن ينقذها من كل هذه الاهوال سوى تلك التمتمات التي يجب ان تتلفظ بها والا حدث ما لا تحمد عقباه .

وكانت المدرسة تتحدث الآن عن قلب يهوذا الاسود وكيف أنه أحب شيئاً آخر أكثر من المسيح، فقد كان يحب النقود .وقد عرض عليه الاشرار الذين يسكن الشيطان قلوبهم ان يبيع المسيح ويقبض ثمنه ليشتري به منزلاً كبيراً له وعروسة كذلك لابنته الصغيرة سالوما .

وتذكرت انيسة انها سمعت امثال هذه القصة من والدها عشرات المرات، فالأمر لم يكن يقتصر في منزلها على مجرد هذه الشعائر بل كان يتغلغل الى كل صغيرة وكبيرة من حياة الاسرة . فلقد لقنوها بهذه الوسائل المختلفة – وفي هذا العمر المبكر – أن هناك صدقاً وكذباً ، أن هناك خيراً وشراً، أن هناك ملائكة وأبالسة ، أن هناك نعيما وجحيما، أن هناك أبيض وأسود ، وعرفوها أين يجب أن تكون ، وما ينتظرها ان هي انحرفت . فقد حدث ذات مرة أن أقبلت الصغيرة من مدرستها تتلفظ بكلمة سمعتها ذلك اليوم من زميلة لها ، وكانت معجبة بمخارج الحروف وبقدرتها على تحريك لسانها وشفتيها بلفظ جديد وان لم تفقه له كبير معنى ، فما ان لفظتها حتى التفتت اليها امها منزعجة تسألها عمن علمها التلفظ بتلك الكلمة ، فلما اجابتها بأنها زميلتها صفاء امرتها ألا تتفوه بها مرة أخرى لانها كلمة قبيحة ، وان تتجنب معاشرة تلك البنت ، وسرعان ما نسيت البنت هذه النصيحة فكررتها مرة أخرى امام والديها ، فما لبثت الام ان صرخت فيها وهددتها بأنها ستذهب الى « النار حيث يأكلها الدود » إن هي كررت هذا اللفظ ،

وحاول الوالد أن يهدىء من سورة الأم حين رأى ابنته تبكي ، لكنه حين علم بأنه سبق عليها التنبيه انضم الى الام مقرعاً ابنته حتى احست انيسة انها كائن بائس لا نصير له ، وان النار والدود ينتظرانها ما دام والداها غير راضيين عنها .

وعادت المدرسة تقول إن الأشرار تركوا يهوذا ولكن الشيطان بقي يوسوس في أذنه (ومثلت المدرسة شكل الشيطان وهو يوسوس في أذن يهوذا) وضحكت بعض التلميذات ، ولكن اكثرهن ظللن واجمات تنطق وجوههن بالخوف والاشفاق على ما ينتظر المسيح على يد يهوذا .والمدرسة تقص كيف انتصر الشيطان واتفق معه يهوذا على ان يسلم المسيح للاعداء . ولما كان الاعداء لا يعرفون المسيح فانه سيتقدم نحوه من دون التلامذة ويقبله ، فيظهر امام المسيح بمظهر الحميم ويعرف الاعداء انه الشخص الذي يريدونه .

وتذكرت انيسة ان الكذب انواع ، وانما مهما تحايلنا فان الله يكتشف أين كذبنا . لقد كان يحلو لها أن تتخيل احيانا ما لا وجود له ثم تقصه على والديها أو أخويها كأنما رأته رأي العيان . وكان والداها يدركان – بما لهما عليه من ثقافة – أن هذا أمر طبيعي ينشط به الطفل ملكة التخيل لديه ، فلم يكونا يفسرانه على انه كذب ، ولكن والدها قص – في أحد الاجتماعات العائلية الدينية الصباحية – قصة الزوجين حنانيا وسفيرا اللذين ورد ذكرهما في الانجيل ، وكيف أقبل الزوج على بطرس تلميذ المسيح وأخبره بأنه باع ما يملكه ووهب كل ثمنه الكنيسة، ثم قدم له مقداراً من المال ، ولكن بطرس أدرك أن حنانيا لم يحضر له كل الثمن وواجهه بذلك فسقط الكذاب ميتاً على الارض ، وما لبثت زوجه أن أقبلت بغيران تعرف ما حدث لزوجها واكدت ان المبلغ الذى أحضره زوجها هو ثمن ما باعاه حقاً . فقال لها بطرس إن الذين دفنوا زوجك سيدفنونك ايضاً .
ومن يومها تعلمت انيسة أن كل من يقول غير الحقيقة يقتله الرب ، ويكون مصيره مصير حنانيا وزوجه سفيرا . ومع ذلك فقد كانت كثيراً ما تقص قصصاً لم تحدث . وعندما كانت صغيرة جداً لم تكن تميز بين الحقيقة والخيال ولكنها بعد أن كبرت قليلاً واستمرت على عادتها كانت تدرك فعلتها لكن بعد أن تكون روت كل ما لديها فتذهب الى النوم خائفة تحس انها ستقتل في كل لحظة وأنها لن تستيقظ ابداً من نعاسها إن هي استغرقت فيه .وهكذا وقر في نفس أنيسة صورة العقاب المخيف سواء على شكل موت أم على شكل نار لا تطفأ ودود لا يموت أم على شكل عين إلهية لا تنام ؛ وذلك لكل من يكذب أو يشتم أو يحلف ، ولم يكن الأمر يخلو من أن تكون هي واحدة من هؤلاء ، بين حين وحين عندما يغرر بها الشيطان .

وقبض أصدقاء الشيطان على المسيح وانصرف الجميع ، وأصبح يهوذا وبيده النقود يحدق فيها ، وهنا جاءه الشيطان وهو يضحك ضحكاً شديداً هذه المرة ويخرج لسانه ليهوذا صائحاً بصوت مستنكر (وزاد وجه المدرسة تجعيداً وهي تصيح فعلاً مقلدة صوت الشيطان) : ها ها لقد ضحكت عليك

أيها العبيط وجملتك تبيع الصديق الذي أحبك بنقود ستنفقها ولا يتبقى منها شيء معك بعد قليل ، ولكن سيبقى في قلبك الاسود هذه الفعلة الشنيعة، ولن تستطيع أن تكلم بعد اليوم أبداً تلاميذ المسيح الآخرين مثل بطرس ويوحنا ولوقا . وتلفت يهوذا حوله يريد أن يضرب ذلك الذي مكر به وخدعه ، لكن الشيطان انحنى بسرعة وتفادى يهوذا ثم تعلق بقفاه ، فكان يهوذا يحس به ولا يراه ، يسمعه ولا يستطيع أن يمسك بـه (واقشعرت أصغر الفتيات سناً مثل فهيمة وإنصاف وشفيقة وليزا وأنيسة)

وكانت أنيسة تعاني أزمة نفسية عنيفة ، فمنذ أيام اكتشفت أسرتها ذات صباح أن يمامة قد صنعت لها عشاً علـى قاعدة شباك المطبخ ، وخلف صينية القلل تماماً ، وقد تفاءلت الام بوجود هذا الطائر الوديع (ويبدو أن ذكره قد أتى في آية من آيات الانجيل) فحرمت علـى اولادهـا ان يعبثوا بهـذا العش ، وافهمتهم ان اليمامة ستبيض وشيكاً وتضع افراخـاً صغاراً، وحرام الا يوفروا الهدوء اللازم للام واطفالها. وظل الاطفال يراقبون العش باهتمام كل يوم حتى شاهدوا – في غياب اليمامة وامهم ايضاً – بيضتين صغيرتين غارقتين في اعشاب العش القصيرة الجافة المتماسكة ، وقد فرحوا برؤية البيض فرحاً عظيما وعدوه كأنما هو انتصار لهم او كأنمـا هو نتيجة مجهودهم ، وظـلوا يترقبون يوماً بعد يوم، إفراخ هذا البيض لينعموا برؤيـة طائرين صغيرين لم يشاهدوا مثلهما في حياتهم .

وبالامس مساء ، وقبل العشاء، كانت الاسرة تجلس في شرفة المـنزل في الطرف الشمالي منه يستمتع افرادها بالهواء الرطب المنعش وهم يتسامرون ، وقد جلس على مبعدة منهم خادمهم عجيب، وهو صبي لا يتجاوز الحادية عشرة كان قد احضره بواب المنزل من قريته كفر النصارى ليشق طريقه ويجرب حظه في مدينة مزدحمة كالقاهرة ، وكان الان قد انهكه عمل النهار ، فانزوى على الارض في ركن الشرفة شبه نائم . وفجأة تسللت انيسة من بين الجماعة معللة نفسها برغبتها في قليل من الماء ، والواقع انها لم تكن ظمأى الى الماء بقدر ظمئها الى رؤية ما تم في امر البيضتين ، فاتجهت على اطراف اصابعها الى المطبخ ، وهناك سحبت مقعداً ووضعتـه بجانب الشباك ، ثم اعتلته ونظرت خلف القلل . كانت اليمامة هناك ، لكنها رأت – ويالفرحة ما رأت – فرخاً صغيراً ضئيل الحجم يفتح فمه بجوار امـه كأنما يبحث عن شيء ، اما البيضة الاخرى فيبدو انها كانت ما تزال كما هي. ولم يفزعها وجود اليمامة – التي كانت الآن نائمة – ولا هو غير من خطتها التي صممت عليها ، بل مدت يدها تريد ان تخطف الفرخ الصغـير لتمسكه وتتأمله عن قرب ، وفزعت الأم من نومها وحلقت في عنف بعيداً . حتى تطاير منها الريش ، وليست تدري انيسة حتى الآن ، هل وقع العش وتناثر بسببها أم بسبب طيران اليمامة المفاجىء ، كل ما تعيه هو انها وجدت امامها وعلى بلاط المطبخ الابيض بعض اعشاب العش المتناثرة ، ثم البيضة الأخرى وقد تكسرت فظهر من داخلها فرخ آخر اقل حجماً ينبض بالحياة وان كانت قطرتان من دمه تنتثران على جلده الشاحب المنحول . اما الفرخ الآخر فيبدو انه سقط خارج النافذة في فراغ المنـور . وفزعت الصغيرة مما رأت ، وجرت الى الخارج، فلما اطمأنت الى ان الجميـع غافلون عنها ، ولم يتنبه واحـد منهم الى ما حدث ، اطفأت نور المطبخ ثم تسللت الى الشرفة حيث كان والداهـا وأخواها ما زالوا يتسامرون ، بينما كان الخادم الصغير يغط الآن في نوم عميق . وما لبثت الام ان صـاحت « يا عجيب » لكي يستيقظ ، ثم طلبت منه ان يذهب الى المطبخ ليأتيها بكوب ماء ، وكأنما تذكر الجميع فجأة ظمأهم فطلبوا بالتتالي نفس الطلب ، ولهذا عدلت الأم طلبهـا وأمرت خادمها ان يحضر القلة نفسها ، واتجه الصبي نحو المطبخ ، لكنه حين اضاء النور لاحـظ الفرخ الصغير الملقى عـلى الارض وهو ما يزال ملتصقاً بقشرته يفتح منقاره كأنمـا يلهث . وتأمل الصبي المنظر العجيب مندهشاً ثم قاده حب الاستطلاع الى ان يمسه بيده وجلس الطفـل يداعب الفرخ الذي كان يقـاوم الموت ، ونسي ما كلفته به سيدته حتى طالت غيبته ، فصرخت تنادي عليه ، لكنه كان مشغولاً باكتشافه الرائع ، لهذا قامت بنفسها لترى ماذا يفعل الصبي، ولدهشتها ، وجدته منحنياً على الارض وبيده الفرخ وقد تدلت رقبته واسلم انفاسه بينما تناثر قشر البيضة واعشاب العش الجافة على ارض المطبخ فصاحت السيـدة في دهشة « باسم الصليب ! ماذا تفعل ايها الولد ؟ » وفزع الصبي بينما انطلقت السيدة صارخة لماذا فعلت هذا ؟ لمـاذا اقتربت من العش ايها المجرم الذي لا قلب له ؟ » واقبل على صراخها افراد الاسرة وأنيسة من بينهم وصاحت الاخت الكبرى نصيفه « باسم الآب والابن والروح القدس ماذا حدث ؟» – والخادم يزعق ويحلف بانه لم يقترب من العش بل وجد الفرخ ملقى عـلى الارض ولما

مُسَابقة «الآداب» الشِعْرِيَّة

تدعو « الآداب » شعراء العربية في مختلف اقطارهم الى المشاركة في مسابقة شعرية تتناول الموضوعات التالية :

اولاً – عودة اللاجئين

ثانياً – الوحدة العربية

ثالثاً – المرأة في المجتمع العربي

رابعاً – حرب على الاستعمار

خامساً – حرب على الاقطاع

الشروط

١ – يحق للشاعر ان يشترك في اكثر من موضوع واحد

٢ – يحسن بالقصيدة الا تتجاوز مئة بيت ولا تقل عن ثلاثين

٣ – لا ضرورة لوضع اسم مستعار للشاعر

٤ – تنتهي المسابقة في آخر تشرين الاول القادم ١٩٥٤ .

الجوائز

الاولى – ٣٠٠ ليرة لبنانية او ما يعادلها

الثانية – ١٢٥ « « « «

الثالثة – ٧٥ « « « «

كانت له سوابق في الكذب فان السيدة انهالت عليه ضرباً ، وكان كلما حلف كلما ضوعف عقابه . وزعق الابن الاكبر شفيق قائلاً : «اخرس ايها الكذاب» وقال الوالد « اذا قلت الحق سامحناك . » وكان الحق الوحيد هو ان ينسب الى نفسه ما وقع بالعش ، ولكن الولد اصر على انه لم يعبث بشيء ، وأنيسة تستمع الى ما يدور وتلاحظ غضب والديها واخويها الشديد وترتعد خوفاً لا تدري ما عسى ان تكون النهاية . وازاء اصرار الصبي على الانكار التفتت الأم الى اولادها تسألهم ، هل اقترب احدكم من العش؟ وقبل ان تسمع الاجابة من احدهم استمرت تسأل « هل اقتربت من العش يا شفيق ، هل اقتربت يا نصيفه، هل اقتربت يا أنيسة ? » وكانت أنيسة لا تملك اختيار اجابتها ، فقد سمعت اختها تقول «لا» واخاها يقول «لا» وبطريقة آلية قالت هي الاخرى « لا » ولا يمكن ان يكون لدى السيدة ام شفيق ابن يكذب ، لهذا انهالت مرة اخرى ضرباً على الولد وهي تقول له : « انك ستعلم أولادنا الكذب». وأنيسة واقفة ترقب ما يحدث ، ! انها لا تحس انها كذبت فحسب ، بل وان بريئاً يعاقب بدلاً منها . وزاد احساسها بثقل الخطيئة حين جلسوا يتناولون العشاء وقد حرموا منه الخادم الكذاب ، وهو يبكي صارخاً : «اريد ان اعود الى اهلي ، اريد ان اسافر الى بلدي» والاب والام يأمرانه بالصمت . ولم تتناول انيسة الا لقيمات في بطء ، فقد انعدمت شهيتها الى الطعام ، وبزغ في نفسها صراع بين أن تقول الحقيقة وأن تصمت ، وكلما مرت الدقائق وجدت ان فرصة الاعتراف تتضاءل ، ومع ذلك ظلت حزينة حزناً عميقاً ، حتى انها حين رقدت في سريرها عاودها ذلك الخيال المرعب . إنها ان نامت فلن تصحو ابداً ، ستموت كما مات حنانيا وكما ماتت زوجه سفيرا ، ثم تذهب الى النار حيث يأكلها الدود وكانت تفزع لهذه الخواطر فلم تجد الا دموعها تلجأ اليها في محنتها ، فاغرورقت عيناها ، واصداء التراتيل المسائية تملأها رهبة وخوفاً ، وقامت وركعت تكرر صلاتها وتطلب حمايتها من الحيات والعقارب وهي تحس ان احداً لا يسمع منها وان عين الله لا تنظر نحوها الا في غضب مقيت ، وظلت تناوشها هذه الافكار حتى استغرقت اخيراً في النعاس . وعندما قامت في صباح اليوم التالي لم تكن قد نسيت شيئاً مما حدث . لقد وجدت ان عجيباً كنس المطبخ فازال الاعشاب الجافة وقشر البيض والفرخ الميت ، ولكنها رفعت عينيها تبحث عن جريمتها في وجوه والديها واخويها ، ولكنها لم تجد الا ان عجيباً متجهم الوجه يبدو عليه الخوف من كل حركة تتجه نحوه كأنها موجهة لضربه ، والكل ينظرون اليه ، نظرتهم الى الكذاب الخائن الذي حطم عش اليامة الوادعة ، وهي وحدها التي تعرف الحقيقة ولا تستطيع ان تصرح بها ولا تستطيع كذلك ان تنساها . وهكذا ذهبت في طريقها الى المدرسة وهي تحس بضيق شديد لا تعرف كيف تقضي عليه وتتخلص منه ، فان عين الله التي تراءت لها ليلة الامس تتابعها الآن ولا تستطيع الاختفاء منها ، لا في ثياب اميرة مسحورة (فهي لا تستحق ذلك) ولا في شكل أوزة ولا حتى ارنب ، وكانت عين الله ما تزال تلاحقها وهي جالسة في حصة الدين تستمع الى قصة يهوذا بانتباه شديد وتتلهف لمعرفة مصيره .

واستمرت المدرسة في قصتها ، تروي كيف ان يهوذا لم يستطع ان ينام طوال الليل ، وكيف ان ابنته سالومة كانت تسأله عن العروسة التي وعدها بها ، لكنه لم يجبها بشيء ، وكيف ان الشيطان كان يقفز حوله طوال الوقت بحيث لم يجد طريقة للخلاص الا ان ينتحر بشنق نفسه .

وقالت طفلة في انفعال : احسن .

وسألت اخرى : ما معنى شنق نفسه ?

فاجابتها زميلة لها : يعني علق حبلاً حول رقبته .

وفجأة رؤيت أنيسة وقد تشنجت اطرافها وصرت باسنانها وهي تبكي بكاء مراً ، واسرعت اليها المدرسة ، وفزعت الطالبات واخذن يبكين بدورهن . وكانت عينا انيسة المحمرتان محدقتين ، رغم ما فيهما من دموع تبحثان هل يمكن ان يكون هناك شيطان يمسك برقبتها .. وكأنما هي تنبه ببكائها هذه المجموعة من الناس ليجتمعوا حولها فتحتمي بهم من «عين الله» . وكان الآن شعر المدرسة الابيض يقف بينها وبين هذه العين مما طمأنها قليلاً . واقبلت ناظرة المدرسة على الهرج والمرج اللذين شاعا في الفصل تسأل عن سر الضجة ، فاخبرتها المدرسة قائلة : لقد كنت اقص قصة يهوذا ، ويبدو ان هذه الطالبة قد تأثرت لمصير المتيح على يد هذا الخائن فانتابتها هذه النوبة من البكاء . انها الآن احسن قليلاً .

القاهرة **يوسف الشاروني**

المصطلحات العربية وحاجات المجتمع

بقلم الدكتور مصطفى جواد



تمر اللغة العربية في هذا العصر بطور من اطوار نهضتها الحديثة ، تحتاج معه إلى فضل عناية ومزيد رعاية ، وكثير من التوجيه والتسديد والتوحيد ، وفي الحق أن هذه اللغة لم تشهد عصراً أحفل بالعلوم والفنون والصناعات ، من هذا العصر ، الذي لا تنفك فيه ملكات الابداع ، وقوى الاختراع ، وقرائح الاحسان ، واليد الصناع تقوم عن أشياء كثيرة المنافع للانسان ، في سيرته العقلية ، وسيرته العملية ، وسيرته الاجتماعية ، وغيرها من ضروب السير كالسيرة العسكرية والسيرة الصحية.

واللغة العربية في يقظتها الأخيرة ، كالذي تحول من دار ساذجة الاثاث ، والآلات والادوات ، الى قصر منيف ،فيه من الاشياء كل فاخر وفائق ، من أثاث نفيس لا عهد له به وعيش رغيد لم ينعم به من قبل ، فهو محتاج إلى معرفة الأسماء، والعلم بطرائق الاستعمال بمرة واحدة ،والى تعابير توائم هذا العيش الجديد ، وتلائم هذا العهد الحديث . قلت ذلك على أيسر التمثيل ، لان الامر اعظم من ان يحيط بحقيقته ضرب الامثال ، ويصوره التشبيه ، واني لأرى فيه مسوغاً لأن اقول : إن اللغة العربية ، على بذل المجهود الأخير في تنميتها، واستفراغ الطاقة في تعليتها ، لا تزال فاترة ، غير قادرة على السير ، في طريق الحضارة البشرية الحديثة ، فضلا عن أن تسايرها جنباً الى جنب ، كما هو شأن اللغات الحية ، المتمدنة الأخريات . عراها ذلك الفتور،وأصابها ذلك العجز والقصور، مع أنها من اللغات المنطوية على عناصر الحياة الكامنة فيها قوة النماء والانتشار والازدهار . وها هنا تجبأ علينا مسألة الزمان ، وليس من شيء ، أدعى الى الأسف من الزمن المساء استعماله ، وليس من شيء في الدنيا لا يدين للزمان ، بجزء مما يميزه ، من حسن او رداءة ، وخير او شر ، ولقد أنقضت ظهرَ اللغة العربية ، ديون قرون من الاصطلاحات ، في العلم والفن والادب ، وفاتها زمان إصلاحات عدة وتخلفت عن ركب الحضارة الحافد بتخلف أهلها وذهاب سلطانهم ،وتضاؤل إيمانهم بحقهم في الاستقلال ، وترادفت عليهم وعلى لغتهم ، نوائب الزمان ، باستيلاء الأعاجم والافرنج على بلادهم ، واستفحال اللهجات العامية في أقطارهم وأمصارهم ، ولولا هذا القرآن العزيز وهذا الادب الفخم ، لطوحت بها الطوائح ، وقامت عليها النوائح ، وصارت كاللغات التاريخية ، لا تدرس الا عند الضرورة ، ولا تظهر الا في مواضع خاصة،ولا ينطق بها الا بعد مرانة طويلة بتكلف ومعاناة . وقد وقعت العربية من جراء ذلك ، في مشكلات مختلفة ، لاتزال عسيرة الحل، صعبة العلاج ، فأولاهن وهي الكبرى لاتصالها بالسيرة العلمية والسيرة العملية ، هي المصطلحات ، فألوف كلمات أفرنجية في الميكانيك والطب والطبيعيات والكيمياء والرياضات ،ومنها الهندسة على اختلاف أنواعها،ومنها القوانين الحقوقية ،والقواعد التجارية والمالية ، والتربية الحديثة، والتعبئة والقتال و الفنون كالحكاية المشهودة « التمثيل المسرحي» والحكاية المصورة « التمثيل السينمي » وكلاهما من القصص المشخص ، وغير ذلك ، ما برحت تنتظر اصطلاحات عربيـة تقابلها ،والقسم الذي اصطلح عرب هذا العصر ، على تسميته بأسماء عربية لا يزال مختلفاً فيه في الأقطار العربية وفي القطر الواحد منها أحياناً، بحيث لا يجوز تسميته اصطلاحاً لأن الاصطلاح هو ما جرى الصلح عليه ومن الصلح اشتق الاصطلاح ليؤدي معنى الاتفاق والاصفاق والاجماع على الكلمة ، التي اختيرت لتدل على مدلولها ، دلالة علمية أو فنية .

ولم يكن تتصير العرب الآخرين لا الآخرين في الترجمة والنقل وحده ، بل في الاشياء التي استعملها قدماؤهم ،والمعاني التي اخترعها اسلافهم ، والفنون التي عالجها ماضوهم ، وضمنوها كتبهم فهذه كلمة التمثيل اختارها بعض التراجمة (Représentation) ولم يفتش في كتب العرب عما يقابل الكلمة الافرنجية حق المقابلة ، افيصح ان العرب كانوا يجهلون التمثيل الساذج ،وان

كانوا يجهلون التمثيل الفني ؟ فان لم يصح جهلهم إياه فما كان اسم هذا الفن ؟ لقد كان للعرب نوعان من التمثيل : عام وهو « الحكاية » وخاص وهو التمثيل الهزلي المعروف بالسماجة ، واهل السماجة هم حكاة هزالون يعتمدون في فنهم على برقشة ملابسهم ، وغرابتها وغرابة حركاتهم وفيهم يقول عبد الله ابن المعتز :

تميل في رقصهم قدودهم كما تثنت في الريح سروات
وركب القدح فرق حسنهم وفي سماجاتهم ملاجات

وهؤلاء كانوا كالذين نشاهدهم في « السراكس » الاجنبية يضحكون الناس في فترات الاعداد والاستعداد للافعال الاصلية . والحكاية اي التمثيل العام ، كانت معروفة عندهم واشتهرت بالبراعة فيها جماعة منهم اشهرهم في القرن الثالث للهجرة أبو دبونة ، وقد ذاعت حكاية ابي دبونة ، في كتب الادب والتاريخ ، لاشتهارها بين الناس ، فكان يقال « حكاية ابي دبونة » لكونها مثالاً للبراعة ، قال الثعالبي « كان يحكي كل صوت ، وكل هيأة وكل مشية ، ويحكي اصوات الدواب والبهائم والطير فلا يفرق بين صوته واصواتها ، ونظيره في زماننا أبو الورد صاحب أبي محمد المهلبي الوزير ولا ثالث لهما. كذا قال ولشد ما تحجر واسعاً وحاول سد سبل على الملكات فقال الجاحظ « كان ابو دبونة يقف بباب الكوخ بحضرة المكاري فينهق فلا يبقى حمار مريض ، ولا هرم حسير ، ولا تعب بهير الا نهق . »

ولست بصدد ان اذكر اخبار هذه الطبقة من الممثلين ، على ضآلة فنهم يومئذ ، فعندي منها كثير. وانما اريد ان ابين ان اللفظة التي تقابل الـ (Représentation) عند العرب هي « الحكاية » فاختار المترجم الغالط المحظوظ كلمة « التمثيل » ثم احتاج العرب الى التمثيل السياسي ، فاصبح التمثيل ضربين كقانون الطرب بالليل ، وقانون الحكم بالنهار ، وبما قدمت يعلم ان جماعة من التراجمة اساؤوا الترجمة فاساؤوا الى العربية مع احسانهم اليها ، وتفضلهم عليها ، وما زلنا نتحمل غلطهم فلسنا نطمع اليوم مثلاً في تسمية التمثيل « حكاية » بعد مرور هذه السنين على استعماله وشيوعه في العالمين ، فان لعرف الاستعمال سلطاناً قاهراً . ألا ترى ان كلمة « الجمعية » كانت تصحيفاً لكلمة « الجميعة » وقد استعمل التصحيف استعمالاً لا يغني معه استدراك ؟

قلت آنفا إن ألوف مصطلحات غربية ، تحتاج الى مصطلحات عربية ، وإن ما اصطلح على تسميته حديثاً لايزال مختلفاً فيه ، فما الأساليب الفعالة لادراك ذلك والوفاء بحاجة المجتمع العربي في الأقطار العربية ؟ والجواب عن ذلك ، أن هذه المصطلحات منها ما هو قديم ، ولا يزال مستعملا كقسم من المصطلحات الفلسفية ، فان العربية في عصور التقدم ، والحضارة القديمة ، لم تقصر في تأدية المعاني الفلسفية ، ولا عجزت عن تقديم الاصطلاحات فيها ، بحيث أخذ دارسو الفلسفة ، يتخلون عن المصطلحات اليونانية بالتدريج صائرين الى العربية ، التي أقل ما فيها من الفوائد أنها تشعر باصل المعنى المراد ، وهذه رسائل إخوان الصفاء وكتب ابن سينا وكتب مسكويه وكتب أبي حيان التوحيدي ، وكتب الفارابي وكتاب المعتبر لابن ملكاء وكتاب الجديد في الحكمة لابن كمونة وكتب نصير الدين الطوسي وعضد الدين الايجي غاصة بالمصطلحات الفلسفية التي لم يتوفر العرب على استخراجها وتنسيقها وترتيبها ترتيبا معجميا ، للاستفادة منها في ربط مصطلحات الفلسفة القديمة بالفلسفة الحديثة وقد كان فيها بلاغ . وإذا ما اعوزنا شيء لقضايا جديدة ، ومسميات حديثة ، وهذا أمر محقق ، عمدنا

الى الاشتقاق ، الذي هو اوسع طريق الى تنمية اللغة العربية، وافتتانها في التعبير ، وازدهارها في العلوم على النحو الذي انا ذاكره .

يجب اذن قراءة كتب الفلسفة ، عوداً على بدء ، وتسجيل ما فيها من اصطلاحات تسجيلاً معجمياً ، وقد تأملت فهرست كتب ابن سينا للاستاذ يحيى المهدوي الايراني فوجدت له مائتين واثنين وأربعين تأليفاً ، بين كتاب ورسالة ، وفيها من المصطلحات الرشيقة ، والتعابير الأنيقة ، ما يبعث على الاعجاب والافتخار . فدارسو الفلسفة الحديثة أحق منا باستخراج هذه المصطلحات ، والنفع والانتفاع بها ، وليس من المضيمة أن نرمي أنفسنا بالكسل ، والفشل عن العمل ، ولا أن نزنّها بالتواكل في قضية المصطلحات عامة ، ولا نعفُ من التقصير القومة على شؤون الثقافة اللغوية في بلاد العرب ، فانا لم نجد لهم شهامة مستدامة ، في تلافي نقصان المصطلحات ، ولا تشجيعاً صادقاً على العناية بها،والتوفر عليها ، والانصراف اليها ، ولا ننس فضل المجمع اللغوي بمصر ، ولكنه فضل منزور ، بالنسبة الى البرهة التي أمضاها في اعدادها ، وأنا لا أبرىء مجمعنا العلمي العراقي ، من بعض التقصير في هذا الشأن على أن اكثر أعضائه أولو وظائف ، تستبد عليهم باوقاتهم ، وتستأثر بنشاطهم ، فلا يستطيعون أن يكلفوا انفسهم اكثر من وسعها ولا أن يستأدوها اكثر مما عندها ، والاصطلاحات تقتضي التجرد للمطالعة ، والادمان للتسجيل ، مع معرفة كافية بلغة حية غربية ، كالفرنسية والانكليزية والالمانية ، وعلم بمبادىء العلوم ، في أقل اعتبار وايسر عدة ، وأهون آلة ، وكلما زادت معرفة الباحث باللغات العلمية ، زاد فضله في المصطلحات .

وليست الصعوبة في مشكلة المصطلحات ، في وجدانها ولا في ايجادها ، فالمصطلحات رموز الى مسمياتها وكنايات عنها ، واشارات اليها ، وليس من مصطلح في كل لغة يدل على جميع ما في مسماه ، فذلك داخل في الاحالة . تأمل المطر في العربية، فهو مشتق من المطر، ويقابله في الافرنسية (le Manteau imperméable)أي ملحفة لا ينفذها الماء ثم اختصروه فقالوا (Imperméable) أي الذي لا يُنفذ ، فالممطر معناه شيء له صلة بالمطر ، وأوضح اوجه هذه الصلة انه يحدث المطر ، لانه اسم آلة وهو في الحقيقة بعيد عن ذلك المعنى لانه يحول بينه وبين مرتديه ، ويدفعه عنه وكذلك « الأمبيرميابل » في الفرنسية لا يوضح إلا عدم النفذ و"منعَ النفوذ وهو معنىً واسع عام ، فالمصطلح يوضع أحيانا لأقل ملابسة بينه وبين مسماه ، وأوهى صلة بينهما ، وانما الصعوبة كل الصعوبة ، والعسر كل العسر ، في إعمام المصطلحات ونشرها في الاصقاع العربية ، موحدة متفقاً عليها ، منظوراً اليها بعين الحاجة ، لا بعين المشاكسة واللجاجة .

ونجد في الأحيان أعضاء المجمع الواحد يتمارون ويتشاكسون ، لاظهار فواقهم في اللغة ، فيضيعون على أنفسهم أوقاتهم ، وتخسر العربية زمناً لارجعة لهولا عوض منه على حين تتكاثر المصطلحات الغربية كل سنة بل كل شهر ، بل كل أسبوع ، ويطول الطريق على لغة العرب ، يوماً فيوماً ويستفحل الاضطراب ، في استعمال المصطلحات عند العرب فيزداد تعقد المشكلات .

اذكر أن المجمع اللغوي بمصر أرسل الينا بثَبَت فيه اصطلاحات استرجحها ، وبعث يسترئي مجمعنا فيها ، ومنها كلمة (Alabaster) الانكليزية لضرب من الحجر ، ويقابله في الفرنسية الحديثة (Albâtre) « والألاباستر » « والألباتر » مأخوذان من الكلمة اليونانية (Abastron) وهو اسم لحجر شفيف بمقدار ما ينفذه الضوء ولا تُرى من خلاله الأشياء ، وهو نوعان موصوفان في مظان تعاريفها ، فقلت : إن « الألاباستر » يقابله في العربية « البصرة » وبه سميت البصرة مدينة العراق الجنوبية ، المشهورة قديماً وحديثاً . ومن معاني البصرة في العربية ، « الحجارة الرخوة فيها بياض » وهذا من أظهر صفات « الألاباستر » ولا يبعد أن يكون الاصل يونانياً ، لان السلوقيين أسسوا بلدة الأبلة ، في موضع قريب من موضع البصرة ، باسم معبودهم « أبولو » المشهور ، وقيل إنها كانت قبل ذلك ، لان بيارخس الاقريطشي أي الكريتي قائد أسطول الاسكندر الكبير ذكرها،بصورة «أبولوكس» وكنت احسب لقياني البصرة ، للألاباستر مبهجة لاصحابي ، فاذا هم عنها معرضون ، لأن أمر اللغة قد صار في عصرنا هذا الى التصويت على حسب الأصول الدهماوية أي الديموقراطية ، فلا يفيدك احتجاج ولا اعتراض ، اذا كان الاصفاق ضديداً لرأيك ومذهبك ، في كلمة من الكلم .

وقريب من هذا التخذيل المماحكة في الاصطلاحات

الصحيحة ، التي زينها الاستعمال ازمانا طويلة ، فقد رايت بعض الفضلاء الباحثين في تاريخ الفلسفة الغربية يعيب تسمية الـ (Morale) الفرنسية بالاخلاق، ويرى أن الاخلاق تقابل الـ (Mœurs) ، وأن المورال تقابل الآداب في العربية على التحقيق أي تحقيقه . وهذا النقد من الأوهام المحضة ، فان علم الاخلاق عند العرب معروف قبل أكثر من الف سنة ، وهو قسم من الحكمة العملية ، وعلم بالفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلى النفس بها ، وعلم بالرذائل وكيفية التوقي منها ، لتتخلى النفس عنها . وكذلك ورد في مباحث الفلاسفة ، كقول الحكيم مسكويه في كتاب الهوامل والشوامل ، ذكر انحطاط النفس وعزوفها عن التوقل في معارج الكمال . وقد شرح الحكماء هذا المعنى واستقصوه وعلموا الناس جهاد النفس في كتب الاخلاق، فمن اشتاق الى معرفة ذلك فليأخذه من هناك ، وقد ألف هو كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الاعراق . ولما كان السلف قد اصطلحوا على تسمية ذلك بالاخلاق ، لم يكن لنا حق في الجدال فيه ، ولا في التعرض له ، ومثل من يجادل فيه كمثل من ينتزع الاجر من جدران قصره المحكم البناء ، ليرى أسليم هو ام معيب ، أو ليبني به داراً . فيشوه القصر ، ويضيع الوقت ، وينصب فيما لا فائدة فيه . إن الروح العلمي يبيح الاعتراض على شريطة أن يكون وجه وجيهاً ، وأن يكون التلافي ممكناً فيه ، كالذي نراه من ترجمة (Inhibition) الانكليزية بالكبت ، فانه لا يؤدي المعنى المراد به في الانكليزية ، وقد ورد فعله في القرآن الكريم غير مرة ، قال تعالى « إن الذين يحادّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم » قال الزمخشري في الكشاف أي « أخذوا وأهلكوا » واستعير الكبت لافناء أحوال نفسانية كالغضب ، قال الزمخشري في أساس البلاغة « ومن المجاز فلان يكبت غيظه في جوفه : لا يخرجه وتقول من كبت غيظه في جوفه كبت الله عدوه من خوفه » وقال في الحقيقة « كبت الله عدوك : كبّه وأهلكه وتقول: لا زال خصمك مكبوباً ، وعدوك مكبوتاً ، » وليس في هذه المعاني ما يفيد احتباس الاحوال النفسية دون استئصالها .

وقد اتخذ القدماء « الزمّ » لهذا المعنى ، قال أبو بكر الرازي الحكيم الطبيب المشهور ، في بعض رسائله الحكمية « وبعد فما من رأي دنياوي قط ، الا يوجب شيئاً من زم الهوى والشهوات » وقال في موضع آخر : منها : « وهذه العصابة المتفلسفة تترقى في زم الهوى ومخالفته بل في إهانته واماتته ، إلى أمر عظيم جداً » وقال في موضع ثالث : «وهذا المقدار ونحوه ، من الفضل على البهيمة في زم الطبع ، هو لا كثر الناس ، وان كان ذلك تأديباً وتعليما » فالزمّ وفعل « زم يزم » وقد مضى عليهما اكثر من الف سنة ، احق بالاستعمال من الكبت وفعله « كبت يكبت ».

وهذا من الضرب الذي أشرت اليه آنفا ، الرابط لمصطلحات الفلسفة القديمة بالفلسفة الحديثة ، المحتاج الى قراءة مستدامة ، وتسجيل غير ممنون ، فهذا « كتاب المعتبر » لأبي البركات بن ملكا بغداد الملقب بأوحد الزمان ، وقد ذكرت اسمه من قبل، من طالعه من المشتغلين بالفلسفة الحديثة ، وقابل بين مصطلحاته والمصطلحات الغربية وسجلها وهو في زهاء ألف صفحة ?إن قضية المصطلحات تحتاج الى همم شمّ ،واشتغال مدارك ، وانتخال لسابق الاعمال ، وتأليف لجان في المجامع اللغوية ، والجمعيات العلمية والجمعيات الادبية ، لتعمل وتدأب في العمل ، واذ كان الكلام على الأساليب الفعالة ، المؤدية الى وجدان مفردات اصطلاحية ، في المجتمع الحديث ، في العلم والفلسفة والادب ، وجب ان أدلي برأيي مستندا الى تجاربي ، في المجمع العلمي العراقي بعض الاستناد فأولها تأليف اللجان

التي اشرت اليها في جميع الأقطار العربية على التقريب من لغويين ومتخصصين بالعلوم والفنون ، وربط اعمالها ربطا ادارياً بالادارة الثقافية ، في الجامعة العربية ، وترتيب صاحب سر هناك يلقب بصاحب سر المصطلحات الحديثة . والثاني :تزويد هذه اللجان نسخاً من منشورات المصطلحات الحديثة ومعجماتها ، كنشرة المصطلحات لمجمع اللغة المصري ، ومعجم شرف ، ومعجم أحمد عيسى ،ومعجم الشهابي ونشرة المصطلحات للمجمع العلمي العراقي ، وتصوير قسم مهم من المخطوطات العربية ، التي تبحث في العلوم والفلسفة والأدب باستراء تلكم اللجان والاسترشاد بها . والثالث : الكتابة بوساطة وزارات المعارف وغيرها من الوزارات إلى جميع المؤسسات العلمية ، والمؤسسات الفنية وما جرى مجراها ،من المصالح والمديريات ، في تسجيل المصطلحات التي تستعملها وما يقابلها عندهم في قوائم ، والبعث بها الى اللجان ، كل قطر يتوجه الى لجنته ، لاقرار ما تستصوبه ، والاستبدال بما تراه غير صحيح . والرابع : أن تعتمد اللجان في وضع المصطلحات على المستعمل عند العرب قديماً ، قبل كل شيء ، كالذي ذكرته في «الكبت» «والزم». ويقوى هذا الاعتماد في العلوم التي لم تتطور تطوراً خارقا للعادة، كالرياضيات ، والفلسفة على اعتبار انها من العلوم ، اما العلوم الحديثة ، والعلوم الخارقة التطور كالميكانيك والطب والفنون كالسينما توغراف فيؤخذ لها من القديم غير المستعمل ، كما اخذ الفرنسيون آفيون (Avion) من افيس (Avis) اللاتينية أي الطائر ، ثم اشتقوا منه (Aviation) أي الطيران . وكما اخذ العرب العصريون « السيارة » و « القطار » من السيارة بمعنى القافلة ومن القطار جماعة الابل المقطورة لانها غير مستعملين في المجتمع الحديث ، في ذينكم المعنيين القديمين ، فان لم يوجد في القديم ما يفي بالحاجة يُعمد الى الاشتقاق ،انظر كلمة (Matériaux) الفرنسية في معجم بلو الفرنسي العربي ، تجده يفسرها بلوازم البناء من حجارة وغيرها ويضيف الى ذلك كلمة عامية فارسية الاصل وهي « كرسته » ولا ترى أحداً يفسرها بغير ذلك ، مع انها عرفت عند العرب بالحضرة ، قال الزمخشري : في اساس البلاغة ، « وجمع فلان الحضرة يريد بناء دار ، وهي عدة البناء من الاجر والجص وغيرهما » فهذه الكلمة من المصطلحات القديمة ،التي لولا العثور عليها لقيل إن العربية قصرت في معناها.

وحديث الاشتقاق حديث طويل ، وهو لجأ العربية في هذا العصر ، وملاذها الأعصم ، وقد قصر العلماء الصرفيون فيه تقصيراً ظاهراً ، بعث جماعة على ان يزنوا الاشتقاق في العربية بالعجز والضيق والضآلة وليس هو بذاك ، ولست في سبيل الابانة عن جميع التقصير ، ولكني اذكر أن الصرفيين أهملوا اشتقاق وزن « فعال » في اسم الآلة ، وهو اقدم الأوزان عند العرب ، واكثرها استعمالاً ، وأحراها بالقياس لقدمه وكثرته وخفته على اللسان ، واخترعوا أوزاناً سموها ، « اوزان المطاوعة » مع أنها اوزان رغبة الفاعل في الفعل ، أو ميله النفساني أو الطبيعي من غير تأثير من الخارج ، فلا صلة لها بالمطاوعة البتة ، وما هي المطاوعة الا حديث خرافة وزعم بصري توهم أن المصدر اصل المشتقات مع ان اللغة بطبيعتها تسير من الاشارة الى العبارة ومن التجسيد الى التجريد ، والفعل تجسيد والمصدر تجريد ، الى غير ذلك مما الأخذ به يضر بالمصطلحات الحديثة ضرراً بالغاً ، فاشتقاق اسم الآلة على « فعال » يجب أن تقرره المجامع اللغوية ، وأوزان « انفعل وتفعل وافتعل وتفاعل واستفعل نادراً » الذاتية ينبغى ان تستعمل على حقائقها ، لا على حسب الخرافة الصرفية القديمة ، ويجب فتح باب « فاعل » للنسبة التي هي الاصل في غاية القياس ، وخصوصاً في قياس « فاعل » ومن الأسماء لا من الافعال مثل « فارس » بمعنى ذي فرس « ورامح » ذي رمح « وطاعم » ذي طعام « وكاسي » ذي كساء « وتامر » ذي تمر ، او على هذا يكون قولهم اليوم « جاهزاً » بمعنى ذي جهاز لا مجهّز به ومعد . ويستفاد من هذا الاشتقاق ، في الاصطلاحات فائدة كبيرة لانه اسم « فاعل » من الماديات أي أسماء الذات ، وقد احتال القدماء لهذا النوع من المعنى في غير الرباعي بطرد اسم الفاعل ، قال الشيخ احمد الفيومي : في المصباح المنير « أرض معقربة » اسم فاعل : ذات عقارب كما يقال : مثعلبة ومضفدعة ونحو ذلك[4]، يعني أنها ذات ثعالب وضفادع اشتقوا من العقرب والثعلب والضفدعة ، ففي الاشتقاق مجاول واسعة ، لتأدية المصطلحات والمعاني الاخرى ، لا نجدها في اللغات وقد شرعت لجنة من المجمع العلمي العراقي ، في ترجمة معجم في العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية ، وأنا منهم ، فترجمنا الربع الاول منه ومما اتخذناه من الاقيسة المطردة قياس « مفعل » اسم فاعل لكل كلمة انكليزية مكسوعة به (able)

وهو قياس فصيح ، كما قالوا « أثمر فهو مثمر وأورق فهو مورق وأنجب فهو منجب » ومثل هذا الاشتقاق كثير جداً، وهو من العروق النابضة بالحياة في اللغة العربية ، هذا وان العالم بالاشتقاق من العربية ، قلما يعجزه اداء مصطلح من الاصطلاحات الغربية الاشتقاقية ، على الضد من اللغوي الغربي فانه يلتجىء غالباً إلى التركيب المزجي ، والنحت أو الكسع أو التتويج ، ومن المتعارف المتعالم ،أن الوف كلمات انكليزية وكلم افرنسية مكسوعة « بأيبل وآبل » وبذلك تصبح هذه الالوف مفروغاً من أمرها في ترجمة المصطلحات ، ويكاد نقلها يجري مطرداً منسجما ، أما الكلمات المركبة تركيباً مزجياً وهي كثيرة في المصطلحات فسأفردلها كلاماً خاصاً .

وقبل ان اصمد الى الاسلوب الخامس من الاساليب الفعالة ، اود ان اومىء الى فريق من المعنيين باللغة ، جعلوها غاية لا وسيلة ، ولم يدركوا مغزى القواعد ، ولا فهموا روح اللغة ، فهؤلاء عواثير في طريقها ولقد تعلقوا بأوهن القواعد ، وأوهى الاسباب ، فهم الى اليوم لا يبيحون أن يقال (International) للانترناشنال والانترناسيونال الدُّوَلي منسوباً إلى الجمع بل يقولون الدَّوْلي مستندين الى قاعدة صرفية خرافية ايضاً كالتي اشرت اليها هي ردّ الاسم المجموع المنسوب اليه الى مفرده فيقولون الدَّوْلي والدّوْلي منسوب إلى جنس الدولة لا الى مجموعة الدول ، والأصل في النسبة أن يبقى المنسوب اليه على هيأته التي يحصل بها الوصف والانتساب ، ولذلك قال السلف « الشعوبي » و « الرسائل الأخوانية والاخوانيات » ولا يقول الجاحظ إلا « الاشياء الملوكية » وكتاب التصريف الملوكي ، للامام ابن جني شيخ الصرفيين معروف قديماً وحديثاً ، وقالوا « خادم رسائلي » و « سكين اقلامية » و « لغة صبيانية » كما في فقه اللغة للثعالبي وحلة مجالسية ونسبوا رجالهم « إبرياً ، وأقفالياً ، واقفاصياً ، وكراسياً ، ومحاملياً ، وقدورياً وتعاويذياً وقلانسياً وطيالسياً ، وعشرات غيرها أفيكون هؤلاء من سلف الامة الاعيان على خطأ في أنسابهم المجموعة ؟ لا ، هذا هو الصحيح ، وقد أجاز الكوفيون النسب الى الجمع مطلقاً ما دامت الحاجة داعية اليه ، والبصريون الذين يقال إنهم أوجبوا رد الجمع الى المفرد ، وخانتهم الشواهد من كلام العرب أجازوا النسبة اليه اذا كان موازناً للمفردات. وعلى هذا يكون «دول» موازناً لعمر وزفر وخزر فالنسبة اليه جائزة عندهم أيضاً ، وخلاصة القول أن « الدُّولي » للانترناسيونال وللانترناشنال هو الصحيح و « الدَّولي » خطأ محض . فمتى ننزع عن هذه الترهات ونحن نريد أن نقوم بمشروع المصطلحات الجبار الذي يستوجب الاستفادة من كل تساهل في اللغة ،فضلاً عن القواعد التي أثبتها كلام الجاحظ والواقع اللغوي الذي لا جدال فيه كانتساب جماعات كثيرة من سلف الامة الى أشياء حرفهم مجموعة ، وتسمية شيخ الصرفيين كتابه في الصرف « التصريف الملوكي » بله مذهب الكوفيين الذي أشرت اليه المجيز النسبة الى الجمع مطلقاً .

والاسلوب الخامس : التعريب . وهو في الأصل اخذ الكلمة الاعجمية واحداث بعض التغيير اللفظي فيها بحسب ما يقتضيه النطق العربي من قلب كثير من التاءات طاءات كقلب الهاء في أواخر الكلمات الفارسية قافاً أو جيماً او كافاً ،وضرب الكلمة المستعارة في قالب عربي أي جعلها على بعض أوزان الكلم العربي القريب من أصل وزنها ، كالسلحفاة تعريب « سولاخ ياي » الفارسية أي الارجل الثقبية ، لأن للسلحفاة كما هو معلوم ثقوباً تدعم ارجلها فيها وتدعم رأسها كذلك ، فغلبوا الأرجل على الرأس تغليباً عدديا . وجماعة من العلماء أسقطوا ايجاب الموازنة وأبقوا التغيير الحرفي ، ولقد كانت

« التتمة على الصفحة ٧١ »

المخبر

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ...؟ »

– قرآن كريم –

أنا ما تشاءُ : أنا الحقيرْ ،

صبّاغُ أحذية الغُزاةِ ، وبائعُ الدم والضمير

للظالمين . أنا الغراب

يقتاتُ من جُثث الفراخ . أنا الدمار . أنا الخراب !

شفة البغيّ أعفُّ من قلبي ، وأجنحةُ الذّباب

أنقى وأدفأ من يَديَّ . كما تشاء ... أنا الحقير !

لكنَّ لي من مقلتيَّ – إذا تتبّعتا خُطاكْ

وتقرّتا قسماتِ وجهكَ وارتعاشَكَ – إبرتينِ

ستنسجان لكَ الشّراكْ

وحواشيَ الكَفَنِ الملطّخ بالدماء ، وجمرتينِ

تروّعان رؤاكَ إنْ لمْ تُحرقاكْ !

وتحولُ دونَها ودونكَ بين كفّيَّ الجريدة

فتندُّ آهتُكَ المديدة

وتقول : « أصبحَ لا يراني » ...

بَيْدَ أنَّ دمي يراكْ

إني أحِسُّك في الهواء وفي عيون القارئين .

لِمَ يقرأون : لأن (تونسَ) تستفيق على النضال ؟

ولأن ثوّار (الجزائر) ينسجون ، من الرّمال

ومن العواصف والسيول ومن لهاث الجائعين ،

كَفَنَ الطّغاة ؟ وما تزالُ قذائفُ المتطوّعين

يصفرْنَ في غَسقِ (القنال) ؟

لِمَ يقرأون وينظرون إليّ حيناً بعد حين

كالشامتين ؟

سيعلمون من الذي هو في ضلال

ولأيّنا صدأ القيود ... لأيّنا صدأ القيود ..

لأيّنا ... –

نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفرُّ ، سأقتفيه إلى السعير .

أنا ما تشاء : أنا اللئيم ، أنا الغبيّ أنا الحقود ؟

لكنّما أنا ما أريد : أنا القويُّ . أنا القدير .

أنا حاملُ الأغلالِ في نفسي ، أقيّد من أشاء

بمثلهنَّ من الحديد ، وأستبيحُ من الخدود

ومن الجباه أعزَّهنَّ . أنا المصير . أنا القضاء .

الحقدُ كالتنّور فيَّ : إذا تلهّبَ بالوقود

– الحبرِ والقرطاس – أطفأ في وجوه الأمّهات

تنّورهُنَّ ، وأوقفَ الدمَ عن ثديّ المرضعات .

*

في البدء كان يُطيفُ بي شَبَحٌ يقال له : الضمير ،

أنا منه مثلُ اللصّ يسمع وَقعَ أقدام الخفير .

شَبَحٌ تنفَّسَ ثمّ مات

واللصُّ عاد هو الخفير .

في البدء لمْ أكُ في الصِّراع سوى أجير

كالبائعات حليبهنَّ ، كما تؤجَّرُ - للبكاء

ولندْبِ موْتى غير موتاهنَّ - في الهند النساء .

قد أمعنَ الباكي على مَضَضٍ ،فعاد هو للبكاء !

✡

الخَوْفُ ، والدم ، والصَّغار . فأيَّ شيءٍ أرتجيه ؟

فعلى يديَّ دمٌ ، وفي أذُنيَّ وَهْوهةُ الدماء

وبمقلتيَّ دمٌ ، وللدم في فمي طَعْمٌ كريه !

أثقلْ ضميرك بالأثام فلا يحاسبك الضمير

وانْسَ الجريمةَ بالجريمةِ والضحّيةَ بالضحايا .

لا تمسح الدم عن يديك ، فلا تراه وتستطير

لفرط رُعبكَ أو لفرط أساك ...

واحتضنِ الخطايا

بأشدّ ما وَسِعَ احتضانٌ تنجُ من وَخز الخطايا .

✡

قُوتي وقوتُ بنيَّ لحمٌ آدميٌّ أو عظام

فليحتدنَّ عليَّ - كالحُمم المسَّعرة - الأنام .

كي لا يكونوا إخوةً لي آنذاك ، ولا أكون

وريث قابيل اللعين - سيسألون

عن القتيل فلا أقول :

« أأنا الموكَّلُ ، ويلكم ، بأخي ؟ » ، فأن المُخبرِين

بالآخرين موكَّلونِ !

✡

قدماي ، متعستان من فرط ارتكاضي كالخيول

لأجرَّ مركبةَ الوباء ، ومقلتاي مُضبَّبتانِ

لفرط ما تتنقّلان على الوجوه ، وَتنْفِضانِ

مفارقَ الطرقات .

والهلَعُ الكبيرُ من الزمان

يمتصُّ روحي ، فهي أوشالٌ من الدم والوحول .

✡

سحْقاً لهذا الكون أجمع ، وليحلَّ به الدمار !

ما لي وما للناس ؟! لستُ أباً لكلّ الجائعين

وأُريد أن أروى وأشبعَ من طوىً كالآخرين ،

فليُنزلوا بي ما استطاعوا من سبابٍ واحتقار !

لي حفنةُ القمح التي بيدي ، ودانيةُ السنين

- خمسٌ وأكثر ... أو أقلُّ - هي الربيع من الحياة

فليحلموا هم بالغد الموهوم يبعث في الفلاة

روحَ النماء ، وبالبيادر وانتصار الكادحين !

فليحلموا إن كانت الأحلام تُشبع من يجوع !

إني سأحيا لا رجاءٌ ولا اشتياقَ ولا نزوع ،

لا شيءَ غير الرعبِ والقلقِ المُمضّ على المصير

ساء المصير !

ربّاه ، إنّ المَوْتَ أهونُ من ترقّبه المرير !.

ساء المصير :

لمَ كنتُ أحقرَ ما يكون عليه إنسانٌ حقير ؟!

بغداد **بدر شاكر السّياب**

الأدب العربي الحديث بين الأزمة والتقدم

بقلم رينه حبشي

لقد اخترتم لمحاضرة اليوم رجلاً مجهولاً في محيط الادب العربي لا يعدو ان يكون واحداً من هؤلاء المشتغلين بالفلسفة ، فاسمحوا لي ان احملكم تبعة اختياركم .

وكم كنت اتهيب الكلام في هذا الحفل الذي يشرفني بالاستماع الي ، وما اجدره من حفل يثير الهيبة في اقوى النفوس رباطـة جأش واملكها لموضوعها ؛ وانه لما يطمئنني هذه الحكمة اللاتينية التي تقول ان قدر الكلام بقدر مستمعيه ، واذا كان الامر كـذلك فليس لدي شك باني سأعرض عليكم خواطر لها نصيبها العظيم من الاهمية، ولن يكون مصدر هذه الاهمية الفاظي العاجزة المقصرة ولكن ضوء النجوم التي احتشـدت تسطع في الافق المحيط بي .

لقد حداني منذ بضعة اشهر اكثر من سبب الى حب المفكرين اللبنانيين واحترامهم وتقديرهم ، ولكني اليوم عاجز عن التعبير عن هذه الاسباب ؛ غير ان هناك سبباً واحداً من المفيد ان ابسطه ، اذ لا منـاص من ذكر هذه الكلمات ، وهي من اقوى ما سمعت هذا العام جرأة وادراكاً لحقائق الامور ، هذه الكلمات التي قالها صاحب فكرة هذا المؤتمر ومنظمه ، هذا الشاعر اللبناني الذي اجتمعت فيه رقة الشاعرية وعمق التفكير ،والذي القى علينا في اثناء زيارته للقاهرة هذا العام هذه الحكمة الثمينة .

« نعم ان مشاكلنا هي مشاكل الانسانية ومعضلاتها. واذا كنا نشعر في هذا الشرق ان بعض العالم يحاول استعبادنا فلأننا قد عزلنا انفسنا عن العالم وتركناه يحاول وحده حل مشاكله – لنتجرد عن مشاغلنا الخاصة ولنتناس عداواتنا فلا نفرق بيننا وبينه بل لنتبن مشاكله ونشعر بالنتيجة اننا متضامنون معه ومسؤولون عن الانسان غربياً كان ام شرقياً، مسؤولون ربما اكثر من غيرنا ، وعندئذ تنحل مشاكلنا الخاصة من تلقائها بما نكون قد فرضنا انفسنا على العالم لا كأعداء لاحد بل كاصدقاء وكرفقاء مصير كما هي الحقيقة »

وتبدو لي نفاسة هذه الكلمات ، اذ من الصحيح ان اصعب المشاكل تأتي من الانطواء على انفسنا ، وان من وسائل حلهـا الا نرضى بحبس انفسنا في حدودها وان نفلت من هـذه الحدود بان نتساءل : ما الذي ينتظره غيرنا منا وكيف يمكننا ان نفيد غيرنا وينتفع العالم منا ؟

ونحن نعلم من التاريخ ان الشرق ليس دون الغرب في مسؤوليته عـن الانسان ؛ ويخبرنا هذا التاريخ ان الحضارة قـد اندفعت اندفاعها الاول من الشرق حيث تشرق الشمس ،وان هذه الحضارة مهددة بالزوال في الغرب حيث تغيب الشمس،ولكنه يخبرنا ايضاً ان الغرب بعد ان تمخض عن هذا الشبح المرعب – شبح عالم الآلة الذي يهدد الانسان بالدمار – هذا الغرب يتحول نحو الشرق ينتظر منه رداً لقلقه القتال .

ولا اعتقد انالباعثعلى اهتمام الغرب بالشرق اسباب سياسية واقتصادية محضة ، اي اسباب يمكن ان نسميها انانية . نعم ان هذه الاسباب موجودة بلا شك ،ولكن علينا ان نتبين فيها ايضا ، كما يفعـل الطبيب النفساني ، شعوراً بالنقص والبحث عن التعاون . وقد تستر الكبرياء اعمق الدوافع التي تسيرنا ، الا انه يتضح بكل جلاء لمن ينعم النظر في اعمال مفكري الغرب منذ بضع سنوات ان هناك وسط التيارات الاقتصادية والسياسية سعياً حثيثاً لفهم الرجل الشرقي والقيم الشرقية ، وللنفاذ الى اسرار عالم روحي وعقلي شرقي . ولن تبلغ بي السذاجة بالطبع الى القول ان الغرب يريـد ان يصبح شرقياً ، اذ في هذا كل الخطر له ولنا في نفس الحين . ولكن الذي اعنيه انه يبحث عندنا ، وقد يكون ذلك عن غير قصد ، يبحث عن القيم التي يحتاج اليها لاتمام اتزانه وليهرب من هاوية الفردية التي ينزلق اليها، انزلاقاً سريعاً ،عالمه القائم على الآلة .

تأملوا نجاح الفلسفة الهندية والبحوث في أعمـال آبـاء الكنيسة الشرقيين والدراسات الاسلامية الحديثة والمحاولات المختلفة لفهم الحياة الدينية والتصوف في الشرق ، وذلك لا اعتماداً على مقاييس غربية ولكن في البيئة الثقافية والتاريخية الشرقية نفسها .

وان اقتصرت هنا علـى ذكر اسم رينيه جينون « René Guénon » فانما ذلك لكثرة من يجدر ذكرهم في هذا المقام . تأملوا كل هذا تشعروا بالحاجة الماسة الى موافاة الغرب برسالتنا . فاتزان العالم يتطلب ان نضيف ثقل الشرق الى الميزان العالمي .

وانكم لتدركون منذ الان الاتجاه الرئيسي لمحاضرتي : انـه موقف ترحيب وانفتاح للغير بغية انماء طابعنا الذاتي بتقديم اشد ما في تراثنا اصالة ، وباستقبال كل مساهمة خارجية تنمي شخصيتنا . ويمكنني ان اقول ان هذا الموقف موقف لبناني في جوهره، اذا لاحظنا ان لبنان قد اختار لنفسه ان يكون همزة وصل بين الشرق والغرب ، وانه ايضاً موقف مصري اذا تذكرنا انه عندما نتحدث في مصر عن دلتا النيل أو بكلام ابسط عن الدلتا، فاننا نعرف ان النيل منبعه جنوب السودان وان الدلتا التي تشير اليه هي احدى حروف الابجدية اليونانية .

★



قوى الجاذبية الشرقية

وإنني فيما يخصني ارى بوضوح ما يكمن في الشرق من اسباب جاذبية تلفت اليه غيره ، واذا تكلمت عنها فليس ذلك تهدئة واسكاتاً لقلقنا بامتداح كاذب ،ولكن لابحث معـكم العوامل التي يقتضي علينا تقويتها في ثقافتنا ، ولأبين كيف تحمل هذه الميزات في طياتها

مضاراً قتالة اذا لم نفكر في تعزيزها وتوجيهها، ولا تزال الفرصة تسمح بذلك، فاما ان يتم هذا اليوم والا لن يتم ابداً.

وتسعني الاشارة الى هذه العوامل التي تكوّن قوة جاذبيتنا بالاربع المسائل التالية على ان افسرها فيما بعد. وهي جديرة بدراسة اعمق ازمع القيام بها في خلال هذا العام.

١) واولى هذه المسائل هي صلة الانسان بالكون ٢) ثم الحس الجماعي ٣) النزعة الدينية ٤) واخيراً تأتي النقطة الرابعة نتيجة للثلاث السابقة، وهي مقياس الرجل الشرقي. والعوامل الاربعة هذه قوى قد تنقلب الى ضعف لاسباب لعلكم فطنتم منذ الان اليها.

لنعد اليها الآن واحدة واحدة.

صلة الانسان بالكون

١ – ان ما اعني بصلة الانسان بالكون يمكن فهمه بسهولة اذا فكرنا في اضرار النمو الفاحش للآلية في الغرب، واقول النمو الفاحش لان الآلية ككل تقدم عقلي خير في ذاتها وانما تبعث الضعف اذا اسيء استعمالها. فعلى حين ان الالية فرقت بين الرجل الغربي والطبيعة بان اقامت بينهما حاجز الالة بل وفصلت الانسان بتقسيم العمل بحيث اصبح الرجل الغربي يدور كعجلة مطلقة لا تدري كيف تدور ولِمَ تدور، فان انعدام الالية في الشرق قد ابقى الانسان اقرب الى الطبيعة وعلى اتصال بقوى الكون، اي بالتوازن الطبيعي الذي ينبعث عنها، وايضاً بالاتزان والشاعرية اللذين يرافقانها. هناك لدى الشرقي شعور بالامان والطمأنينة مبعثه انه لا يزال متحكماً في عمله، فهذا العمل اضيق تأثيراً ولكنه مبعث أمان اقوى.

نعم لقد شاهد الشرقي بلا شك قوى الطبيعة تثور، إلا انه يرى ان للكوارث التي تسببها هذه الطبيعة معنى خاصاً وهي توافق غاية عامة لهذه الطبيعة. ولكن الهامّ في كل ذلك ان الشرقي لم يثر هو بنفسه قوى جنونية يعجز عن مراقبتها والسيطرة عليها، فهو لم يشعر بقوى تنقلب ضد الانسان تطغى عليه كما يطرح الجواد الاصيل الفارسَ الذي افلت زمامه من يده، وهذا يهب الشرق استقراراً مطمئناً وتفاؤلاً، فهو ينظر الى المستقبل كأنه طريق مفتوح امامه الى نصر محقق، وبتعبير آخر ان الشرقي يثق بالكون وبنفسه بينما بلغ الامر بالغربي ان يحترز من العالم ومن نفسه.

الرابطة الجماعية

٢ – اما قوة الجاذبية الثانية فهي الرابطة الجماعية العربية، هذه الرابطة التي يبدو انها تتغلب على عدد لا بأس به من العوائق السياسية والتي تجعل العربي او الشرقي يحس بالرغم من مشاحنات الحياة ان شرقيا آخر اقرب اليه – حتى ولو كان عدواً – من غربي اعمق صداقة له. وقد درس اخيراً احد الفلاسفة العوامل الاجتماعية والدينية التي تربط افراد الجماعة الاسلامية والتي نطلق عليها هذه الكلمة الغنية بالمعاني – كلمة الامة – إنها ضرب من الوطن الديني والمشاركة في الاصل سابقة للطبيعة واللغة قد استقرت عميقة في القلب والغريزة، ولكنها تسبق القلب والغريزة، وتنبىء باخوة ميتافيزيقية (فوق طبيعية) تمتد الى الحياة الاخرة.

اي ان الشرق شرقنا، حيال الغرب المنقسم على نفسه بسبب تفوقه في عالم الآلة ومنافساته السياسية والاقتصادية، لايزال له جبهة على حظ وافر من الاتحاد يتمتع بتكاتف لا يعبر عنه بعد الا تعبيراً يسيراً، الا أننا نشعر بانه ممكن، وبانه كامن بين طيات القلوب على استعداد ليهبّ من سُباته، وهذا عنصر ثان للقوة والأمان يقابل بديهياً روح التفرقة في الغرب.

النزعة الدينية

٣ – والعنصر الثالث هو النزعة الدينية. يقولون ان الشرق متدين بطبعه، ولست على يقين انه سيحافظ لوقت طويل على توثبه الديني بصورته الحالية، بل انني اتساءل فيما يخص بعض الجماعات سؤالاً ابسط، وهو إن كان هذا التوثب سيبقى حياً فيها. وعلى كل فمن المحقق، اذا بقينا على الصعيد العام، ان الاديان في الشرق شبيهة بقوة طبيعية تصل الانسان بالله، ولا تزال الى اليوم اقرب الى ضرب من الغريزة الاساسية منها الى حركة نحس بها ونخضعها للتفكير العقلي. هنا قوتها وهنا ايضاً موطن ضعفها. وهي حتى الآن لا تزال قوة امام الغرب الذي بلغ به الامر، حين أعجزه التوفيق الا بصعوبة بين الله والحضارة وبين النظام الزمني للبلاد الدينية والعدالة الاجتماعية، ان احسّ مع ماركس ونيتشه وفريق من اصحاب التيار الوجودي الحالي بالحاجة الى انكار الله ليحرر، كما زعم بعضهم، تقدم الحضارة والعدالة. وهكذا بينما يحس الغربي كانه يتيم من جهة الله، لايزال الشرقي متصلا بالله، اوعلى الاقل يحس بثقة مبعثها الشعور بأن له حارس.

مقياس الانسان

٤ – والعنصر الاخير الذي ينتج عن كل مـا سبق هو مقياس ادق للانسان . فهناك عدم ارتياح غربي مصدره عزلة الانسان امام الطبيعة وانقسام الجماعة والتحرر الديني . وعدم الارتياح هذا يسبب وحدة داخلية وانقطاعاً عن المعطيـات المكانية والزمنية يجعل الانسان يحس انه غريب عن وسطه في هذا العالم . ومن هنـا كان هذا الشعور باللاإدراكية وعدم التعقل الذي يسيطر على كل الادب الغربي الحالي والذي لا يمكن ان نجد له مقابلاً او بالاحرى مقابلا مطابقاً لدينا . وتفسير هذا سهل ، فالشرقي يحس انه على صداقة مع الطبيعة وعلى امان مع الله . ولاجمال كل ما سلف في كلمة قصيرة ، ان الشرقي في موضع انسب من الزمان والمكان ، إنه اكثر اماناً .

فليس ما هو اكثر ادهاشاً للرجل الغربي من ادراكنـا للزمن اننا لا نحس بدقة حدوده وبسرعة مروره وبما ينتج عن ذلك من شعور بقرب انتهائه الا في اتصالاتنا بالغرب . فالوقت عندنا اكثر صفاء كأنه جزء من الابدية لا يحده حدود ، وانتم تعلمون اننا اذا تقابلنا لشأن من الشؤون لم نتناول الموضوع الا على عتبة الباب ساعة الوداع ، وانه من الصعب علينا التزام الدقة في المواعيد التي نضربها والآجال التي نحددها لتنفيذ عمـل ، ونؤثر كأهل الريف ان نحدد فترات المقابلات او سواها بجزء كامل من النهار صباحه او مسائه بدلاً من دقيقة معينة ، ونحن بذلك نتحول عن الاصغاء الى دقات الساعة لنصغي الى دقات قلبنا . ايها افضل ؟ من الخير الا تتسرعوا وتفضلوا النظرة الغربية ، الا انني في نفس الحين لن اقول ان النظرة الشرقية هي الفضلى . ان الزمن عند الغربيين اكثر ملاءمة للمنطق والحساب ، اما عند الشرقيين فهو اقرب الى الشعور ، ولكن الانسان لم يعرف قط بقلبه فقط او بعقله فقط ، وهو مكون من الاثنين معا . واذن فأن نقطة الضعف في وجهتي النظر هاتين ، انما سببها تفرقة ما كان يجب ان يبقى دائماً مجتمعاً .

وهل من حاجة الى الاضافة انه ينتج عن هذين الادراكين للزمن صورتان مختلفتان لفهم التاريخ ؟ وقد لاحظ منذ وقت قصير احد المؤرخين السوريين ، وهو وكيـل عميد احدى الجامعات ، نقص فهم التاريخ في الشرق في حين اننا نرى على عكس ذلك مؤرخاً غربياً يتكلم عن « تعجل » للتاريخ ، وهذا الشعور الزائد بالزمن في الغرب مثل الشعور الناقص به في الشرق كلاهما ينتجان عن تفاعل ينقصه الاتزان .

ومهما يكن من امر ، فقد رأينا العوامـل الاربعة التي تجعل للشرق جاذبيته . ان الشرقي يحس بالكون وطناً له ، الا عندما يصطدم بما تقيمه السياسة الخارجية في طريقه من عوائق ، في حين ان الغربي يحس بنفسه غريباً حتى وسط سياسته هو ، بل هو لا يحس بنفسه في وطنه حتى في صميم نفسه . انه لشعور مؤلم بالغربة عبرت عنه وجودية سارتر عندما قال : « يـلد الانسان دون سبب ويعيش دون هدف ، ويموت صدفة » .

الساعة الخامسة والعشرون

أكان الكاتب الروائي فرجيـل جورجيو Virgil Georghiu مؤلف « الساعة الخامسة والعشرون » الذي نقل اخيراً الى العربية بسوريا ، يفكر في ذلك عندما تنبأ بان الضوء سيأتي من الشرق ؟ وقد تركت روايته هذه التي الفها بعد الحرب اثراً عميقاً في الضمائر الاوروبية . وقد اعتـبر فيها ان الساعة بلغت الخامسة والعشرين لانها الساعة التي تلي آخر النهار والتي انعدم الامل فيها ولم يعد ينتظر منها شيء . وقد قمت بتحليل القصة في كتاب نشر في العام الماضي عنوانه « ايمكننا ان نسير التاريخ » وقد بدا لي ان كتاب جورجيو يستحق دراسة بسبب المسألتين الرئيسيتين اللتين ذكرتهما .

ان اول ما ينبيء به جورجيو في كتابـه هو موت الغرب بسبب نمو الالية الفاحش فيه ، وما يسوده من عقليـة ادارية يبقى فيها المسؤولون مجهولين ؛ وعندما يظن القارىء ان الساعة الخامسة والعشرين ، اي ساعة اليأس ، قد دقت نحس فجأة ببريق خاطف يلمع امام اعيننا اذ ينبئنا الكاتب بان الضوء قد يأتي من الشرق .

من هو الشرقي الذي لا تهزه نشوة عندما يقرأ هذه الكلمات ؟ فنحن اولاء ، بعد ان زعمنا انفسنا الجزء الغافل في هذا العالم ، نجد الغير وكأنه ينتظر منا البعث . الا ان فرحتنا سرعان ما يتبعها شك . فكيف يمكننا ان نعين الغرب ، وما هي القيم التي يمكننا ان نمده بها ، وهل نحن وهذا الغرب على نفس المستوى من الثقافة ليمكننا ان نبادله ثروتنا ؟ وهكذا تظهر لنا نشوتنا مع قلقنا في نفس الحين ، وامكانياتنا الواسعة مع مواطن عجزنا المخيفة . ولكن أتكون رسالة الادباء غير التنبيه الى هذه المشاكل بحيث يفتحون امامنا منافذ جديدة للفكر وللحياة ؟

*

واذا اردنا ان ندرك كيف تغذت مواطن العجز فينا من روح مستحيلاتنا ذاتها بافسادها من الداخل وبتحويل كل من القوى التي كنا نتكلم عنها منذ لحظة الى ضعف ، كفى ان نسبر عمق الثقافة ، واليكم ما نحسه من مشاكلنا الاساسية . ان هذا التحليل سيطلعنا على عناصر تعرفونها دون شك ، وارجو المعذرة اذا كررتها هنا .

تحليل الثقافة ودرجاتها

ان كل ثقافة نتيجة لتعاون درجات المعرفة الاربع التجريبية والعلمية والفلسفية واللاهوتية . ولا تتقدم الثقافة تقدماً متوازناً الا عندما تسير هذه الدرجات الاربع في جبهة واحدة ، ولكنها تفقد توازنها عندما تنمو احدى هذه الدرجات على حساب الأخرى ، اذ ينجم عن ذلك نمو جزئي فاحش في احدى الدوائر مع تأخر في النمو العام .

وقد حدث عندنا منذ بضعة قرون ، اي منذ القرن السادس للهجرة تقريباً المقابل للقرن الثالث عشر الميلادي ، ان المعارف التجريبية والدينية سبقت المعارف العلمية والفلسفية ، وكان من اثر هذا الانعدام في التوازن ان اضطربت جميع دوائر الثقافة والاداب والفنون ، فسببت هذا التأخر الذي نرجو ان يكون موقتاً والذي اخذنا نخرج منه . وسمته الاساسية هي أنه جعل ثرواتنا تبطىء من سيرنا كأنها كنز قد يثقل علينا حمله .

ما الذي اعنيه بهذا النمو الفاحش وبهذا التوقف ؟ اذا كان لزاماً علي ان اتجنب البت في المسائل بلا تفسير ، فاسمحوا لي ان احلل درجات المعرفة الاربع لندرك النقطة التي زلنا فيها ، وارجو الا تلوموني اذا بدا مني قصر الاسلوب اختصاراً للوقت . واليكم النقط الاساسية .

المعرفة الخبرية

ان المعرفة في اولى درجاتها خبرية ، وهي حينئذ في مرحلة بدائية تتجه فيها جميع ملكات الانسان نحو مشاكل العيش اذ ما يبغيه الانسان في هذه الفترة هو التغلب على مصاعب البيئة ، واضعاف العداوة التي يواجهه بها الكون ، والخروج من حياة اجتماعية مضطربة تسودها الفوضى . والانسانية في اولى خطواتها امام امرين كالطفل الذي خرج الى عالم النور : اما ان توفق وتعرف كيف تتنفس ، واما ان يدركها الموت . ولهذا السبب كانت الخبرية متجهة الى النجاح ، فاهملت الحقائق العقلية وخلطت بين الحقيقة والنجاح لسيطرة غريزة البقاء عليها ، وهي لشدة اهتمامها قبل كل شيء في صد القوى التي تقاومها ، لا تتردد في ان تلجأ الى الخرافات والشعوذة . فكهنة مصر القديمة ، وهم اصحاب الاسرار الرياضية والطبية الاولى ، لا يترددون في استعمال السحر . وشرع حمورابي ببابل على شدة دقته في بعض النقط كمسألة تحديد اتعاب الطبيب يقبل الحكم الاختياري . فيحكم مثلاً على المذنب بأن يلقى به في النهر ، فان نجا فهو بريء وان هلك فهو مستحق لما نزل به . وبالاجمال يمكن ان يقال ان البراعة تقدر بالنسبة الى فن السباحة او بالاحرى بالنسبة الى الحذاقة لا بالنسبة الى الحقيقة الداخلية . وهذا التصرف هو تماماً تصرف الخبرية . وهذه الخبرية هي خبرية رجل الجبال ورجل السهول على السواء ، وكلنا خاضع لها في بعض شؤون حياتنا ، بل يمكن ان يقال اكثر من ذلك : ان كل اكتشاف علمي جديد لا بد له ان يجتاز فترة خبرية قبل ان يسيطر على براهينه الدقيقة ووسائله في التحقيق . والقانون الدولي يكاد يخرج اليوم من طور الخبرية . وفي هذا ما يكفي دليلاً لنقول ان الخبرية طور لا بد منه في كل ثقافة يجب الخروج منه الا انه لا يمكن الاستغناء عنه نهائياً .

المعرفة الموحاة

اما في الطرف الاخر من الثقافة فاننا نجد المعرفة الموحاة وهي درجة المعرفة الرابعة واتعمد ان اقابل بها الدرجة الاولى ، وستعرفون السبب بعد قليل . فبينما الخبرية تحت عقلية فاللاهوت الموحى به فوق عقلي . واما الذين يعتبرون الوحي كسلاً عقلياً ومباءة للجهل فما اولاهم بالفهم ، وقد كنت اسهب في ذلك لو كان علي ان اتكلم عن صلة العقل بالايمان في الاسلام او النصرانية . ولكن ما يعنينا ان نفهم انه عندما يصل العقل الى البرهان على وجود الله برهاناً جلياً ينتبه ان وثبته الاخيرة قد تمت في حين ان النتيجة لا تزال هزيلة وتعدهذه الوثبة محاولة ضئيلة بالنسبة الى غرضها : الله.

وفي الواقع لا يكفي ان نثبت وجود الله بالعقل وحده ، بل يجب ان نعيش هذا الوجود . فرغبة الانسان ، اذا كان الله موجوداً ، هي ان يعرف شيئاً من طبيعته ، وان يتغذى به كهدف أعلى للمعرفة . ولكن الله اذا كان موجوداً فهو الذي لا يعرف ولا يسبر غوره ، وهو الذي لا يسمى والقابل لان تطلق عليه جميع الاسماء ، وهو المنعزل الاكبر . فهو موجود ونحن غير موجودين ، ولا وجود لنا الا بالنسبة لوجوده . هو موجود وجوداً بسيطاً كاملاً في آن واحد ، هو موجود وكل كلماتنا تسقط عاجزة كقشور جافة . بل واكثر من ذلك فهو ان كان يمكن ان يعرف لسقط الى مستوى المخلوق . الا انه يجب ان ندرك ان امتناع فهم الله هذا ليس مصدره الله نفسه بل نحن ، فان كانت فيه اسرار فانها ليست منه وهو في طبيعته ابسط وأكثر جلاء من ضوء عقلنا نفسه . ومصدر سره انما يأتي من حدودنا التي تفرض حوله منطقة ظلام . شأنه في ذلك شأن قصر بلوري شفاف لا يتجلى لنا اذا نظرنا فيه من ثقب مفتاح . ولكن بمقدار ما يتخلى العقل الانساني عن سننه التي هي حدوده ، بهذا المقدار يسمح ان ينفذ الى السر فيشف الحجاب بين الله والعقل في ضوء المعرفة الباهر .

ولكن اذا كان الله لا نهائياً والانسان نهائياً فان هناك مثل هوة تفصل بينهما يعجز الانسان عن تخطيها ، وليس له الا وسيلة واحدة للوصول الى الله وكنهه . ولما كان الانسان عاجزاً عن مد جسر بينه وبين الله فانه يبقى لله ان يمد الجسر بينه وبين الانسان ، وهذا هو ما نعرفه بالوحي . ان الوحي نجوى من الله الى الانسان لتصبح في نفس هذا الانسان خبرة نمو

وانه لأهم من ذلك فيما يخصنا ان نفهم ان الوحي لا يقتصر على كشف الله للانسان ، ولكنه يكشف ايضاً للانسان عن نفسه هو . فكل وحي حق كشف للانسان عن الانسان . وفي الواقع ، اننا ندرك صحته بما يبينه للانسان من امكانيات كامنة في نفسه وبما يطلعه عليه من جمال جميع قارات المادة ودوائر الحياة وبما يبينه له من متعة في مصاحبة اخيه الانسان ومن عذوبة يوفرها الانعزال في خلوة قلب آخر . ولا يقوم الوحي بدوره الا

عندما يصبح باعثاً على الحضارة والتقدم الدنيويين . اما اذا حاول ان يكبح الحيوية ويبقي الانسان متأخراً فعلينا ان نقول اما انه باطل واما ان الانسان افسده . ان الوحي ينزل ليزيد نطاق العقل رجاحة لا ليقيم له التخوم ، وهو يبغي ان يشد عضد الانسان للعمل لا ان يجرد الانسان من الحضارة . هذا فيما يختص بدرجة المعرفة الرابعة .

العلم والفلسفة

وبين هذين الطرفين الاقصيين تقع منطقة واسعة مزدوجة هي العلم والفلسفة . ان التجريبية تحت عقلية والوحي فوق عقلي ، في حين ان العلم والفلسفة خاضعان لسلطان العقل — والعقل يضع قوتين موضع الصدارة هما اليقين العقلي فيما يتصل بالمعرفة ، والتقدير السابق للنتائج فيما يخص العمل . ويمكننا ان نلخص كل ذلك بكلمة على نصيب وافر من الروعة ، بالرغم من انها فقدت معناها لدى من لا يمارس مدلولها ، وهي كلمة الخطة او المنهج . والانضواء تحت لواء الخطة هو قبل كل شيء ان نعرف عم نتكلم مع تحديد عناصر المشكلة المعروضة ، وهو ايضاً البحث عن الحقيقة لذاتها دون تقديم الشعور او المصلحة عليها ، وهي اخيراً التعرف على هذه الحقيقة لا عن طريق نجاحها المباشر ولكن عن طريق الطابع الفريد الذي تفرض به نفسها على العقل دون ان تترك مجالاً للشك اي عن طريق اليقين . ويحس الفكر في لحظة اليقين ان ضوءاً ينيره ويأمره . واذا كان للمتصوفين ساعات وجد وللفنانين ساعات إلهام فان للعلماء والفلاسفة لحظات اليقين . انها لحظات ممتازة يصلون بها الى اقصى امانيهم اذ ان الكون يتحد فيها مع العقل في نقطة معينة . وانتم ترون من ذلك ان المنهج طريق صعب الا انه في نفس الحين حي لمن يطلب كشف الحقائق باستعمال قوى الفكر الطبيعية ، هذا الفكر الذي جعلت التجربة لتمده بغذائها والذي يمده الوحي بزيادة من الجراءة ، هذا الفكر الذي يصبح ، بعد ان يكون استمد قوته مما هو ادنى منه وارفع منه ، المحرك الحقيقي لتقدم الحضارة .

وقد تسألونني ما هو مجال العلم والفلسفة ؟ وانني مضطر الى الاجابة دون اسهاب ، انه وضع الانسان في موضعه من الكون بالنسبة الى الفكر والله ، واظهار المسلك الانساني ازاء كل هذه القيم ، وابراز صلات الانسان بالجماعات ، هذا فيما يختص بالفلسفة . اما العلم فمهمته تنظيم قوى الطبيعة والمجتمع في مصلحة الانسان . وقد يوضح ذلك مثل او مثلان .

ان اكتشاف الطاقة الذرية من عمل العالم ولكن على الفلسفة ان تحدد استعمالها وفقاً لمصلحة الانسان . والبكم مثلاً آخر . ان من مهمة الفيلسوف ان يؤكد كرامة الانسان والتساوي بين المواطنين ، ولكن تنظيم هذا التساوي في البلاد يقع على عاتق العالم .

هاتان هما اذن درجتا المعرفة المتوسطتان بين التجريبية والوحي ، وهما متوسطتان لان الانسان اذا اقتصر على التجريبية بقي في طور الطفولة بينما يدعوه الوحي الالهي إلى تجاوز نفسه ، ولكنه لا يتجاوز نفسه الا اذا تنبه الى نفسه والى الكون والجماعة . انه لا يتجاوز نفسه الا اذا بلغ فكره سن الرشد عن طريق العلم ، وادرك نموه التام عن طريق الفلسفة . ولنقلها مرة واحدة دون رجعة ، انه على العقل البشري ان يفتح بقوته طريق الكون والكلية وان يشيد صرح الحضارة . انه واجب يقع على عاتق العقل الانساني لا على عاتق التجريبية أو الوحي .

الثقافة وازمة الآداب العربية

واذا سألني احد مندهشاً : ما الصلة بين تعريف درجات المعرفة وبين حالة الآداب العربية ، اجبته انني لم اكف بصورة غير مباشرة عن التفكير في الآداب العربية . واما مباشرة ، فها هي المسألة التي تواجهنا : اذا كان في الثقافة العربية الحديثة معرفة تجريبية يمثلها الفلاح واهل الجبال والمدن الذين ورثوا بصورة مبهمة تركة اجدادهم البالغة الثراء ، وان كانت الثقافة العربية الحالية ثقافة دينية ، فهل نجد في هذه الحضارة رجال علم وفلسفة ؟ اذا كان الجواب نفياً ، واذا كانت درجات المعرفة الاربع حيوية للحضارة ، فسيولد انعدام الدرجتين المتوسطتين (أي الفلسفة والعلم) ، لاسباب لا ضرورة لذكرها هنا ، تيارات عميقة مضادة في نمونا الثقافي وفي العوامل الاربعة للجاذبية الشرقية التي سبق ان حللتها .

واننا قادمون على ادراك مصدر الداء ، ولكننا في نفس الحين نكاد ندرك منبع الحلول التي يطلبها ، وانني اظن ان على المفكرين والكتاب ان يتلاقوا في هذه الاعماق ليروا الموضوعات التي توحي بتقدم صحيح ، وتزيل في نفس الحين الموضوعات التي تخفي عدم جدواها تحت وهم ضرورة مقتضيات الساعة . ولا شك في ان المجددين من امثال جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ومن واصل مجهوده من امثال حسين

هيكل وطه حسين واجهوا معضلاتنا في هذا المستوى من العمق. وينبغي ان اذكر قبل كل شيء ان انعدام العلم والفلسفة ، وهما الدرجتان المتوسطتان ، سيجعل الدرجتين الواقعتين بين طرفي درجات المعرفة ، وجهاً لوجه. ولكن اذا كانت التجريبية تحت عقلية واللاهوت فوق عقلي ، فان معنى ذلك التقاء الغريزة والايمان دون وساطة العقل الناقد. ولكن اذا كانت الغريزة قوة نافعة عندما يسيطر العقل عليها فانها تصبح قوة خبيثة مضرة اذا اتصلت اتصالاً مباشراً بالايمان ، لانها تتخذ اذ ذاك مظهراً مقدساً يكاد يعتبر ازلياً من الصعب قلقلته. وان كان الدين ايضاً قوة اذا اعتمد على العقل ، فان ضوء يخبو عندما يستمد حيويته فوق العقلية من جذور مغروسة غرساً مباشراً في الغريزة ، اذ ان الدين يستمد قوته من غير العقل ، فيجمد ويتخذ صورة التعصب او المحافظة التقليدية ، وهي في الواقع رفيق ملازم لتعصب الايمان. وبتعبير آخر ، تتخذ الغريزة علم الايمان شعاراً ويتذرع الدين بمصالح الغريزة فيوقعان معاهدة لقتل نشاط العقل ، إذ يدركه الجمود ، ويفقد الفكر الناقد حدته وتكبل القيود الحرية ويدرك حينئذ الرجل المفكر ، الرجل الذي كان عليه ان يتحكم بقوى الغريزة بعد انماء ثروته بقوة الايمان (على الا يكون فاته ان ينير كلاً من هاتين القوتين بنور عقله) اي الرجل الكامل الذي فرضت عليه انسانيته ان يشيد صرح الحضارة الكاملة ، هذا الرجل يدركه الفناء لان طرفي المعرفة انغلقا عليه ، وخنقاه.

★

سبل التقدم

وانكم تتعرفون بلا شك في هذا العرض التيارات العميقة التي اوقعنا فيها التاريخ منذ بضعة قرون ، والازمة التي تمخضت عن ذلك والتي يحاول مفكرو العرب الذين تمثلونهم هنا الخروج منها ، ويجب الا نتهيب وان نطلق على هذه الازمة اسمها الحقيقي ، فهي ازمة سياسية وازمة اقتصادية ، ولكنها قبل كل شيء إزمة ثقافية. ولا تبدأ تتجلى لنا وسائل العلاج الناجعة الا عندما يتوفر لنا من الشجاعة ما نواجهها به مواجهة شاملة. واذا كنا فهمنا الان هذا الجو الثقافي فيمكننا ان نتناول التفصيلات.

نمو العلم واستعمال الآلة

لقد تحدثنا عن صلة الانسان بالطبيعة ، الا ان الطبيعة خلقت ليكتشفها الانسان ، فيهذبها لا في مصلحة قارة واحدة او طبقة بعينها. وان كان العلم وتطبيقه الفني ضاعفا من انتاج الطبيعة ، فالسبب في ذلك هو ان الآلة انبعثت من تقابل الانسان والطبيعة. انها همزة الوصل التي اكتشفها الانسان لتجبر الطبيعة على ان تصبح انسانية بمنع الانسان عن ان يصبح مادياً. فحيثما ينعدم العلم وتطبيقه يبقى الانسان ملتصقاً بالطبيعة الخالية من كل بصيرة ، فينتهي به الامر الى تقليد حركاتها كأنها ساحر يسيّره ، ولكن الساحر هنا مقدس ، اذ ان اللاهوت والتجريبية تآمرا لاستعباد الانسان.

وان سوء استعمال الآلة وحده هو الذي اضل الغرب. ولكننا في الشرق لا نزال بعيدين كل البعد عن هذا الخطر ، وليس الخطر الذي يهددنا هو في سيادة الآلة ولكن في ان نكتفي بتقليد الآلية الغربية دون ان نقوم بالمجهود المقابل الذي تفترضه.

ولكننا مع الاسف استجبنا لهذا الاغراء في اكثر من حالة. الا انه ليس ما هو اشد تأخيراً لتقدم العقل من الانتفاع بالنتائج التي وصل اليها الغير دون ان نستحقها ، اذ ان الجمود الفكري يأتي اذ ذاك فينضم الى الجمود الخلقي الناتج عن طمأنينة خداعة.

الا ان التقدم الفني في العلم والصناعة يعلمنا الدقة في الحكم والالتفات الى الواقع واحكام المقاييس والبحث عن اليقين وتقدير المجهود حسب الانتاج لا حسب الوهم ، اي كل هذه الصفات التي تكوّن ما يسمى الخطة او المنهج كما سبق ان قلنا ، والتي تعتبر عقلية بقدر ما هي خلقية.

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، فتطبيق العلم العملي يطلعنا على ثروات جديدة للكون ، فيضاف بذلك الى الثروة الطبيعية التي لا تزال مجهولة ثروة اصطناعية من عمل الانسان

نفسه ، وهكذا يضاف الى الاشكال التي استئنست منذ عهد بعيد اشكال اخترعها الأنسان اختراعاً . تأملوا هذا الامـــر وهو ان حضارة اليوم تتطلب من الانسان ان يعيش في عالم يكاد يكون كله من صنعه . وكما ان الانهار ترفعها الامطار الغزيرة ، كذلك ارتقى فيض العقل بالطبيعة الى مستوى اعلى ، فقد جاءت طبقة طبيعية افرزها الرجل فغطت الطبقة القديمة ، كأن تاريخ طبقات الارض وجد له امتداداً في تاريخ الانسان. ويقول ماركس بهذا المعنى « ان الطبيعة بنت التاريخ » .

فهناك مثلاً من يريد تجديـــد اللغة العربية بوضع كلمات جديدة تطابق الاكتشافات المستجدة . وانهـــم على حق ، ولكن اللغة لا تتقدم بوضع مصطلحات نفرضها فرضاً ولكن باستعمال الالفاظ ، واستعمال الالفاظ هذا خاضع بـــدوره لاستعمال مدلولات هذه الالفاظ .

ولم لا نضيف ايضاً الى موضوعات الشعر التي الفناها هذه الشاعرية التي توحي بها اعمال الحضـارة ،من شاعرية الموانىء تجول خلالها السفن بما تحمله من معاني الشوق الى اراضٍ بعيدة، والمصانع التي تحف بها اطرافها المعدنية كاجنحة النحل الدائب على العمل حول خلاياه ، والمحطات التي تنطلق منها القطارات فلا تعود ، والمدن التي تسيل عليها الاضواء سيلاً فلا يجد فيها الحزن مـلاذاً الا السكرة التي تفيض عنها ، والارياف وقـد ايقظها ازيز الطائرات وسط الظلام ، كأنه يدعوها الى حيـاة اقوى . واخيراً شاعرية النهائي واللانهائي، شاعرية العقل والمادة، وهي لا تعدو ان تكون تحويلاً حديثاً جريئاً للنقوش العربية والفسيفساء .

وانني اعلم ان فريقاً من شباب الشعراء لبنانيين وعراقيين وسورين شرعوا في ذلك فابدوا استعداداً باهراً له ، واننـــا ننتظر منهم عالماً شعرياً جديداً يتناسب ورجل اليوم ، ولعله من الخير ان يستمدوا صور شعرهم وقواعده واوزانه من حركة عالمنا الجديد، بدلا من ان يستمدوها من القواعد المتوارثة التي تبدو بالية عندما نحاول التعبير بها عن المشاعر التي جدت علينـــا .

النقد الفلسفي للشخص البشري

وان ما قلناه عن صلة الانسان بالطبيعة يصح ايضـــاً بالحس الجماعي .

« التتمة عـلى الصفحة ٦٨ »

قصّة أمّي

« الآن يا أماه ، وبعد سنين من المأساة أدركت قصتنا »

•

أأنسى هنالك عبر الحدودْ ؟
جماجم قومي
وقصةَ أمي ...
التي مزقتها حرابُ اليهودْ

*

على شرفةِ المنزلِ الحالمِ
وفي حقلنا الأخضرِ
يهيم الضبابُ الطري
وتشردُ أمي
وفي نفسها
بقايا غرام قديمْ
لذاك الذي من عيوني يُطلْ
ويرقص ظل ويشحب ظلْ
على وجهها
وتحنو عليْ
لتروي إليْ :
« وعبر الفراغ صدى صوتها
يزيح الستائر عن أمسها »
وأشعر أني صبي يتيم
ويبدو أبي
شهيداً يهوّم عبر الوجودْ
بوجهٍ نبي

*

وتصمت أمي ... وفي صمتها
يضل خيالي الصبي
وأسأل نفسي عن عهدها
« لماذا تقول : ستلقى أبي

*

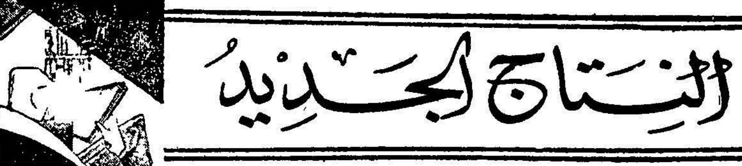
وتمضي سنون
وأبعد وحديَ عبر الحدود
وراء «الشريعة» (١)عبر الحدود
وتمكث أميَ في أرضنا
لتدفع عنها الغزاة اليهود

*

أأنسى هنالك عبر الحدود ؟
جماجم قومي
وقصة أمي ...
التي مزقتها حراب اليهود

محمد المقداد

(١) نهر الأردن

١ . شاعر الهوى والشباب

« الاخطل الصغير »

بقلم نعمات احمد فؤاد

منشورات مكتبتي الخانجي بمصر والمثنى ببغداد – ٨٤ ص

في هذه الدراسة التي تتناول ديوان الاخطل الصغير «الهوى والشباب» ثلاثة عناصر تجعلها من اقوى الدراسات التي قرأتها ، وهي تركيز البحث والتجرد واستيفاء الموضوع .

اما المقاييس الادبية فلست ادري بأيها انا اكثر اعجاباً : ابدقة هذه المقاييس المتناهية ، ام باناة الكاتبة وصبرها وطول بالها في تطبيق تلك المقاييس تطبيقاً دقيقاً .

نبهت الكاتبة في المقدمة الى ان دراستها هي « دراسة موضوعية بحتة لديوان « الهوى والشباب » ، اي انها لم تتبع فيها الطريقة «الاستقرائية » ، في الاحاطة بحياة الشاعر ،بسبب بعدها عن لبنان ، وبالتالي بعدها عن الشاعر وحياته .

تنقسم الدراسة الى عدة مواضيع هي : « شاعر الوصف» و « الطبيعة في شعره » و « شعر الجمال والغزل » و « القصة » و « المجتمع والوطن في شعره »و« اسلوب الشاعر » و«الشاعر في ديوانه » و « الشاعر وناقدوه » و « صور » ، وهذا القسم الاخير منتخبات من شعر الشاعر في المواضيع التي عالجها .

اما الوصف فمن رأي الكاتبة انه تلوين وزخرفة فيهما جمال واناقة ، ولكنهما لا يتجاوزان السطح الظاهر ، وهي تسوق من الشواهد المعززة بالنقد والتحليل ما يقيم الحجة ويوضح الدليل.

واكثر ما اعجبني من ذلك عمق نظراتها في تحليل شعر الاخطل بوصف الطبيعة وحسن التفاتها الى هذه الناحية . ففي رأيها ، وانا أوافقها على هذا الرأي كل الموافقة ، ان الطبيعة تظل في شعر الاخطل « خرساء » . ومع كل ما يطلقه في دنياها من اناشيد واحاديث تبقى صامتة لا تجيبه بنشيد ولا حديث .. اما السبب فهو ان صح استنتاجي من الدراسة ، ان الاخطل يقف عند الحدود السطحية من الطبيعة ، فشعره انعكاس وصدى لالوانها واشكال بنائها الظاهرة ، وما فيها من توشية وتفويف ونمنمة . اما معانيها والاجواء الخفية ،وتجاوب هذه المعاني والاجواء مع نفس الشاعر ، فان شعر الاخطل لا يمتد اليها .

حقاً ان الاخطل الصغير يقيد الطبيعة بدل ان يعطيها من ذات نفسه ما يزيدها انطلاقاً وعمقاً . وطالما وقفت ، وانا اقرأ شعره بوصف الطبيعة ، عند نقص احسه ، ولا اجد له تفسيراً ولا عنه تعبيراً ، حتى قرأت هذه الدراسة فاتضح لي كل شيء.

ومما يرد في هذا المساق من التحليل والنقد المتزن رأيها في اسلوب الشاعر في وصف النساء ، اذ تقول :

« – للشاعر الفاظ يصوغ منها شعره في وصف الجمال النسوي ... هذه الالفاظ بمثابة علبة الوان عند رسام يفتحها كلما شاء التلوين .. »

ثم تمضي في سرد الشواهد المقنعة على ان وصف الشاعر هو في الغالب ، وصف حسي ، حتى لبنت في الخامسة .. (قصيدة ندى) ...

وتخشى الكاتبة ، بعد هذا ، ان يكون الشاعر « ممن لا يرون في الجمال الشرقي الا محاسن جسمية » .

ومن الشواهد التي تسوقها دليلاً على ذلك قصيدة « هند وامها » فهي « رغم ما خلعه عليها من الوان الروض والورد» تظل فيها « هند أو امها لا تزيد الواحدة منهما عن دمية تجذب بالالوان والبريق » ..

وعلى هذا الاسلوب الدقيق من التحليل تمضي الكاتبة في دراسة سائر مواضيع الديوان، حتى تخرج برأي لعله من اطرف الآراء التي قيلت في شعر الاخطل ، وهو تفضيل شعره القصصي على سائر مواضيع الديوان .

وليس هذا فقط ، بل لعلها ايضاً ترى ان الشاعر قصاص قبل كل شيء . وارجو ان لا يتبادر الى الذهن ان هواية « الاستطراف » هي التي اوحت الى الكاتبة بسلوك هذا السبيل . كلا ، بل انها استنتجته من درس دقيق لا يسع القارىء الا ان يوافقها عليه .

ويأتي شعره الوطني والاجتماعي في المرتبة الثانية بعد شعره القصصي ، في رأي الكاتبة . وعلى هذا يكون شعره الوصفي والغزلي في المرتبة الاخيرة . على ان الكاتبة لم تذكر هذا الترتيب صراحة ، بل استنتجته انا استنتاجاً من دراستها .

اما اسلوب الشاعر فقد اجادت كل الاجادة في تحليله وايضاح عناصره .

ويعجبني جداً وصف هذا الاسلوب بـ « الاملس » في قولها : « واسلوبه املس تغلب عليه الفاظ معينة » الخ ...

واما الفصل الذي عقدته لتحليل نزعات الشاعر الشخصية والاجتماعية من خلال شعره ، اعني فصل « الشاعر في ديوانه » وهو بمثابة تلخيص عام للدراسة ، فقد كانت الكاتبة فيه مثال المحقق المنقب المنصف في عرض نواحي تلك النزعات عرضاً موضوعياً ، لا تنقصه الدقة ولا صحة الاستنتاج .

ولا يسعني الا ان احمد للكاتبة هذه الروح التي دفعتها الى تخصيص فصل لموضوع « الشاعر وناقدوه » ،ردت فيه على بعض المتحاملين على الشاعر لغاية في النفس او لنزعة في الطبع .

لقد تتبعت الكاتبة الشاعر نقداً وتحليلاً ، فلم تحابه ولم تترفق به حيث تجب الصراحة والقسوة ، ولكنها انصفته وقدرت شاعريته حق قدرها ، حيث وجب الانصاف والتقدير . وبهذه الروح العلمية رأت من واجبها ان تنصفه من المتحاملين ، فعقدت هذا الفصل ، وابانت فيه مواضع التناقض والغموض والتغرض التي وقع فيها بعض الذين تعرضوا لنقد الاخطل بغير الميزان الادبي الصحيح .

بقي ان اذكر بعض المآخذ التي خطرت لي على هذه الدراسة .

اولاً : الا ترى الكاتبة ان خيال الاخطل الصغير يمعن في « التجريد » حتى ينقطع عن الواقع ؟ وهناك ، وسط الخيال المجرد ، يستطيع الشاعر ان ينسج من الصور والاشكال والتهاويل الشعرية ما يغري ويبهر ويعجب في حسن التنسيق والتلوين والتأليف ، ولكنه مع هذا ، تنقصه « الحرارة » ، حرارة الواقع ...

اضرب على ذلك مثلاً قصيدة « سلمى الكورانية » . ان فيها من الوان النقاء والصفاء والوضاءة ما لا مزيد عليه ، وفيها من صور التنسيق والتأليف ما يعجز عن مثله فن مهندس عظيم ، وفيها من الحوادث ما يسمو الى مخيلة هوميروس ، ولكنها جميعاً ليست من عالمنا ولا صلة لها بنفوسنا ولا علاقة بطبيعتنا .

والخيال مهما غلا ومهما اتسع لا بد من ان يظل مجالاً لانطلاق الواقع ، والا اصبح صوراً هندسية مجردة . وهل يغلو الخيال الى ابعد من اساطير اليونان ؟ ومع هذا ظلت هذه الاساطير صوراً ورموزاً للواقع . ان الخيال ، مهما كان جميلا ، شيء تافه اذا لم يكن مجالاً لقلب ينبض ، وعين تستجلي ، ونفس تجيش !

ثانياً : الا ترى الكاتبة ايضاً ان الشاعر قد تخطىء يده وهو يتناول احدى ، « علب التلوين » « فيأخذ مثلاً لصورة عنترة بن شداد علبة « هند وامها » ؟ مثل على ذلك :

قم نقبل ثغر الجهاد وجيده ...

لم يبق الا ان ندعو « الجهاد » بعد تقبيل ثغره وجيده الى جلسة غزلية حول كاس عرق في وادي البردوني .

ثم الا ترى ان الشاعر ، مع صدق عاطفته واصالة انسانيته في وصف الظلم الاجتماعي يظل بعيداً عن تلمس اسباب هذا الظلم في العلاقات الاجتماعية ، وانه يرجعه في الغالب الى غيب مجهول وقوة خفية ؟

ثالثاً : اخذت الكاتبة على الشاعر ما ظنته خطأ نحوياً في قوله :

هوذا الريال ، وقد تألق ، ماحق   دجن الهموم وقد اردن محاقي

اذ رفع كلمة « ماحق » مع ان موضعها النصب باعتبارها حالاً من الضمير المستتر في « تألق » .

ولست ادري لماذا تصر الكاتبة على اعتبارها حالاً ، مع انه لا شيء يمنع من اعتبارها خبراً لـ « هو » وهو الاصح للمعنى .

رابعاً : وقعت الكاتبة في خطأ يقع فيه جميع كتابنا المحدثين تقريباً بصورة عفوية . وهو استعمال « كاف التشبيه » في غير محلها ، كمثل قولها : في الصفحة ٤٧ : « الا تروقك منه ، كلبناني هذه النسمة ؟ » الخ ...

ان كلمة « كلبناني » لا تعني ان الاخطل الصغير لبناني ، بل تعني انه « يشبه لبنانياً » لان هذه « الكاف » لا معنى لها الا التشبيه ، وليس هذا ما تعنيه الكاتبة طبعاً .

وهو تعبير معرب حرفياً عن كلمة comme الفرنسية . وسبب شيوعه ان اكثر الترجمات عن الفرنسية الى العربية كانت تجري على يد اناس لا يتقنون العربية ، ولذلك اخذوه عن الفرنسية حرفياً ، وعليه نشأ الكتاب المحدثون الا قليلاً منهم .

ومثل هذا التعبير يرد كثيراً في سياق الدراسة . وصوابه ان يقال : « الا تروقك منه ، وهو اللبناني الخ .. » او « من حيث انه لبناني » .

ووقعت الكاتبة في خطأ آخر هو استعمالها « لا زال » بمعنى « ما زال » ، والاولى تفيد الدعاء بدوام حالة ما ، اما الثانية فتفيد الاخبار عن دوام حالة ما . قالت في الصفحة ٤٢ : « ... اني لا زلت احدثك عن الشاعر بشارة الخوري الخ ... الخ » وهي تريد ان تقول « مازلت » .

٢. ضحكات القدر

من فاروق الى الثورة

بقلم حبيب الزحلاوي

مطبعة دار الهنا ببولاق مصر - ١٨٤ص

طالعت مقدمة هذه القصة المصرية فاغرتني اغراء شديداً بقراءتها، اذ وجدت الكاتب اديباً واعياً في نظرته الى الادب والمجتمع . اسمع هذا المقطع الجميل :

« وازعم ان القصة تناجز الشعر وتصاوله بسلاح من ادب الشعر القائم على اللفظة الجميلة، واللفتة البارعة ، والصورة الاخاذة ولعلها انتصرت عليه لانها تخاطب القلوب من وحي شعورها ، والعقول من فيض حكمها ، وتهمس في اعماق النفس الانسانية همسات روح الانسان وتحاول بشتى وسائل الاغراء والتشويق ان تجتذب القارىء من اي طبقة ومن اي ثقافة .

« كذلك اعتقد ان اولى واجبات الكاتب القصصي استلفات نظر الغافلين الى طيبات الحياة ، واسترعاء انتباه الذاهلين الى مفاتنها ، وايقاظ وعيهم ليدركوا عجائبها وغرائبها » .

ثم مضيت اقرأ مطلع القصة فزادني اغراء بالقراءة ما وجدته فيه من صدق في النظر ووضوح في العرض ، وهو يتحدث عن « الصداقة » حديثاً بليغاً واقعياً . ونصيحتي الى كل خائب في الصداقة ان يقرأ هذا الحديث ، فتهون عليه خيبته وتطمئن نفسه ...

أما موضوع القصة فهو ان احد اساتذة الجامعات تضيق نفسه بحياة بوهيمية ما زال يحياها بعيداً عن الاستقرار العائلي ، ويبدأ ينظر الى انهماكه في قضاء ملذاته ومصالحه الخاصة ، غير مبال بما يرزح تحته ابناء وطنه من ظلم وطغيان نظرة الندم والاحتقار ثم يكون من طلائع هذا الانقلاب ان يقرر الزواج من فتاة فلاحة من بنات الريف توخياً لبناء المنزل الزوجي على اساس من الطهارة والحشمة والأخلاص ، بعيداً عن الفساد الذي يقوض الحياة الزوجية في المدينة .

ولكن زوجه لا تلبث ان تصارحه ، بعيد الزواج ، بانها كانت مخطوبة قبله لشاب ريفي قتل قبل ان يتم الزواج ، ويتبين من حديثها انها كانت مغرمة بذلك الشاب وانها حزنت لموته ، فيتنغص عيشه وتركبه الوساوس والاوهام ، الى ان ينقذه احد اصدقائه بان يبين له خطأه ، وان لا شيء يمس كرامته ورجولته من موضوع خطبة زوجه الاولى ، وان مصارحتها له بالحقيقة هي دليل الحب والاخلاص .

أعجبني في الكاتب حرصه على العنصر التوجيهي ، فهو في الواقع محور القصة . لكن حبذا لو انه لم يخرج بعض الاحيان او بالاحرى ، اكثر الاحيان ، عن اسلوب القصة الى اسلوب المقالة ، وهو يقصد الى هذا التوجيه .

لقد اثبت الكاتب انه قصاص بارع ، اذ ابدع واجاد في سرد قصة خطيب « صفاء » الاول ، واعطى القارىء صورة حية لناحية من المجتمع المصري مستوفية عنصر التوجيه ، دون ان يخرج ، مع هذا ، عن اسلوب القصة الى اسلوب الوعظ والمقالة ، فما باله لا يلبث ان يجعل من والد « صفاء » واعظاً يرقى المنبر خطيباً ، ويصيح : « ايها الناس ! .. » ؟!

اما اسلوب الكاتب ، فلعلي قد قلت رأيي فيه ، ضمناً ، انه قدير ، حين يريد ، على نسج الصورة للحوادث وللاشخاص نابضة بالحياة . ولكنه لا يريد ذلك دائماً .

فشخصيات «صفاء» مثلا ووالدها وزوجها الثاني ضئيلة المعالم متداخلة الخطوط ، مع انها ابرز شخصيات القصة . انك تسمعها تتكلم بوضوح وعمق ، ولكنك لا تحسها ولا تراها تتحرك وتحيا وتضطرب في هذه الحياة . وكذلك حوادث القصة ، تسمعها سماعاً باذنيك ؛ ولكنك لا تراها بعينيك .

وأستثني من ذلك شخصية خطيب « صفاء » الاول وحادث اجتماعه بوالده العمدة وتعرفه عليه ؛ وقد اصبح شاباً مفتول الساعد . ان الكاتب بلغ في وصف ذلك كله الذروة . والغريب ان شخصية « صفاء » تبدو واضحة جلية المعالم وهي مع خطيبها الاول ؛ ولكنها لا تلبث ان تنطمس وتضؤل معالمها وهي مع الثاني ؛ في حياتها الجديدة .

ثم ان سياق القصة كان يقتضي ؛ بصورة طبيعية ، الاستطراد الى وصف حياة الريف المصري ، وما يعانيه من بؤس وشقاء وكان بطل القصة ، استاذ الجامعة ؛ جديراً بتعليق ، ولو عابر على هذه الحياة ، خصوصاً انه لا ينقطع عن التعليق والملاحظة على كل كبيرة وصغيرة . فهو مثلا لا يغفل عن وصف الطبيعة ومفاتنها في « اسوان » باسهاب وحماسة ، وباسلوب ليس فيه جديد ، فما باله يغفل عن ملاحظة الشقاء والبؤس في « قحافة » والتعليق ولو بكلمة واحدة عليهما ، وهو الذي يحاول قلب حياته رأساً على عقب تبرماً بهذه الاحوال ونقمة عليها ؟!

وحين سافر بطل القصة وعروسه الى مصايف لبنان لقضاء شهر العسل كيف ظلا يجهلان حدوث الانقلاب المصري وخلع فاروق ، حتى وردتها رسالة بالنبأ من والد صفاء ؟!

ألم يسمعا الراديو ؟ الم يقرآ الصحف ؟ وكيف عرف جميع العالم بالنبأ في حينه وساعته وظل هذان المصريان وحدهما يجهلان الحادث ؟!

ثم هل يرى الكاتب ان من بناء القصة بناء طبيعياً أن تسرد «صفاء» على عريسها قصة خطبتها الأولى بهذا الاسلوب المتقطع يوماً بعد يوم ؛ على طريقة اقاصيص « شهر زاد »؟

انا لأعتقد ذلك ؛ وكنت افضل لو أنها سردت قصتها بغير هذه الصورة المتكلفة التي تبعد الموضوع عن طبيعة الواقع .

وملاحظة اخرى هي بعض اخطاء لغوية وقع فيها الكاتب منها استعماله كلمة «تذمر» بالزاي ؛ هكذا : « تزمر » وأستبعد ان يكون ذلك خطأ مطبعياً ؛ لأنها وردت اكثر من مرة بهذا الشكل .

وبعد فأراني كلما استطردت في البحث ؛ لا استطيع الانفصال عن الطابع العام الذي يطبع القصة ؛ وما فيه من لمعات توجيهية بليغة . انقل الى القارىء هذا المقطع البليغ ؛ وارجو ان يعتبر به كل طالب للحرية ؛ مناضل للظلم والطغيان:

« ان صرير قلم واحد في مناصرة الحرية الاجتماعية والدفاع عنها خير من عشرات القصائد ينظمها الشعراء في التغني بالحرية .

« إن صوتاً واحداً يرتفع منادياً بسقوط الطاغية خير من اصوات آلاف من الناس تنادي بحياة البطل الظافر .

« ان احترام البطل واجب . والأكثر وجوباً من احترام البطل ان لا نشيع الغرور في نفسه بالتهليل له والمناداة بحياته . لأن الغرور هو الكفن الذي تدرج فيه وثبة البطل » .

صادق صعب

ماض من العمر

مجموعة شعر : لمحمد عبد الغني حسن

منشورات : مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد – ١٥٨ ص

أعترف بانه تملّكني ، حين أمسكت بهذا الديوان ، شعورٌ آسر ، ورَهبةٌ مُستهوية كمثل ما يتملكنا عادةً أمام كل أثرٍ فنيّ ، يتوّجه خالدٌ من الخالدين . ولِمَ لا ، والناظم صاحب لقب ، كشوقي وحافظ ومطران وغيرهم ، وبينه وبين الأهرام رَحمٌ ماتّة .

قلبت الصفحة الأولى والثانية . فأطلّت عليّ « من جداء الاحرار بشالها المرّقش الشائق كأنه يزينها في أعين الأعراس (ما ألذّ نغمات الحداة الأحرار وهي تنصبّ في آذان القافلة العربية ، لتعود بها الى أمجاد العروبة وعزة الأسلام) فاذا بها شوهاء المطلع ، خالية من الطرافة في التفكير والخيال والتعبير:

(من هؤلاء الصامتون ؟ تكلموا ! من هؤلاء المجمون ؟ تقـدموا !

الى آخر ما هنالك من التشابيه التي لا ترعش وتراً ولاتهزّ حسّاً . كادت تُمكن مني الفتور لولا بقية من رغبة ، وقدر من رِقبة ، أشاعتها فيّ اهرام مصر المستزرية بالزمن ، المشرئبةّ ساخرة بالفناء وحكم القِـدَم .

تعدّيت هذا الحداء الممل ، الى « عبيـد الشهوات » . فخذلتْ عن حدسي ، وخَيبّت ظني ، بصورها البسيطة — واحياناً العتيقة — وبجوارها المفكك ونثرها المحشور الذي يدعم زعمي :

– لا تضع العمر في فتـاة (نافرة الجبل والعنان)

أو – النهر والبحر المزمجر ، والدجى والصبح ملكي والكواكب والقمر

وما اشبه ذلك .

فقلت : ربما لم يُوَفـّق الاستاذ في هاتين . فلنتجاوز عنهما . وتوميء لي « طريق الجهاد » ، فأعرّج عليها . ولا البث حتى أنعرج عنها وزادي يسير :

كان الأله بهـا صناعـة ناحت ووليد أنملة ، وطعمة آكل

وتتعلـّق بي « القلة الغالية » ، فأزجرها غـير آسف . فتتواقح وتصرّ على ان أتأمل حكمتها المبتذلة كأكثر حكم هذا الديوان :

من كان ناصره الأله فانـه هيهات يخذل من بني الانسان

إي والله ، قول حق . أما ان نأتي بالقول الحق وكفى فذلك مما يتنكر له الشعر في جميع نزعاته .

ان القول بحد ذاته ، إما في حال وقوع انفعالي ينتظر من يسبكه فيحسن السبك ، أو في حال امكان افتعالي ينتظر من يقنصه فيحسن القنص . ونحن اذا ما حاولنا التخريج والتحديد نرى ان الاستاذ حسن ينتسب ، الى القول الاول . سوى أنه — وهذا ما ينتقص شعره — يسبك فـلا يحسن ، مع انتفاء الثاني تماماً .

تحديد يجبهك منذ القصيدة الأولى . فتحـاول تنحيته ، فِعلَ من يحلم بكنز مخبوءٍ في مكان معين . فهو كلما اسلمته بؤرة الى الخيبة الفارغة احسّ بالرؤيا تولد في بؤرة اخرى . الى أن يخلّف وراءه أخيراً عدداً من البؤر ، فيودعها حلمه ويمضي.

وانا اذ أطلق هذا الحكم . أقرّ — وذلك بالنسبة لمحتوى الالوان .. بأنه لو لم تحزْ بعض القصائد كـ « طالـع عام » و « شهداء الحرية » و « أنت الحياة » و « عربـدة الرياح » و « أنة » و « جابر العثرات » و « ولدي » على بصيص لُمعٍ

شعرية لم تخل هي ايضاً من الشحوب – وأظنها احدى **فلتاته** حسب تعبير السَّحرتي – وبانه لولا بعض أبيات معدودات مثل :

– الورد لا يحيا بظلمة حفرة ... كيف الحياة على يد الحفار
و – نزر الكلام اذا نطقت فانما ... شفتاك بينهما الكلام نظام
و – تكاد تهمس بالكلام كأنما ... عقد الحياء لسانك المتناجيا

لولا ذلك – لكان حكمي قاطعاً لا ينظر في الاسباب التخفيفية ، إن جاز لي هذا الاستعمال المحتكر .

من القرائح ما تلتقح ، بمجرد احتكاكها المباشر أو غير المباشر بأدب اجنبي، ومنها ما تعقم على رغم وسطها ومعطياتها. من تلك القرائح ، قريحة « ماض من العمر » التي بدت وكأنها لا تمتُّ الى ثقافتها أو الى انتقالية الفن الأدائية المتدرجة من مرحلة الى مرحلة تدرجاً وضعياً حياتيا بحال من الاحوال: لقد تغرّب الشاعر جسداً وعقلاً . أما شعره فظلّ ابن التقليد قلباً وقالباً . تقرأه فلا تستروح جدّة ، ولا يجتذبك خلق ، وقلما يدهشك حس صُوَريّ لمَّاح ، أو يسكرك نبض إيحائي رفاف . هَناتٌ تحكمت بأغلب القصائد فمضت تغمز في مشيتها مشحونة بكومة من الصور الباهتة ، وشملة من التعابير الجاهزة ، ورزمة من الابيات النثرية ، كادت تثقل كاهل البعض فتشله :

– صبراً اذا مشت الرياح بركبكم ... وأناخ كلكله الزمان عليكم
– الكأس بين يديه طافحة الردى ... ويقول : هات من المنية هات
– ويشيع الركب المودع بعضه بعضاً ... ويمضي في الطريق العادي
– كم هدمت من صروح الظلم في أمم ... نعم ، وكم رفعت للعدل أركانا
– جيرانكم في مصر قد فزعوا لها ... فالنار لا تخشى من الجيران

هذه نموذجات قليلات تبصّرك الكثيرات . فالشيوخة الزَّمنة في (أناخ كلكله) والكلام المرصوف في (ويقول: هات من المنية هات) وفي هذه الـ (حتى يكونوا في الحياة رجالا) وفي (ويشيع الركب المودع بعضه بعضاً الخ ...). والسِّدادة الوزنية « نعم » في (كم هدمت) . والصياغة الخشبية الصدى في (فالنار لا تخشى من الجيران) . كل هذه الخصائص تعرضها عليك بتفاوت في الكمية مجموعة « ماضٍ من العمر » .

واذا كنت تطلب المزيد فاليك نموذجاً آخر :

يروع القبيرة في عشها ... ويملأ بالهم عش القرير
ويرمي الأميرة في قومها ... ولا يرعوي حين يرمي الأمير

ذكّرني هذا بسخافة أحدهم حين قال :

سادتي رقوا فقلبي موجع ... موجع قلبي فرقوا سادتي
مهجتي ذابت غراماً فيكم ... فيكم ذابت غراماً مهجتي

ومن اللَّواتي تصادفهنّ بكثرة فترغب عنهن ، أخصّك بحضرة الأخت الكبرى « إن » التي أتت مقلقلة في مواضع وأشبه ما تكون بسِدادة وزنية . مَثَلُ ذلك :

انا حر ... لكن لي رغبات ... إنها تأسر النفوس رجاء

وقد تقع أيضاً على اجترار للمعنى الفرد ، لا يزيد في غنى الفكرة ولا حتى في غنى الشكل . وعلى قبضة تحيات وسلام موزّعة على الأحياء والأموات ، في أبيات مسؤومة من الطراز الأول :

هل أقفر القلب من هوانا ... هل آذن الحب بالرحيل
هل زهرة الحب من هوانا ... قد آذنت بعد بالذبول
هل نجمنا في الغرام أمسى ... يا بهجة القلب في أفول
هل أقفر القلب واستحالت ... بشاشة القلب للعويل
هل سقم الحب واستحالت ... ملاوة الحب للنحول

ومن الطراز الثاني :

مضى عام عليك وجاء عام ... عليك من المحبين السلام
ذهب السلام وأدبرت أيامه ... فعلى جهادك للسلام سلام
يأيها الشيخ الوقور تحية ... وعليك في دار السلام سلام
يأيها الثقة الأمين تحية ... تجتاز نحوك بالعراق بقاعا
يأيها الوطن العزيز تحية ... تطوي اليك السهل والأدغالا

كما أنك قد لا تستملح – من الناحية الأيقاعية – تجوّزه في الجمع – عروضا – في الخفيف بين فاعلاتن المشعّثة والمنقولة الى مفعولن وبين فاعلاتن التامة . كما هي الحال في الضرب . وتجوّزه في الجمع – عروضاً ايضاً – في الرمل ، بين فاعلاتن وفاعلن كما هي الحال مع فعولن في المتقارب . وذلك في قصيدتيه « مولد ربيع في انكلترة » و « مات على شفتيه النغم » . حيث جاء بهذين البيتين :

ذكرتني بك السماء الولهى ... والرعود التي بجوك تزعق (ص٧٣)
ما عهدناه على المنبر إلا ... ماضياً كالسيف نصلاً وسنانا (ص١٢٨)

إذ من المأثور والمستحسن معاً أن تلتزم في الرمل – عروضاً – فاعلاتن دون فاعلن أو فاعلن دون فاعلاتن . وأن تلتزم في الخفيف فاعلاتن (العروض) مع جواز الجمع بينها وبين مفعولن ضرباً . إلاّ اذا جيء بالبيت مصرّعاً ، فيؤتى بالصدر والعجز متساويين . كما فعل الناظم في قصيدته « اديب العروبة » في هذا البيت :

من تفته المنون في بأساء ... لم تفته المنون في النعماء (ص١٤٤ س٦)

لم أقصد بهذا الشرح أن ألقي درساً عروضياً على القارىء قد يكون بغنى عنه . ولكني أردت أن أكون واضحاً في مأخذي هذا الذي جرّني اليه حفاظ الشاعر على قواعد الخليل لا تعصبي لها . فصار لزاماً علينا أن نحاسبه على كل خروج على السياق العروضي الخليلي .

جسور حية

قصة بقلم الآنسة انجال عبود

عزيزتي عاطفة .

سأخطب الى منير . وقد قبلت مقدما . وقريباً تقرئين النبأ فاسألك الا تتعجبي ولا تدهشي ولا ترثي لحالي . انني وحدي المسؤولة عن عملي هذا ، وانا اقوم به مفتوحة العينين . انا اعلم خطورة خطوتي هذه ومع ذلك فانا اقدم عليها مطمئنة مهما كانت النتائج وإلا ... فاتني القطار وبقيت في وحدتي على رصيف المحطة بين صف طويل من العوانس ... اتذكرين كم كنا نسخر من استاذة التاريخ ومن عنوسها ذلك ؟

أنا اخاف ان القى هذا المصير . ليست الوحدة هي التي اخشاها ، فانا اقدر ان احيا ، بنفسي ، سعيدة راضية البال ، ولكنني اخشى ان يسخر الناس مني كما سخرنا من استاذة التاريخ في الماضي ؛ اخاف نظرتهم المتسائلة عن سبب تخلفي عنهم . ولذا قبلت بمنير .

ماذا اقول عنه ؟ انه طيب القاب . انه وسيم نوعاً ! لا ... لن اصفه لك فانت تعرفينه وتعلمين ان الكثيرات يطمحن الى حمل اسمه الارستقراطي والتمتع برصيده المحترم في مختلف مصارف البلد واراحة رؤوسهن على كتفه الرياضية العريضة . ولكن ... انا ؟

نعم يا عزيزتي انا . انا ايضا اصبحت من هؤلاء الفتيات فقبلت به مقدما. ولم لا ؟ وبم تراني اختلف عنهن ؟ بالكبرياء وبعض المثالية ؟ بالاحلام ؟ ألست امرأة ، عفواً ، فتاة في عالم الرجل الذي نعيش فيه ؟ فكيف أشذ عنهن ؟ وماذا انتظر اكثرمن هذا ؟

صحيح انه كان علي ان ابقى في بيتي بانتظار الرجل الذي خلقت له وخلق لي ... لقد جلست في بيتي . واتاني الرجال ، وما كان ابعدهم عن رجلي ، فرفضت ورفضت . ليس من حقي إلا الرفض . ولقد قيل اني من السعيدات ، فهنالك من لا يملكن حق قول لا . ولكني بدأت اسأم الرفض . لم تعد القضية مسلية كما كانت في البدء . لقد انتهت المهزلة وبدأ فصل المأساة في حياتي.

وهو ... رجلي ... الذي حلمت به ... الرجل الذي احببت من اعماقي ... لم يظهر في افق حياتي . ولم املك حق البحث عنه خارج محيط اهلي .

ثم لنفترض انه ظهر في الافق واقترب مني ، فهو سيكون لاهياً عني حتماً . لاهياً بتوطيد مركزه ، بتأمين مستقبله ، بفتاة غيري او باي متعة اخرى تستغرق كل انتباهه .... الم يحدث هذا لغيري من النساء ؟ وماذا فعلن ؟ هل طلبن منه مشاركته حياتهن ؟ اعرضن عليه الزواج ؟ هل ايقظن فيه الحب نحوهن ؟ طبعاً لا ... عيب ... بقين على صمتهن وقبلن اول رجل طيب القلب طلب الزواج منهن .

لا ... ليس لنا نحن النساء حق الاختيار . علينا بالـ«نعم» او بالـ«لا» نقولها لمن تنازل وطلب منا الحياة معه ... وقد تعبت من قول لا ... خفت ان ابقى بانتظار رجلي الذي ربما اتى الي وربما بقي بعيداً . خفت من الانتظار القلق غير الواثق من النهاية ! ليتني اتأكد من انه سيأتي ، من أنه سيدخل حياتي! ولكن ... من هو هذا الذي انتظره ؟ وهل يأتي ؟ وهل يراني ؟... لقد مللت الانتظار ونظرات من حولي كلها علامات استفهام لبقائي كما خلقت حتى الان ...

أتدرين ؟ كلما ذهبت الى حفل ما ، كلما حضرت اجتماعاً عاماً شعرت بالكره لنفسي ، احسست بالاحتقار لانوثتي ، لاني ادخل الحفل من غير ذراع رجل اليفة تقيني النظرات المتسائلة المشفقة . وفي هذه الحفلات ، وفي هذه الاجتماعات اقترب الرجل – اي رجل – مني وجلس الي فتفحصني من شعري المصفف حتى مانيكور اظافر قدمي ، لم يبق امامه إلا ان يقول لي : « قفي بربك قليلاً ، استديري حول نفسك ، ارفعي يدك اليمنى الى رأسك ، اسبلي جفنيك باغراء ، ابتسمي ، اعبسي .... هه ، آه ... لا بأس ... سافكر بالامر ... على كل سأرى ما سيكون ... »

حتى هذا قام به وهو يطلب مراقصتي . وحدثني عن الطقس والرقص والسياسة احيانا ، وفرض علي الامتحان الفكري الذي يريده هو ، ثم ابتسم وهو يبتعد وكأنه يقول : « شكراً يا انسة . سأرى بضاعة الجيران قليلاً ... سأفكر بالامر . لدي متسع من الوقت ... سنرى ما سيكون . »

لا ... لا ... لقد تعبت من كل هذا ... لقد ...

حتى سائق السرفيس وخادم البقال الذي يجلب لنا الخضار ينظران الي نظرة تحسر وشفقة على شبابي الضائع ... نظرة حيرة من امر بقائي في بيت ابي حتى اليوم .

وانا ؟ انا ايضاً رأيت نظرتي في المرآة ترثي شبابي المهدور .

واتى منير ... لم احلم به كرجلي ، ولكن ... قلت لك من هو رجلي؟ آه لو عرفته ! وهل يأتي ؟

ومن يدري أن الخليل ما كان ليستحسن هذا العيب لو سمعه . كشأنه مع بعض العيوب اذا قلّت ؟ وإن سألت كيف يُستحسن وهو عيب ؟ أحلتك على إسحاق القائل : قد يكون مثل هذا الحول واللثغ في الجارية يشتهى القليل منه فان كثر هجن وسمج ، والوضح في الخيل يشتهى ويستظرف خفيفة الغرّة والتحجيل ، فاذا فشا وكثر كان هجنة ووهنا .

غير أن ما سوف يلعنه الخليل طرحاً ، ويرذله مسخاً ، هو ذلك البيت المكسور الوارد في قصيدة (بين الصبر واليأس) :

يندفع الموج في تلاطمه ويتلاشى وهو أوشال

ومن له اذنان موسيقيتان أو معرفة بالعروض فليزن .

أمّا قوله :

وما طلب المكانة بالتمني فذلك مطلب ناء بعيد

من قصيدة « الى الجبل الأشم » فهو تشويه لقول شوقي :

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وبعد ما كنت لأَثرّب عليه فأتمادى . لو أنه قلّد فأجاد ، وغنى فأطرب ، نظير غيره من المقلّدين . أقول هذا ، لئلا يُظن بي التأثر الجامح بمذهب من الشعر ، وبمقياس خاص لا يحسب الفن في ما عداه . وإن كنت في الواقع لا أخلو من هذه الظنّة . إلاّ أني لست من الذين يتظاهرون بالعمى أمام الجمال في أي شكل بدا .

واخيراً ، أهذا « ماضٍ من العمر » ، ام هو ماضٍ من الشعر ؟ ...

هنري صعب الخوري



ها هي ذراع تدخلني العالم بثقة واطمئنان . ها هي درع تقيني النظرات ، فلم لا اقبل ؟

وآمالي برجل يفهمني وافهمه ؟ واحلامي بمستقبل جميل ؟ أأتخلى عنها كلها ؟ هل انسى ما طلبت دوما ؟ هل اتجاهل ما كنت ابحث عنه في قرارة نفسي ؟

ولكن ... أهنالك شخص حقيقي يشبه هذا الذي حلمت به ؟ اتراني رسمت صورة خيالية لا وجود لها في الواقع ؟ ترى ، لو اتيحت لي فرصة البحث عنه اتراني اجده ؟ وعلى افتراض اني وجدته ، اتراه يعرفني ؟ هل يتوقف عندي ؟ ام تراني ، مثل غيري ، اقف مكتوفة اليدين وانا اراه يختار امرأة اخرى ، فله وحده حق الخيار ، وانا لا املك الا الانتظار والا القبول او الرفض بعد انتظار طويل ممل لا ادري نتائجه ؟

لندعه يأتي ، لنتركه يتوقف عندي قليلاً فما يحدث ؟ ألن احبه ؟ اني احبه سلفاً ، احبه قبل ان اراه ! واذا ما رأيته ، واذا ما احببته فما تكون النتيجة اذا لم يستعمل حقه في طلبي ؟

اكون قد شوهت حياتي . اكون قد هدمت مستقبلي ، فمحال ان أقبل برجل غيره وقد فكرت به هو رجـلي الحقيقي . اذا قبلت الزواج من سواه أرتكب جناية بحق نفسي وبحق من سأتزوج . وهل هنالك افظع من خيانة الانسان لنفسه ؟

كيف ابيح لنفسي الحب وانا غير واثقة من نتائجه ، اترين ؟ اننا لا نملك حتى حق الحب ، حتى حق العاطفة الحرة .

اتدرين اني ، احياناً ، افضل لو كنت ولدت في جيل جدتي ، او حتى في اجيال تسبق جيلها ؟ لو حدث هذا لما كنت على ما انا عليه . كنت قد قبلت بمصيري راضية ، وانا جاهلة بما يدور حولي .

اما ان يفتحوا عيني وان يعلموني اني انسان ، ثم يتركوني على ما كانت هي ، جدتي ، عليه من القيود والاغلال ، فهذا ما لا اطيقه ولا احتمله .

ربما تقولين الثورة ؟ وما نفع الثورة ؟ لقد ثرت في اشياء كثيرة .

لم تكن والدة جدتي تعرف القراءة ، فاتت جدتي وتعلمت « فك الحروف » ووصلت والدتي الى نهاية التعليم الابتدائي ، واتاحت لي فرصة التعلم الجامعي ووقفت مشفقة علي وهي ترى نمو شخصيتي في عالمنا الضيق .

لقد ثرت في اشياء كثيرة . انهيت علومي . لقد قلت « لا » لمن كان اهلي يريدون ان اقول له « نعم » ... واين انا الان ؟ في ركاب العوانس ، ويقولون ؛ في بلادنا ، ان العوانس مهسترات ! ويبشرون بمصير لهن بائس !

ونحن ، انت وانا وكل فتاة اخرى ، نذكر كيف ضحكنا من استاذة التاريخ ومن على شاكلتها ... نعم ، اننا ، في قرارة انفسنا ، نعلم المصير البائس .

فكيف ابقى مترددة ؟ ومن اجل من أقوم بهذه التضحية في شبابي ؟ من اجله ؟ ولكن من هو هذا الذي انتظر ؟

وهل يستحق ان احرم نفسي من الامومة ؟ هل يستحق مني حرمان نفسي من ضم طفل الى صدري ؟ هؤلاء الاطفال الذين أحبهم والذين اقضي حياتي الآن بالحنين الى احدهم ؟ انا ، انا التي اشعر اني ولدت من اجل العناية بالاطفال . هل اقضي عمري وانا أعنى بأطفال الآخرين ؟ اذا مازارنا احد اولاد عمي وقضى الليل عندنا اجاس اليه الساعات الطوال الاعبه واطعمه . وحتى في الليل استيقظ مراراً ، لارفع الغطاء الى رقبته بعد ان رفسه بقدمه وهو يتقلب . اخـاف عليه البرد ، واود رؤيته سعيداً بنومه الناعم . فكيف لو كان لي طفل ، اي سعادة سأشعر بها وهو الى قربي ؟

لا .. لقد اضعت سنوات كثيرة وانا في حرمان الانتظار ! لقد هدرت قسما كبيراً من ربيع عمري في الثورة .

لن انتظر اكثر . لقد ساهمت بنصيبي ، لقد تركت له - لرجـلي - فرصة ليبحث عني ، ليستعمل حقه في البحث وفي الاختيار وفي الطلب .

لقد سئمت حقي في قول لا . ساقبل بمنير .

الاستسلام ؟ نعم ، أنا استسلم الان وماذا بقي لي غير الرضوخ ؟

ولكن ... ثقي يا عاطفة اني باستسلامي اليوم افسح مجالاً لثورة اشد عنفا من ثورتنا نحن . ستأتي ثورة ابنتي . هذه الثورة التي بدأتها جدتي ثم امي وانا ... ستحملها ابنتي . ولن اقف في طريقها . ولن تترك هي لاي مخلوق مجال التوقف في طريق ثورتها هذه .

لا بأس من استسلامي الان . لست إلا جسراً تعبر عليه ابنتي نحو انسانيتها . الست من رأيي يا عاطفة ؟

قريباً تقرئين نبأ خطبتي فأسألك الا تعجبي ولا تدهشي ولا ترثي لحالي .

ان الغد لبناتنا ، سنحيا من جديد بانتصارهن ، سنولد من جديد يوم نراهن يتمتعن بانسانيتهن .

باخلاص

هيفاء

أنجيل عبود

لمن تدق الأجراس ؟

« للارواح الملتهبة عبر آفاق الوطن الكبير ، ستدق لمن أحبوا العالم لانهم شغفوا بحب وطنهم الأم ، ستدق لمن أدركوا أن للشعب العربي قضية في تونس ومراكش وفلسطين والاسكندرون ، وفي شتى أرجاء الوطن ستدق للجيل الجديد »

الاعاصيرُ ، والذرى ، والطماحُ وصدى البرق ، اغنياتي المِلاحُ
مسكني ظلمة السجون ، واضوائي اغانٍ ، ومأمل لماح
أنشدي يارؤى الفؤاد اغانيك ، فقد روّع النعيب صداح
آن لي ان ازج جنحي في الريح ، ليسمو على البغاث جناحُ
من عجافٍ ، صرعى التهتك والحقد ، حرانٍ اذا استحرّ كفاح
نحن احفاد امةٍ ، تشهد الايام أنا شبابها الطمّاحُ
هي مذ ابدعت حضارتها الكبرى ، وثوب ، وغصة ، وجراح
آن لي آن لي ، فخلف سفين الشعب تعوي غوارب ورياح
آن لي ، ان اخوض في لجة النور ، لينزو عبر الدماء جماح
آن لي ان اغذّ سيري للفجر ، فقد افزع الدجى مصباحُ
أستقي من هموم موطني اللحن ، فاشدو وإن رنت اشباح
وعلى ذروة الصراع اغني لبلادٍ اذلها سفاحُ
كيف لاامتطي الممات وشعبي لوثت عرضه هلوك وقاح
من ترى ذلك المرنم ، والنصر على دربه شذى واقاح
من ترى ، من تراه يهفو له الومض ، ويقفو خطى صداه صباح :
هو فجر مغمس بشذى الحب ، وبشرى ، وغنوة ، وحقيقه
ونداءٌ قوافل الليل تزجيه ، ليجلو الربيع ، يجلو شروقه
يوقظ الشعلة الخضيبة في الظل ويرمي على اليباب حريقه
من أنا يا ربيع ؟ انشودة خضراء تهفو الى السهول الوريقه
للطيور الطِراب ، للافق الوهاج ، للحب ، للاماني الطليقه
وطني من صدى القيود اغانيه ، ومن صرخة الجراح العميقه
شعبنا قوة المعامل والحقل ، وكبر الدماء يوري بروقه
لم يكن ، لم يكن عدواً لشعبٍ مجده ان يرى السلام رفيقه
يذخر الحب في القلوب ويشدو هاتفاً : عاشت الشعوب الصديقه
عاشت الارض ، وليعش غدها السمح ، لتسقط حُمى الكلاب الصفيقه
يسقط الغزو ، والقلاع ، واسرائيل ، تحيا دماؤنا المهروقه
هو في تونس الوضيئة — كالصبح — يغني مع الشعوب مُناها
وفلسطين حيث شرد آلاف ، وحق الكفاح لن ينساها
دير ياسين ايها الخُلق الوحشيُّ في الغرب ، هل عرفت أساها
يا لثاراتنا أذلك عدل أن تنال الذحول من معناها
روعة السّلم ان يشب كفاح كي ترى مقلةُ السلام مداها
من ترى ، من تراه ، اقوى من الموت واقوى من الردى ياذاها
هو فيض الحياة ، تخضوضر الارض ، اذا غمغمت رؤاه الشوادي
يتملاه خافق خلع الوعيُ عليه سوانحَ الآباد
... آن لي ان أهين سطوةَ اغلالي واستل حربتي وزنادي
آن لي ان أهبَ ، ان انفح النور لشعبٍ ينوء بالاصفاد
جاعلاً من ضحى الكفاح وشاحي وأزيز الرصاص مائي وزادي
وعلى منبر المشانق أحيا وأغني لامتي ، وبلادي
والى الارض ، والرفاق ، الى الرايات ، للشعب ، للمدى الوقاد
منشداً في الغداة ، اذ يزلد النصر ، اغاني الشروق والميلاد
حيث تغدو السكين في قبضة الثأر ، لتهوى على يد الجلادِ

بغداد **كاظم جواد**

دراسات في الآداب الاجنبية

انطون تشيخوف

بقلم جلال فاروق الشريف

« لقد مضى علي خمسة وعشرون عاماً وانا اقرأ ما يكتب من نقد لاقاصيصي ، ولست اذكر ان ملاحظة واحدة قيمة وجهت اليها ، ولم اسمع نصيحة ثمينة . لقد أثّر في نفسي احد النقاد الادبيين مرة واحدة : ذلك عندما كتب قائلاً : « اني سأموت سكران عند حافة احد الجدران . » (١) على هذا النحو عبّر انطون تشيخوف عن رأيه في النقد الادبي ومايكتب عنه ، لصديقه مكسيم غوركي . ولقد كان غوركي يؤمن بهذا ، لذلك كتب اليه يقول : « ان طبع مجموعة كاملة لاقاصيصك فكرة مُثمرة . انها ستحمل النقد الادبي على التفاهم مع الجمهور وعلى تحسين حكمه عليك . »(٢) . كما قال له في رسالة اخرى : « لقد فرغت تواً من قراءة المقال الذي خصصه لك « سولوفييف » في « الحياة » . لست براض عنه رغم انه يفند رأي «ميخايلوفسكي» . ان حديثه عن « العم فانيا » ليس بالقول السوء ، غير انه ليس ابداً ما يجب ان يقال . وهو على النقيض من ذلك يتورط في الخطأ عندما يتكلم عن حظك . انه على العموم سطحي . » (٣) . وفي ثالثة يقول : « .. متى سنرى نقداً حقيقياً يظهر الى حيز الوجود اخيراً ؟ ان مقال « سولوفييف » يدعم في نفسي تلك الرغبة في ان اكتب شيئاً عنك ، ويقويها . وليس مبعث ذلك اني قادر على تأسيس « النقد الحقيقي » وانما لاني استطيع ان اتعمق في بحث الامر اكثر منه . » (٤).

وغوركي ، رغم تواضعه ، قادر على تأسيس النقد الادبي الحقيقي وخاصة بالنسبة لتشيخوف ، لا لانه صديقه الذي خالطه وعرفه حق المعرفة ، وانما لانه فنان مثله . فكهف عبقرية فنان ، لا يفتح إلا بكلمة من فنان ، وسر « الكبار » لا يمكن ان يلم به الا « الكبار » . اما الآخرون فليس لهم عندما يلامسون الفن الا ان يعجبوا ويصفقوا ، وعندما يرون الكهف مفتوحاً إلا ان يدخلوا ويدهشوا ويفتتنوا .

ولقد اصبح تراث تشيخوف اليوم ، بعد انقضاء خمسين عاماً على وفاته ، ملكاً للعالم باسره بعد ان نقل الى جميع اللغات . والقارىء العربي يشعر بحاجة الى كلمة اخرى عنه بعد ان ذاع منقولاً الى العربية منذ سنوات طويلة ، رغم انه قيلت عنه بالعربية كلمات . غير ان نصيبها بعد وفاة تشيخوف ليس افضل من نصيب قائليها في حياته . ولقد قال الكبار كلمتهم في تشيخوف منذ عهد بعيد . وما احوج القارىء العربي والكاتب والناقد ، الى ان يظل تلميذ آرائهم مدة طويلة قبل ان يتقدم ليمد يده الى قدس اقداس فنان .

★

يقول الكاتب الروسي « ليون شيستوف L.Chestov » في دراسة له عن تشيخوف : « ليست لدينا ترجمة كاملة ومفصلة لحياة تشيخوف ، ومن المحتمل ان لا نظفر بها ابداً ، بسبب انه لا توجد بصورة عامة ترجمات من هذا النوع ... قد يتفق ان نعلم بين يوم وآخر اسم الخياط الذي كان يصنع لتشيخوف ثيابه ، غير اننا لن نعلم ابداً ماذا كان يجري في داخل تشيخوف خلال تلك الفترة الممتدة بين قصة « السهب » ومسرحية « ايفانوف » (١) . ومع ذلك فان كتاب «حياة تشيخوف» الذي وضعته بالفرنسية الكاتبة الروسية الاصل « ايرين نيميروفسكي » يصح ان يعتبر من افضل ما كتب عنه (٢)

ولد انطون تشيخوف في ١٧ كانون الثاني من عام ١٨٦٠

---

(١) مجلة « الآداب الفرنسية » تشيخوف بقلم مكسيم غوركي . نقلاً عن كتاب « ثلاثة من الروس » العدد (٥١٩) . (ص ٦) .

(٢) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . الرسالة العاشرة . الصفحة ٢٧ . تعريب جلال فاروق الشريف (دار اليقظة العربية)

(٣) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . الرسالة السابعة والعشرون . ص ٦٧ .

(٤) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . الرسالة الحادية عشرة . ص ٣١

---

(١) كبار الناثرين الروس . Les grands prosateurs russes للكاتب « سيرج ميكلسن » Serge Michelson . ص (٢١٠)

(٢) حياة تشيخوف . La vie de Tchekchov . ايرين نيميروفسكي I. Némirovsky . Albin Michel

في مدينة « تاغانروغ » في جنوب روسيا الواقعة على شاطىء بحر آزوف المتصل بشبه جزيرة القرم والبحر الاسود ، لاب بقال بسيط «بول» وجد لاب يدعى « ايغور » كان قناً من الاقنان ، وفلاحاً عبداً من العبيد ، شرى نفسه واسرته من سيده بما استطاع ان يدخره من مال ، وام ابنة بائع قماش متجول رقيق الحال .

وكان « انطوان » ثالث ستة من الاولاد ، يكبره اثنان ويصغره ثلاثة ، منهم بنت تدعى مـــاري . وعندما ترعرع قليلًا ادخل في مدرسة « تاغانروغ » الرسمية ، غير ان الاب لم يلبث ان حل به الافلاس بعد عدة سنوات ، فترك ذويه وفر الى موسكو التي سبقه اليها ولداه الاكـــبران ، ثم لم تلبث الاسرة ان لحقت به ولم يبق في «تاغانروغ» منها غير انطوان واخيه الصغير ايفان ، وكان انطون في ذلك الحين في السادسة عشرة من عمره . وفي التاسعة عشرة ، انجز دراسته الثانوية ولحق باهله في موسكو ، وكانوا يعيشون فيها عيشة فاقة وبؤس ، ودخل جامعة موسكو ليدرس الطب . وشجعه ما حظي به اخوه الاكبر من توفيق في نشر بعض الحكايات في بعض المجلات المصورة ، على الكتابة ، ففعل ونشر لاول مرة في مجلة « الصرصار » عام ١٨٨٠ قصة عنوانها « رسالة من احد ملاكي منطقة الدون الى جاره » تحت اسم مستعار . واستمر يفعل ذلك في مجلات مختلفة يغلب عليها طابع الفكاهة والهزل حتى عام ١٨٨٢ عندما انتقل الى الكتابة في صحيفة « الشرر » فبدأ اسمه في الانتشار ، وصيته في الذيوع .

تقول « ايرين نيميروفسكي » متحدثة عن تلك الفترة من تاريخ روسيا : « لقد كانت روسيا في فترة عام ١٨٦٠ تتمنى باكثريتها العظمى الغاء الرق ، وترغب في حدوث اصلاحات اجتماعية ، وتأمل في مستقبل افضل . كان الناس جميعاً يعتقدون ان استرقاق الفلاح هو مصدر جميع الاسواء . وهم لكثرة ما اشفقوا عليه ، انتهى بهم الحال الى ان جعـلوا من الفلاح الروسي مثلًا اعلى ونموذجاً يحتذى . وكانت « الانتيلجنزيا » تريد بكـــل قواها ان تكتشف في « ايفان » و « ديمتري » الحافين وذوي اللحية القذرة ، نبياً او قديساً ، بدلا من ان ترى في كل منهما رجلًا عادياً ، ليس افضل من الآخرين ولا اسوأ منهم . اخيراً الغي الرق ، فبدا الفلاح جلفاً جاهلًا ، ليس يقل عن سادته قدرة على القسوة والخسة . لقد ظل يائساً كالسابق على الرغم من تحريره . اما الاشراف فقد اشرفوا عـلى الخراب . والمجالس القروية لم تعد تمارس عملها إلا بمشقة . وفساد الموظفـــين – وهو المرض القديم ، مرض روسيا الخالد – ظل كما هو منذ عهـــد « غوغول » وبدت الرجعية اثر محاولة اغتيال القيصر عام ١٨٨١ قادرة على ان تفعل كل شيء ، معيدة الى الاذهان في كل لحظة ، اسوأ ايام حـــكم « نيقولا الاول » فالرقابة الحمقاء على النشر ، والاعمال الوحشيـــة ، والثوريون والحكام المتنافسون في قسوة الهجوم والقمع ، كل هذا كان يؤلف تقريباً ، صورة للمجتمع الروسي في السنوات الواقعة بين ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، اما الناس فلم يعودوا يشعرون الا بثبوط العزيمة والـلامبالاة . الى اي شيء ادت تلك الاحلام النبيلة الكريمة ، وتلك القرابين من الارواح ؟ لقد اصاب الناس اشمئزاز من السياسة ومن الاصلاحات الاجتماعية وبقي العمال وحدهم هم الذين يتحركون ، لكن بعيداً عن « الانتيليجنزيا » . اما هذه التي اصابتها خيبة امل في الفلاح ، فكانت تجهل العامل ، ومن المحتمل ان تجزع منه لو عرفته . كم وكم يبدو مؤثراً في النفس لنا نحن الذين نعرف ما كانت تخبئه مقبلات السنين بعد مدة ، ذلك الاسى والخدر اللذان كانت الطبقة الممتازة غارقــة فيهما ، في حين كانت تنتظرها ارهب النهايات !

كان الناس في ذلك الحين يبحثون عن سبب يعيشون من اجله . فلنعرض هنا عن الكلام عن الماركسية التي كانت تلقى تحبيذاً قوياً جداً من الشبيبة ، فثمراتها لم تظهر الا متأخرة . في فترة عام ١٨٨٠ ، كانت تتجاذب الفكر الروسي ثلاثة اتجاهات :

اولاً ، الاستسلام وممارسة الفضائل الصغيرة (وكانوا يقولون : لاتطلب المحال . ما فائدة الاصلاحات الخارقة ؟ فليبذل كل امرىء قصارى جهده في عمله في الدائرة المتواضعة التي هو فيها . اطعم الجائـــع ، شيد مدرسة ، او مستشفى ، كن اميناً ، غفوراً ، فهذا يكفي .)

ثم المذهب الفردي المتطرف (نظرية الفن للفن) .

واخيراً ، السعي نحو التكامل الذاتي الذي نشره تولستوي بين الناس . غير ان اياً من هذه الاتجاهات الثلاثة لم يكن مع الاسف ليرضي الرضا كله « الانسان ذا الارادة الطيبة » فقد كانت روسيا اكبر واتعس من ان لا تخيب « الفضائل الصغيرة » . ما جدوى بناء مدرسة ، بل عشر مدارس بل مئة ، بالنسبة للملايين الاميين ؟ ما جدوى اطعام سكان قريـــة ، بل سكان مدينة ، في حين تموت بقية روسيا كلها من الجوع ؟ كيف يظل الانسان اميناً في بلاد كل من فيها يسرق ، من اصغر الناس الى اكبرهم ، ولم يظل كذلك ؟ وليست النزعة الفردية ، اذا ما امعنا النظر فيها ، بافضل من تلك: فالمرء لا يمكنه ان يتناسى آلام مــلايين الابرياء ، إلا اذا كان وحشاً لا قلب له . ماذا تبقى اذن ؟ اصلاح النفس ، والبحث عن الحقيقـــة ، وفق مذهب تولستوي : ان لهذه النظرية تأثيراً كبيراً على النفوس ، غير انها بدورها ايضاً ، لا تجلب السعادة . لقد كان رجال فـــترة ١٨٨٠ حزينين قلقين ، افترسهم الاسف والاوهام والندم الغامض والتوجس الغريب ... كانوا ينتظرون الكاتب الذي يتحدث عن تفاهة العيش هذه ، دون غضب ودون اشمئزاز ، وانما بما تستحقه من اشفاق .

كان للادب في ذلك الحين سيطرة كبيرة على النفوس . فهـذا الجمهور العاطل عن العمل ، المثقف ، المرهف ، لم يكن يبحث عن التسلية الطريفة ولا عن اللذة البديعية الصرف ، وانما كان يبحث عن عقيدة . لقد كان الكاتب الروسي معلماً بافضل ما في هذه الكلمة من معنى . والناس لايتوجهون اليه بالسؤال الذي فرضه القارىء الاوربي : « ما نحن ؟ » وانما يسائلونه قلقين : « ما يجب ان نكون ؟ » ويجتهـــد كل كاتب في ان يجيب وفق طريقته الخاصة . لقد صدر منذ قليل كتاب « الاخوة كرامازوف » . وكتب « سالتيكوف – ستشيـــدرين» « Saltkov —Stchèdrine » قصة « السادة غولوفليف » وكانت تلك مرحلة آخر اقاصيص « تورغينيف » الكاملة الحزينة . وكان تولستوي ملكاً وآلهاً . وبين جميع هؤلاء العظماء الذين تجللهم روسيا باجمعها ، بدأ شاب متواضع في كتابة اقاصيصه الاولى ،

دون ان يفكر إلا في كسب عيشه . » (١) .

على هذا النحو الذي تصفه لنا « ايرين نيميروفسكي » دخل تشيخوف عالم الادب . وفي عام ١٨٨٤ نال شهادة الطب ولم تقبل سنة ١٨٨٧ حتى اصبح شهيراً ، فقد دعاه «سوفورين Souvorine مدير اكبر صحيفة في بطرسبرغ وهي « نوفوي فريميا Novoie Vremia » الى نشر اقاصيصه فيها . وفي آذار من ذلك العام كتب اليه الناقد الروسي الكبير « غريغوروفتش Grigorovitch » رسالة اعجاب بموهبته وتقدير لانتاجه واسدى اليه بعض النصح قائلاً : « احترم الموهبة التي لا ينال الناس نصيباً منها إلا فيما ندر . كفّ عن كل انتاج سريع . لست ادري وضعك المالي ، فاذا كنت فقيراً ، فآثر ألم الجوع عليه ، كما فعلنا نحن قديماً ، احتفظ بانطباعاتك لكتاب مدروس قد انجزته وكتبته ، ليس بدفعة واحدة ، وانما خلال ساعات الالهام السعيدة . ان مؤلفاً واحداً كتب على هذا النحو ، سيفضل بمئة مرة ، مئات الاقاصيص الجميلة المنثورة في الصحف . ستنال الثمن دفعة واحدة . وستحظى بالتفاتة الناس المترفين ومن ثم سائر جمهرة القراء . » (٢).

وقد رد تشيخوف على هذه الرسالة معترفاً بتسرعه في الكتابة فقال : « لقد عاملت عملي الادبي حتى الآن بمنتهى الاستخفاف والاهمال ولست اعرف قصة واحدة من اقاصيصي صرفت في كتابتها اكثر من يوم واحد . »

بعد هذا اخذ تشيخوف يبذل مزيداً من العناية في اقاصيصه ، واخذ الطابع الجدي يرتسم عليها ، ولم ينصرم عامان حتى كتب مسرحية « ايفانوف » الشهيرة التي قابلها الجمهور بادىء الامر بالاعراض ثم ظفرت بنجاح عظيم ، بعد زمن قليل .

(١) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . (ص ٩٩ — ١٠٣) . الاصل الفرنسي .

(٢) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . (ص ١١٤) .

وفي هذه الفترة اي ١٨٨٩ توفي اخوه الاكبر متأثراً بالسل ، وبدأت اعراض النزيف الرئوي تظهر على تشيخوف نفسه . وقام بعد ذلك بعام بزيارة جزيرة « سخالين » في الشرق الاقصى حيث كانت الحكومة القيصرية تودع المجرمين والسجناء السياسيين . وعندما سئل عن اسباب هذه الرحلة اجاب : « اريد ان احيا نصف عام لم اعش مثله حتى الآن . ». وزار الجزيرة ثم عاد بطريق الشرق الاقصى ماراً عبر المحيط الهندي والبحر الاحمر والاسود . اما نتيجة هذه الزيارة « فان تشيخوف يمكن ان يقول فيما بينه وبين نفسه عن سفرته ما عاناه من مشاق ، وما قضاه مؤرق الجفن من ليال ، ان هذا كله لم يجد الانسانية البائسة فتيلاً . ان من الصعب على الكاتب ان « يخدم » كما يريد تولستوي . ولقد ادرك تشيخوف هذا بصورة نهائية . فاكتفى بعد ذلك بان يقوم بدور الشاهد » (١) اما من حيث الادب ، فكان من الطبيعي ان يدخل الكثير من حوادث هذه الرحلة في آطار عدة اقاصيص منها « في المنفى » و « غوسييف » وغير ذلك .



غوركي وتشيخوف

وعندما اشتدت عليه وطأة العلة رحل عام ١٨٩١ مع صديقه الناشر «سوفورين» الى اوروبا الغربية فزار فيينا والبندقية وروما ونيس وباريس غير انه لم يلبث ان عاد واشترى مزرعة في قرية « ميليخوفو » في ضواحي موسكو واقام فيها مع اسرته وانصرف الى الانتاج والعمل الدائب الذي لم تعكره غير نوبات النزيف التي تلم به بين الحين والآخر . ومن اشهر ما كتب في هذه الفترة قصة « الراهب الاسود » ومسرحية « الطائر البحري » (النورس) وقصة « الفلاحين » . وهاجمه ذات مرة نزيف رئوي حاد اثناء احدى الحفلات فادخل المستشفى ونصح له الاطباء بالابتعاد عن شتاء روسيا فقصد عام ١٨٩٨ جنوب فرنسا وقضى الشتاء فيه ثم عاد . وتوفي والده

(١) حياة تشيخوف. ايرين نيميروفسكي. (ص ١٦١) الاصل الفرنسي

في هذا العام نفسه ، فانتقل مع اهله الى القرم واقام في يالطا . وانتخب عام ١٩٠٠ عضواً في المجمع العلمي في بطرسبرغ ، وبعد عام تزوج من الممثلة الالمانية الاصل « اولغا كنيبر Olga Knipper » واستقال بعد زواجه بسنة واحدة من المجمع العلمي احتجاجاً على اعتراض القيصر على انتخاب مكسيم غوركي عضواً في المجمع نفسه . وفي عام ١٩٠٤ اشتد عليه المرض اشتداداً كبيراً فسافر الى « بادن » في المانيا للاستشفاء حيث وافته المنية في مطلع تموز من عام ١٩٠٤ . وفي هذه المرحلة الاخيرة من حياته انتج مجموعة من افضل ما كتب منها قصة « في المنحدر » و « نساء » و « الاسقف » ومسرحية « الشقيقات الثلاث » و « بستان الكرز » .

★

يقول مكسيم غوركي : « عندما يقرأ المرء اقاصيص انطون تشيخوف يحس كأنه يحيا نهاراً حزيناً من اواخر الخريف حيث الجو شفاف للغاية حتى لترتسم فيه الاشجار العارية والمنازل الضيقة والرجال الغبر ، وقد اتخذت كلها طابعاً حاداً . فكل شيء منعزل ، ساكن ، نضبت قواه . الابعاد العميقة الزرقاء مقفرة ومختلطة بالسماء الغبراء وترسل على الارض المغطاة بالوحل المتجلد ، برداً كئيباً . وفكر المؤلف ، الشبيه بشمس الخريف ، ينشر نوره الشديد ، على الطرق اللاحبة والازقة المتعرجة والمنازل الضيقة القذرة التي يختنق فيها من الملل والكسل ، مخلوقات مسكينة جديرة بالشفقة ملأت مساكنها بحركة مضطربة ، شبه غافية ، ليس لها معنى . » (١) .

ويقول في موضع آخر مخاطباً تشيخوف : « بصريح العبارة ، اود ان اعرب لك عن المحبة الصريحة التي اغذوها لك في نفسي منذ الطفولة ، وان احدثك عن الحماسة التي تساورني امام عبقريتك التي تثير الاعجاب ، عبقريتك المريرة والاخاذة ، عبقريتك الفاجعة والرقيقة الحاشية معاً ، والتي هي دوماً وابداً ، عظيمة الجمال فائقة النعومة ... كم من لحظات رائعة عشتها في كتبك ، وكم اهرقت فوقها من دموع . كنت اغدو كالذئب المسعور الذي اطبق عليه الفخ ، ثم لا البث ان اضحك طويلاً وقد غمرني الاسى .. اشد على يدك مرة اخرى . ان عبقريتك روح طاهرة مشرقة مشتبكة بروابط الجسد ، مقيدة بالضرورات الخسيسة التي تقتضيها الحياة اليومية ، وهذا مصدر الالم فيها ، فلتسكب الدموع : ان نواحها لن يمنع نداءها الصاعد نحو الله من ان يصل الى الاسماع جلياً . » . (٢)

ويقول في رسالة ثانية مخاطباً تشيخوف ايضاً : « ان المرء ليخونه التعبير الواضح عما تثيره هذه المسرحية (ايفانوف) في اعماق النفس ، انه ليس سوى شعور ، غير انه يخيل الي عندما انظر الى ابطالها على خشبة المسرح كأن ثمة منشاراً مغلولاً يعمل في كياني تقطيعاً . ان اسنانه تنفذ مباشرة الى القلب الذي يتقلص تحت وطأة نهشها له ، ويئن ويتمزق ...

... عندما شرع الطبيب في الفصل الاخير من « فانيا » يتحدث عن حرارة الطقس في افريقيا ، اخذت اهتز وجداً امام عبقريتك ، وذعراً امام الانسانية ، اخذت اهتز امام وجودك البائس الذي لا لون له . انك لتضرب هنافي الصميم ، ولكم تحكم الضرب ! انك تتمتع بموهبة فياضة . لكن قل لي اي مسمار تود ان تغرزه بمثل هذه الضربات ..؟ هل انت بهذا تحيي الانسان ؟ ما نحن في الحقيقة غير اناس يورثون الضجر . اناس مقيتين ، وان على المرء ان يكون غولاً من غيلان الفضيلة حتى يستطيع ان يحب هذا العدم ، وهذه الأكمال من المصران التي تؤلف كياننا ، وحتى يستطيع ان يشفق عليها ويساعدها .. يخيل الي انك تعامل الناس في مسرحيتك ببرود الشيطان . انك كالثلج في لا مبالاتك كالعذاب . اغفر لي ، قد اكون مخطئاً . اني على كل حال ، لا اتحدث اولاً عن انطباعاتي الشخصية ، لكن ألا ترى ان مسرحيتك قد خلفت في نفسي خوفاً وتركت فيها قلقاً .. » (١)

وفي رسالة ثالثة : « اني رجل خيال ، وقد مر علي زمن كنت اتخيلك فيه منتصباً عالياً جداً فوق الحياة . وجهك جامد القسمات كوجه قاض من القضاة ، وفي عينيك ينعكس كل شيء ، الشمس البراقة ونفوس الرجال .. » (٢) .

على هذا النحو صور غوركي الانطباع الذي يحدث في نفس القارىء بعد قراءة اقاصيص تشيخوف . انه شعور بالحزن والكآبة يسيطر على النفس كأن المرء يعيش يوماً من ايام الخريف وحياة بائسة تافهة ، وبشر يتحركون دون جدوى ، على غير وعي ، دون ان يكون لعملهم معنى ، وكاتب جامد القسمات قاسي الاسارير ينظر الى الحياة من عل دون مبالاة ويصورها كما هي ، وقد ساوره اليأس وحل به التشاؤم .

وتؤكد الكاتبة الانكليزية كاترين منسفيلد Cathérine Manzfield التي تعتبر الوريث الروحي لانطون تشيخوف والتي لا يمكن الكلام عنه دون الرجوع اليها ، هذا التشاؤم عنده فتقول : « ... اذا ما قرأ الانسان تشيخوف بنوع من الحدس يجد ان رسائله الاخيرة رهيبة . ماذا بقي منه ... لم يبق سوى البؤس . اقرأوا رسائله الاخيرة ، لقد تلاشى كل امل بالنسبة اليه . » (٣)

اما « سيرج ميشلن » فيذهب الى القول : « انه من الكائنات التي يلاحقها القدر بقسوة شديدة بعد ان يكون قد اسبغ عليها اندر المواهب . ان تشيخوف واحد من تلك المخلوقات التي كتب عليها بصورة من الصور ان تحيا في البؤس . » (٤) . ويقول في موضوع آخر : « كان تشيخوف يتساءل بقلق : ما العمل ؟ الفرار من تفاهة الحياة التي تثير الاشمئزاز ، لكن كيف السبيل الى ذلك ؟ لكم اخفقت محاولات وخابت احلام

---

(١) مجلة « الآداب الفرنسية » . تشيخوف بقلم مكسيم غوركي . نقلاً عن « ثلاثة من الروس » . (العدد ٥١٩) . (ص ٦) .
(٢) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . (الرسالة ١)

(١) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . (الرسالة ٣) .
(٢) مراسلات بين غوركي وتشيخوف . (الرسالة ٨)
(٣) « كاترين منسفيلد » . « رسائل Lettres » .
(٤) « كبار الناثرين الروس » « منشورات La jeune parque » (ص ٢٠٩) النص الفرنسي .

الكفاح ؟ باسم أي مثل أعلى يجب أن يقوم ، وباسم أي مبدأ . »
(١) . « ... ان فلسفة اليأس هي في جوهرهـــا الفلسفة التي يعلمنا اياها تشيخوف ، وهو لا يكف الا اذا ساق ابطاله الى حتفهم ، انه يسممهم بالتدريج وليس ينقذهم نواحهم وثوراتهم ، انه يطأ الارض نفسها دون كلل ، والآفاق نفسها تظل تنفتح دوماً امام عينيه . » (٢)

ويطلق الكاتب الروسي « ليون شيستوف » عليه اسم « شاعر اليأس » : « ان جميع شخصيات تشيخوف تخشى النور ، انهم جميعاً في عزلة . وهم في خجل من يأسهم ، ويعلمون ان الآخرين لا يستطيعون ان يمدوا اليهم يد المساعدة » . (٣) ويؤكد المفكر الفرنسي « غابرييل مارسيل Gabriel Marcel » هذه العزلة التي يعيش فيها ابطال تشيخوف عندما يتحدث عن تمثيل مسرحية « طير النورس البحري » في باريس بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة تشيخوف فيقول : « ان من الصعب بل من المستحيل سرد « طير النورس » . غير ان شيئاً واحداً اثر في نفسي عندما شاهدتها من جديد : لقد تبين بصورة واضحة جداً أن تشيخوف قد عرض علينا بصورة قد تكون شبه واعية عدة صور عن وضع الكاتب والشاعر وعن المشكلات الانسانية المطروحة التي ليس لها حل ... والامر المدهش الذي لا يمكن ان يقلد في اثر فني لمسرحية الطائر البحري ، هو الطريقة التي وضعت فيها شخصياتها جنباً الى جنب دون ان يكون هناك اي ترتيب . انهم مجتمعون ، غير ان كل واحد مع ذلك ، يظل محافظاً على عزلته ، وله نغمه الخاص . والى هذا ترجع دون ريب ، تلك الروح الشعرية القوية التي يحس بها المرء ، والتي تنبعث من اثر فني كهذا ، تلك الروح الشعرية التي لا تكمن ابداً في الكلمات نفسها وانما حول الكلمات . » (٤) .

وجميع شخصيات ادب تشيخوف يشبهون طير النورس . فلا يدري المرء من اين انبثقوا فجأة امام عينيه ، ثم لا يلبثون ان يأخذوا في الحوار والحديث الذي ليس يجدي ، ويقدمون على افعال واعمال لا غناء فيها ، ثم تخفق اجنحتهم في يأس ويتوارون بغتة عن الانظار كأن الارض قد خسفت تحت اقدامهم او كأنهم سقطوا في شرك الصياد .

ترى من اي شيء يخاف ابطال تشيخوف ، ومن اي شيء يرتعدون فرقاً ؟ انهم يخشون العزلة ويخافون منها اشد الخوف ، فهم يشعرون انهم محاطون بسور متين لا يعرفون السبيل الى اختراقه . اما العمل والحب والدين واسمى الفضائل وانبل الافكار ، فليس لها في انفسهم غير صدى يتردد من بعيد . لقد انفصلوا عن الحياة فاذا بها تتجلى لهم فجأة ضرباً من العبث Absurde .

« ان اقاصيص تشيخوف حزينة . وهو ليس يزعم انه متشائم ، لان بعض اشخاص اقاصيصه يقولون : « ان الحياة ستكون افضل مما هي عليه الآن بعد مئتين او ثلاثمئة سنة » . غير ان المرء لا يستطيع ان يقرأ تشيخوف طويلاً دون ان يشعر بالانقباض في قلبه . ان موباسان متشائم والطبيعيون يرون الحياة سوداء ، غير ان في هذا المفهوم عن الوجود شيئاً من الطفولة اذا ما قورن بمفهوم تشيخوف . ان ابطال موباسان يتألمون لانهم فقراء او مسنون او مرضى . فاسباب يأسهم خارجية كلها . اما مصدر الألم عند تشيخوف فهو ان الحياة في نظره ليس لها اي معنى .
ثمة امرأة احبته وسألته :
— ما معنى الحياة ؟
فاجاب باعياء :
— تسألينني عن معنى الحياة ؟ انك في هذا كما لو كنت تسألين : ما هو « الجزر carotte » ؟ « الجزر » هو « الجزر » ولا شيء غير ذلك .
ويقول « توسنباخ » الامر نفسه في مسرحية « الشقيقات الثلاث » :
— « ستظل الحياة كما هي حتى بعد مليون سنة . لن تتغير . ستظل ثابتة وستسير وفق قوانينها الخاصة التي ليس علينا الا اتباعها ، او على الاقل التي لن نعرفها ابداً . ان الطيور تطير وتطير ، ومهما كانت الافكار التي تدور في رأسها عظيمة او حقيرة ، فانها تتابع طيرانها وتجهل لماذا تطير والى اين تطير . انها تطير وستظل تفعل ذلك مهما كان نوع الفلاسفة الذين هم بينها ولتتفلسف اذا شاءت ، ولكن شريطة ألا تكف عن الطيران .
— « ما شا » : لكن هل لهذا معنى ؟
— معنى ... ها هو الثلج يتساقط ، اي معنى فيه ؟ » (١)

يقول تشيخوف في « قصة رجل مجهول » : « فرغ من الكتابة ونهض . لا يزال امامي متسع من الوقت . سأثير نفسي ، واشد على قبضتي يديّ ، مجتهداً في ان اجعل قلبي ينبض ولو بقطرة واحدة من حقدي السابق . سأذكر نفسي اي عدو لدود عنيد كنت قبلاً ... غير ان من الصعب ايقاد عود ثقاب بفركه على حجر واه ... ما انا الآن ؟ باي شيء افكر ، وماذا افعل ؟ الى اين اذهب ؟ ... لماذا احيا ؟ » . (٢)

ويتفق كما — يقول البير كامو A. Camus في اسطورة سيزيف Le mythe de Sysiphe — ان ينهار « الديكور » ...

(١) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . (ص ١٧٤) .
(٢) قصة رجل مجهول (ص ٧١) . النص الفرنسي .

(١) « كبار الناثرين الروس » (ص ٢١٠) .
(٢) « كبار الناثرين الروس » « منشورات (ص ٢٩٤) »
(٣) ليون شيستوف . صفحات مختارة .. (ص ٧٧) النص الفرنسي .
(٤) مجلة « الانباء الادبية » Les nouvelles Littéraires . « طير النورس البحري » Gabriel Marcel (ص ١٠) (العدد ١٤٠٠) .

فاذا بكلمة « ماذا » تنبثق ذات يوم ، وكل شيء « يبدأ » في هذا الاعياء المصطبغ بالدهشة . « يبدأ » : لهـــذا اهميته . فالاعياء كامن في نهاية جميع الافعال في الحياة الآلية ، غير انه في الوقت نفسه يفتتح حركة الوعي ، انه يوقظه ويثير ما يليه . اما ما يلي فهو العودة اللاواعية الى القيود او اليقظة النهائية . » (١) . غير ان المرء لا يثور على القوانين التي تسير عالم الابدية كلها ، دون ان يلقى عقابه ، فالعودة الى القيود امر محتوم . ان « لا يفسكي » بطل قصة « المبارزة » يقول : « علي ان ادرك اخيراً ان الاستمرار في حياة كحياتي جبن وقسوة ، كل ما تبقى ضعة وعدم . ثم يهمس : الذهاب ، الفرار . » (٢) . غير انه لا يذهب ، بل يستسلم الى حياة تبعث الملال في النفس قرب امرأة لم يعد يضمر لها اي حب . فلا بد اذن من ان يغوص « لايفسكي » باستمرار في حمأة الانهيار الذي صار اليه فالحركة الرتيبة (Routine) لا تزال خير علاج .

« لقد انكشف امام عيني تشيخوف العبث الذي هو اس الحياة » . (٣) . غير ان الغوص في ذلك اليقين الذي لا قرار له ، والشعور الذي يساور المرء بانه غريب عن حياته نفسها كي يعمل على تنميتها وسبر غورها ، كل هذا ليس سوى نوع من التحرر ، اذ ليس ثمة ريب في ان ثورة الانسان هذه على العدم لا تخلو من نبل ، غير انها لا تكفي لطلب الحرية ، لان عليه ان يحيا ويستمر في الحياة . بل ان هناك ضرباً من « صوفية العبث Mystique de l'absurde » التي هي شيء اكثر من مجرد الخضوع ، انها تتطلب انصياعاً بكل مجامع النفس ، لا ينثني يتجدد باستمرار ، وهذا ما فعله تشيخوف . غير انه لم يرغب في ان يذهب بالمقدمات الى نتائجها المنطقية لانه يمقت ان يجعل من آرائه الخاصة قواعد عامة للحياة ، لهذا اكتفى بالقيام بدور الشاهد . كما انه لم يرغب في الاستسلام فظـــل يناضل ليظفر بحريته الداخلية ، وليفر من الآفاق الحزينة التي تفتحها العزلة امام عينيه دائماً ، فاقبل على العمل بجد ودأب ، واخـذ نفسه بالشدة والصرامة . وهو يعلم حقيقة مأساة الانسان .

« ليس ثمة انسان – كما يقول غوركي متحدثاً عن تشيخوف – فهم بمزيد من الوضوح والدقة مأساة بعض الجنبات الصغيرة من الوجود ، مثله . ليس ثمة انسان استطاع قبله ، ان يدل الناس ، باخلاص للحقيقة لا اثر فيه للشفقة ، على صورة حياتهم المملة التي تكرّر في تلك الفوضى القاتمة من الثقافة الرخيصة . » (١) . لقد كان تشيخوف مخلصاً للحقيقة اذن عندما صورها غير ان تلك الحقيقة التي قدمها لنا تشيخوف فاجعة في جوهرها . واذا ما كان العالم حقاً ، كما صوره لنـــا تشيخوف ، عامياً مبتذلاً لا لون له ، خالياً من السمو ، فلنقل السلام على انسانيتنا.

ومن هذه الحقيقة القاسية يحاول البعض النفاذ الى تشيخوف وتفسيره تفسيراً خاصاً ، وجعله كاتباً مثالياً ، كتبَ ما كتب لاصلاح المجتمع ، مستشهدين عـــلى ذلك برحلته الى جزيرة « سخالين » وعمله على مكافحة المجاعة في منطقة « نوفغوروود » وغير ذلك ، والدليل الكـــبير الذي يقدمونه عـــلى ثورة تشيخوف على المصير الانساني كما صوره هو قصة « الحجرة رقم ٦ » التي تصور احد المستشفيات القذرة في الريف ، يـديره ممرض سكير متوحش ، وطبيب غير مبال ، ترك الامور تجري كما هي ، مؤكداً للمرضى ان كمية البؤس لن تتغير اذا ما كان المرء فقيراً او غنياً ، جائعاً او متخوماً ، مريضاً او سليماً ، حراً او سجيناً . ويفسرون هذه القصة بان (الحجرة رقم ٦) هي الامبراطورية الروسية ، وان الممرض هو القيصر ، والطبيب هو الطبقة المثقفة (الانتيلجينزيا) . ويذهبون ابعد من ذلك حتى انهم ليقولون انه لو طال به العمر لكان ماركسياً (٢) . والى هذا يعزون فخر الاتحاد السوفياتي به .

غير انه لا بد من التمحيص والتدقيق الشديدين قبل اطلاق الاحكام . وقصة تفسر ، لا يمكن ان تنهض دليـــلاً يخالف اتجاهاً باكمله . ولئن كان تشيخوف قد صور بؤس الحياة في روسيا ، فما ذلك لـكي ينفذ من وراء ذلك الى غـاية اعظم ، ولئن راعته تفاهة المصير الانساني فيها ، فما ذلك الا لانه اراد ان يغوص في الواقع القومي لينفذ منه الى المصير الانساني كله ، هذا المصير الذي رآه تشيخوف يدور في حلقة مفرغة ، ويكر في حياة تافهة رتيبة لا معنى لها وليست لها اية غاية ، فاخلص تشيخوف معاً للحقيقة الروسية والحقيقة الانسانية كما رآها ولمسها من خلال مأساة حياته .

دمشق

جلال فاروق الشريف

(١) اسطورة سيزيف . (ص ٢٧) الاصل الفرنسي .
(٢) المبارزة . (ص ٢١) النص الفرنسي .
(٣) « كبار الناثرين الروس » (ص ٢١٩) الاصل الفرنسي .

(١) مجلة « الآداب الفرنسية » (العدد ٥١٩) (ص ٦) .
(١) حياة تشيخوف . ايرين نيميروفسكي . الاصـل الفرنسي ص (١٨٣) .

طلب زواج

مسرحية بقلم انطون تشيخوف

الاشخـاص

ستيبان ستيبانوفيتش **تشوبوكوف** : ملاّك

ناتاليا ستيبانوفنا: ابنته ، ٢٥ عاماً

ايفان فاسيليفيتش **لوموف**: جار تشوبوكوف ملاّك عقاريّ — سمين ذو صحة جيـدة ، يتبسّط كثيراً في حديثه .

(يجري الحادث في منزل تشوبوكوف)

المشهد الاول

(صالة في منزل تشوبوكوف)

تشوبوكوف ، لوموف (هذا الاخير يرتدي بذلة رسمية وقفازاً أبيض)

تشوبوكوف (مقبلاً للقاء لوموف) — يا عزيزي : من ارى ؟ ايفان فاسيليفيتش ! انني سعيد جداً ! (يصافحه) إن هذه حقاً لمفاجأة ، يا أمي الصغيرة ! ... كيف حالك ؟

لوموف — اشكرك . وانت كيف هي صحتك ؟

تشوبوكوف — اننا نعيش على مهل ، يا ملاكي ، بفضل دعواتك ، وهلم جرا ... اجلس ، ارجوك رجاء ملحاً ... انه لشيء سيء ، يا امي الصغيرة ، ان ينسى المرء جيرانه . ولكن يا عزيزي ، لماذا لا تأتي الينا الا على هذه الصورة الرسمية جداً ؟ وبهذه البذلة ؟ وقفاز ابيض وهلم جرا ... هل انت ذاهب الى مكان ، يا جوهرتي ؟

لوموف — لا . فانا آت الى عندك فحسب ، يا ستيبان ستيبانيتش المحترم ...

تشوبوكوف — لم إذن ترتدي بذلتك الرسمية يا ساحري ؟ كما تفعل في الزيارات ، بمناسبة عيد رأس السنة ؟

لوموف — هذه هي القضية (يتأبط ذراعه) انني آت الى عندك يا ستيبان ستيبانيتش المحترم لأزعجك بطلب . فلقد تشرفت اكثر من مرة بان طلبت معونتك ، وكنت دائماً .. كيف اقول ... اعذرني ، انني مضطرب .. سأشرب قدحاً من الماء ، يا ستيبان ستيبانيتش المحترم . (يشرب ماء) .

تشوبوكوف (على حدة) — لقد اتى يستدين مني مالاً . ولكنني لن ادينه . (للوموف) — ما هي القضية يا جميلي ؟

لوموف — اسمع يا اوفاجاي ستيبانيتش عفواً ... بل يا ستيبان اوفاجايفيتش .. انني والحق يقال مضطرب جداً . ولا بد انك قد لاحظت ذلك . وبالاختصار فانت وحدك الذي يستطيع ان يساعدني بالرغم من انني لا استحق ذلك بكل تأكيد وانه لا يحق لي ان اعتمد على مساعدتك ...

تشوبوكوف — آه ! لا تذهب هذا المذهب البعيد ، يا امي الصغيرة . تكلم ! ... ما القضية ؟

لوموف — على التو . دقيقة ... القضية اني قادم اطلب يد ابنتك ، ناتاليا ستيبانوفنا .

تشوبوكوف (بفرح) — يا امي الصغيرة ! يا ايفان فاسيليفيتش ، أعـد ما قلت ، فانا لم اسمعه جيداً !

لوموف — لي الشرف ان اطلب ...

تشوبوكوف (مقاطعاً اياه) — يا عزيزي ... انني مسرور جداً وهلم جرا . هذه هي الحقيقة وهلم جرا . (يضمه ويقبله) لقد كنت ارغب في ذلك منذ وقت بعيد . كانت هذه رغبتي الدائمة . (يترك دمعة تسيل على خده) ولقد احببتك دائماً يا ملاكي ، كأنك ابني بالذات . ليمنحكما الله ، انتما الاثنين ، الحب والوفاق وهلم جرا . لقد رغبت في ذلك رغبة شديدة .. وما لي بعد مزروعاً هنا كالوتد ؟ لقد استخف بي الفرح . استخفني كثيراً . اوه ! انه يفيض من قلبي ! انني ماض لدعوة ناتاشا ، واشياء اخرى مماثلة .

لوموف (منفعلاً) — اتعتقد يا ستيبان ستيبانيتش المحترم ان بامكاني ان آمل في موافقتها ؟ ..

تشوبوكوف — فتى جميل مثلك ، بكل ما في الكلمة من قوة و ... لا توافق ؟ انني اراهن بانها واقعة في حبك كقطة وهلم جرا . انتظر لحظة ! (يخرج)

المشهد الثاني

لوموف (وحده)

لوموف — اشعر بالبرد ... ان جسمي كله يرتجف ، كما هو شأن الطالب قبل الامتحان . المهم ان على الانسان ان يعزم . فهو اذا فكر طويلاً وتردد وتحدث بالامر اكثر مما ينبغي ، وهو اذا انتظر الشخص المثالي ، او الحب الحقيقي ، فانه لن يتزوج ابداً ... بر ! اشعر بالبرد ! ان ناتاليا ستيبانوفنا ربة بيت ممتازة ، ومثقفة ، وليست قبيحة ... فاي شيء احسن من ذلك اطلب ؟ ومع ذلك فاني من الاضطراب بحيث ان اذني ممتلئتان بالطنين (يشرب ماء) انني لا استطيع الا اتزوج ... فانا اولاً في الخامسة والثلاثين ، وهذه هي كما يقولون السن الخطرة . وثانياً انا بحاجة الى حياة طبيعية منظمة ... انني اشكو مرضاً في القلب ؛ وانا اشعر دائماً بخفق مستمر في قلبي ؛ انني نزق وغالباً ما اهتاج ... وها هما شفتاي ترتجفان ، وأشعر برعشة في جفني الايمن . على ان ما هو افظع من هذا ، ما يحصل لي في النوم ، فانا لا اكاد آوي الى فراشي وابدأ في النوم حتى احس بشيء ، تك ، يتحرك في جنبي الأيسر فجأة ، ثم يصعد الى كتفي ورأسي .. فاقفز كالمجنون ، وأمشي قليلاً ؛ ثم اعود الى النوم ، ولكن ما ان ابدأ في النوم حتى يعود هذا الشيء الى جنبي الأيسر : تك ! ويحدث ذلك عشرين مرة .

المشهد الثالث

ناتاليا ستيبانوفنا ولوموف

ناتاليا ستيبانوفنا (داخلة) — آه ! عجباً ! أهذا انت ! لقد قال لي البابا : اذهبي فهناك تاجر يريد بضاعة ! صباح الخير يا ايفان فاسيليفيتش !

لوموف — صباح الخير يا ناتاليا ستيبانوفنا المحترمة !

ناتاليا ستيبانوفنا — معـذرة ، ما زلت في وزرتي ، وانا لم اقم بالتواليت . إننا ننقي البازلاء لنجففها . لماذا تراك منذ وقت طويل لم تأت الى دارنا ؟ اجلس (يجلسان) اتريد ان تتناول الفطور ؟

لوموف — لا ، شكراً ، فقد سبق ان أكلت .

ناتاليا ستيبانوفنا — دخن ... هذه اعواد الثقاب .. ان الطقس رائع ، وقد هطل مطر

غزير شديد جداً حتى ان العمال لم يعملوا شيئاً طوال النهار ، كم عرمة حصدتم ؟ تصور انـي نزلت في المعمة وحصدنا البرية كلها ، ولست الآن فخوراً بذلك . فانا اخشى ان يفسد التبن . وقد كان خيراً لنا ان ننتظر . ولكن ما هذا؟ يخيل الي انك في ثوبك الرسمي ؟ اي تجديد هذا!هل انت ذاهب الى حفلة راقصة ؟ وبـين هلالين ، لقد زدت جمالاً .. حقـاً ، لماذا انت أنيق الى هذا الحد ؟

لوموف (مضطرباً) - الواقع ، ياناتاليا ستيبانوفنا المحترمة ... انني قد عزمت على ان ارجو منك ان تسمعيني ... بكل تأكيد ، ستصابين بالدهشة ، بل انك ستغضبين ..ولكنني .. (على حدة) اشعر ببرد فظيع !

ناتاليا ستيبانوفنا - ما هي القضية ؟ (هنيهة) هيا ، قل !

لوموف - سأحاول ان اكون موجزاً . تعلمين ياناتاليا ستيبانوفنا المحترمة ، انني منذ وقت طويل ، منذ طفولتي ، حصل لي الشرف بان اعرف اسرتك . إن المرحومة عمتي وزوجها اللذين ورثت منهما ارضاً كما تعلمين ، كانا يكنان دائماً احتراماً عميقاً لابيك والمرحومة امك . وقد كان يربـط بـين اسرتي لومـوف وتشوبوكوف اواصر دائمة من الصداقة ، بل نستطيع ان نقول بوجه من الوجوه ، اواصر من القرابة ! وانت تعلمين ان ارضي شديـدة الاتصال بارضك . واذا تفضلت وتذكرت فان « حقولي البقرية الصغيرة » تتاخم غابة البتول التي تخصكم .

ناتاليا ستيبانوفنا - اعذرني اذا قاطعتك : فانت تقول « حقولي البقرية الصغيرة » ، اهي حقولك حقاً ؟

لوموف - نعم ، انها حقولي ايتها الآنسة..

ناتاليا ستيبانوفنا - آه ! اية حكاية هـذه ! إن « الحقول البقرية الصغـيرة » هي لنا ، لا لك .

لوموف - بل هي لي ياناتاليا ستيبانوفنا المحترمة .

ناتاليا ستيبانوفنا - ان هذا لنبأ جديد علي ! كيف تكون هذه الحقول لك ؟

لوموف - كيف ؟ انني اقصد الحقول البقرية الصغيرة التي تقوم في الزاوية بين غابتـكم و « المستنقع » المحترق .

ناتاليا ستيبانوفنا - اجل ، اجل ، انها لنا .

لوموف - لا ، انك مخطئة ياناتاليا ستيبانوفنا المحترمة ، إن الحقول لي .

ناتاليا ستيبانوفنا - ماذا تقول يا ايفـان فاسيليفيتش ؟ امن زمن طويل اصبحت لك ؟

لوموف - كيف، من زمن طويل ؟ لقـد كانت دائماً على ما اذكر .

ناتاليا ستيبانوفنا - اما هذا ، فلا ، وارجوك المعذرة .

لوموف - ان هذا مسجل ياناتاليا ستيبانوفنا المحترمة . صحيح ان « الحقول البقرية الصغيرة » كان متنازعاً عليها في الماضي ؛ ولكن الجميع يعرفون الآن انها لنا . وليس في ذلك مجال للنقاش . تفضلي بالاستماع . لقـد اعطت جدة عمتي هذه « الحقول البقرية الصغيرة » الى فلاحي جد ابيك ، على سبيل الاستثمار المجاني ، ومن غير مدة محددة ، لأنهم طبخوا لها قرميـداً . ولقد استثمر فلاحو جد ابيك هـذه الحقول الصغيرة استثماراً مجانياً طوال اربعين عـاماً ، واعتادوا على اعتبارها حقولاً لهم . ولكن في زمن تحرير الرق ...

ناتاليا ستيبانوفنا - ليس الامر على ما ترويه إطلاقاً . كان جدي وجد جدي يعتبران ارضهما ممتدة حتى « المستنقع » المحترق . وبعبارة اخرى فان « الحقول البقرية الصغيرة » كانت لنـا . وليس في هذا مجال للنقاش . وانا لا افهم ما تقوله . بل ان ذلك لمزعج !

لوموف - لا بد من ان اريك صكـوك التسجيل ، ياناتاليا ستيبانوفنا .

ناتاليا ستيبانوفنا - الواقع انك تمزح ، او لعلـك تود ان تناكـدني !... اية مفاجـأة ! إننا نملك هذه الارض اكثر من ثلاثمئة عام ، وفجأة يأتي من يصرح لنا بانها لا تخصنا ! اعذرني يا ايفان فاسيليفتش اذا قلت إنني لا اصدق في ذلك اذني ... انـني لست متعلقة بهذه الحقول الصغيرة ، فمساحتها كلها خمسة فدادين ، وثمنها لا يزيد عن ثلاثمئة روبـل ؛ ولكن الظلم يثيرني . قل ما تشاء ، ولكنني لا استطيع ان اتحمل الظلم .

لوموف - ابتهل اليـك ان تعذريني ! ان فلاحي جد جدك ، كما سبق لي شرف القول ، صنعوا قرميداً لجدة عمتي . وارضاء لهم فان جدة عمتي ...

ناتاليا ستيبانوفنا - جدك وجدتك وعمتك... انا لا افهم شيئاً من ذلك ... كل ما افهمه ان الحقول الصغيرة هي لنا .

لوموف - انها لي ، ايتها الآنسة .

ناتاليا ستيبانوفنا - لنا ! سواء حاولت اثبات ذلك طوال يومين ، وسواء ارتديت خمس عشرة بذلة رسمية ، فانها لنا ، لنا ، لنا ! ... انني غير طامعة في املاكك ، ولكني لا اريد فقدان ملكي . فسر ذلك كما تشاء !

لوموف - لست بحاجة الى الحقول الصغيرة يا ناتاليا ستيبانوفنا ، وانما القضية قضية مبدأ . فان كنت راغبة في هذه الحقول ، فاسمحي لي بان أهبها لك .

ناتاليا ستيبانوفنا - أستطيع انا نفسي ان أهبك إياها : فهي لي ! ان هذا لعجيب حقاً يا ايفان فاسيليفيتش ! لقد كنا حتى اليوم نعدك جاراً طيباً ، صديقاً . لقد اعرناك ، في العام الماضي ، مدراسنا ، فاضطررنا بسبب ذلك الى الاشتغال في درس قمحنا حتى شهر تشرين الثاني ، وها أنت ذا تتصرف معنا تصرفك مع البوهيميين . انك تهدي الي ارضي الخـاصة . اعذرني اذا قلت ان هذا ما لا يفعله الجيران ؛ بل ان هذا في نظري وقاحة ...

لوموف - انني اذن ، في نظرك ، مغتصب؟ ايتها الآنسة ، انني لم اغتصب ابداً املاك غيري ، ولست اسمح لأحد بان يتهمني بذلك (يتجه بسرعة الى الابريق ويشرب) ان الحقول البقرية الصغيرة هي لي !.

ناتاليا ستيبانوفنا - هذا غير صحيح فهي لنا.

لوموف - بل لي !

ناتاليا ستيبانوفنا - غير صحيح وسأثبت لك ذلك! انني منذ اليوم سأرسل بالحاصدين الى هذه الحقول !

لوموف - ماذا ؟

ناتاليا ستيبانوفنا - اليوم بالذات ، سيقصدها حاصدو حقولنا .

لوموف - وسأطردهم واوجه اليهم...

ناتاليا ستيبانوفنا - لن تجرؤ !

لوموف - (واضعاً يده على قلبه) ان « الحقول البقرية الصغيرة » هي لي ! أتسمعين ؟ انها لي ؟

ناتاليا ستيبانوفنا - لا تصرخ ! ارجوك ! باستطاعتك ان تصرخ وان تبح صوتك في بيتك ، اما هنا فارجوك الا تتعدى الحدود !

لوموف - يا آنسة ، لولا هذا الخفق الشديد في القـلب ، ولولا ان عروقي لا تنبض في صدغي ، لكنت حدثتك بطريقة اخرى . (يصيح) ان « الحقول البقرية الصغيرة » هي لي!

ناتاليا ستيبانوفنا – بل لنا !

لوموف – بل لي !

ناتاليا ستيبانوفنا – بل لنا !

لوموف – بل لي !

المشهد الرابع

الشخصان نفسهما وتشوبوكوف

تشوبوكوف (داخلاً) – ماذا هناك ؟ لماذا تصيحان ؟

ناتاليا ستيبانوفنا – ارجوك يا بابا ان تشرح لهذا السيد من هو صاحب هذه « الحقول البقرية الصغيرة » : أنحن أم هو ؟

تشوبوكوف – يا فرخي الصغير ، ان الحقول الصغيرة لنا !

لوموف – ولكن عفواً ياستيبان ستيبانوفيش ، كيف تكون لكم ؟ كن انت على الاقل رجلاً عاقلاً . ان جدة خالتي قد سمحت لفلاحي جدتك بان يستثمروا مجاناً ، ولمدة معينة ، هذه الحقول ؛ وقد استثمرها الفلاحون طوال اربعين عاماً وتعودوها كما لو انها اراضيهم الخاصة ؛ ولكن في عهد تحرير الرق ...

تشوبوكوف – اسمح لي ، يا جوهرتي . انك تنسى تماماً ان الفلاحين لم يكونوا يدفعون شيئاً لجدتنا ، واشياء من هذا القبيل ، لان « الحقول الصغيرة » كان متنازعاً عليها في تلك الاثناء ، وهلم جرا . اما اليوم فان كل كلب يعرف من غير شك ان هذه الحقول لنا . أتراك لم تر المخطط ؟

لوموف – سأثبت لكم انها لي .

تشوبوكوف – لن تثبت شيئاً يا عزيزي .

لوموف – بلى ، سأثبت ذلك !

تشوبوكوف – لماذا تصيح هكذا ، يا امي الصغيرة ؟ الحق انك لن تثبت شيئاً بالصياح . انني لا ارغب في شيء من ماكك ، ولكني لا اريد ان اترك شيئاً من ماكي . ولماذا تريدني على ان اقدم هدايا ؟ ان كان الامر قد بلغ بك هذا المبلغ ، يا حبيبي ، وان عندك نية في ان تنازعني الحقول وهلم جرا ، فانني اوثر ان أهبها للفلاحين على ان أهبها لك ! وهكذا !

لوموف – لا ادري اي حق تملكه في ان تهدي ارض سواك ؟!

تشوبوكوف – الواقع ، ايها الشاب ، اني لم اتعود ان يخاطبني الناس بهذه اللهجة وهلم جرا . انني ابلغ من العمر ايها الشاب ضعف سنك ، وارجوك ان تتكلم معي من غير اهتياج ، واشياء اخرى مماثلة .

لوموف – كلا ، فانت تعتبرني بكل بساطة رجلاً أبله ، وتسخر مني ! انك تدعو ارضي ، ارضك ، وتريدني ايضاً ان اكون هادىء الأعصاب وان اتحدث اليك بصورة انسانية ! ان الجيران الصالحين لايتصرفون هذا التصرف ، ستيبان ستيبانوفيتش ! انت لست جاراً بل مغتصب !

تشوبوكوف – ماذا ؟ ما الذي قلته ؟

ناتاليا ستيبانوفنا – اسمع يا ابي : ارسل الحاصدين على الفور الى الحقول الصغيرة !

تشوبوكوف (للوموف) – ما الذي قلته يا سيدي ؟

ناتاليا ستيبانوفنا – ان « الحقول البقرية الصغيرة » لنا ، ولن اتنازل عنها ، ابداً ، لن اتنازل عنها !

لوموف – سنرى ذلك ! سأثبت لك امام القضاء انها لي !

تشوبوكوف – امام القضاء ؟ بوسعك ان ترفع الامر الى المحكمة ، واشياء اخرى مماثلة ! تستطيع ذلك ! فانا اعرفك ؛ وانت ستلتمس مبرراً لتقاضينا ، وهلم جراً ... انها طبيعة السوء والمماحكة فيك ! لقد كانت اسرتك كلها كذلك ! كلها !

لوموف – ارجوك الا تشتم اسرتي ! لقد كان الجميع في اسرة لوموف شرفاء ، ولم يكن فيهم واحد حكم عليه بالتبذير كما كان شأن خالك .

تشوبوكوف – كان الجميع في اسرة لوموف مجانين !

ناتاليا ستيبانوفنا – كلهم ! كلهم ! كلهم !

تشوبوكوف – كان جدك يشرب حتى يفقد وعيه ، وأصغر عماتك ، ناستازيا ميخايلوفنا ، اذا شئنا الا نسميها ، قد هربت مع مهندس ، وهلم جراً .

لوموف – ولقد كانت امك شوهاء (يرفع يده الى قلبه) آه ... وخز في جنبي .. إنه يطرق في رأسي ... حقولي الصغيرة ! اعطوني ماء !..

تشوبوكوف – لقد كان ابوك مقامراً وشرهاً .

ناتاليا ستيبانوفنا – وكانت عمتك ثرثارة كبرى !

لوموف – آه ... بت لا اشعر بساقي اليسرى ... إنك دساس ... اوه ! يا قلبي ! وليس خافياً على احد ، بعد ، انك قد غششت قبيل الانتخابات ... انني ارى الف شمعدان ... اين هي قبعتي ؟

ناتاليا ستيبانوفنا – ان هذا منحط ! هذا غير شريف ! هذا قذر !

تشوبوكوف – وأنت انت بالذات منافق ومساوم . نعم يا سيدي !

لوموف – آه ! هذه هي قبعتي ... قلبي ... اين اذهب ؟ اين الباب ؟ اوه ... يخيل الي انني سأموت ... ان ساقي تتخاذل ... (يتجه الى الباب)

تشوبوكوف (من خلفه) – واياك ان تضع قدمك مرة اخرى في بيتي !

ناتاليا ستيبانوفنا – ارفع الامر الى القضاء ، وسنرى !

(يخرج لوموف وهو يترنح)

المشهد الخامس

تشوبوكوف وناتاليا ستيبانوفنا

تشوبوكوف – ليذهب الى الشيطان (يسير مهتاجاً)

ناتاليا ستيبانوفنا – اي شقي هو ! وانت لا تزال تؤمن بالجيران الصالحين !

تشوبوكوف – انه فزاعة للعصافير !

ناتاليا ستيبانوفنا – اي شيطان ! لقد اغتصب ارضاً ، وهو يجرؤ بعد ذلك على الثرثرة .

تشوبوكوف – وهذا المجنون الأعمى يجرؤ ايضاً على ان يتقدم بطلب ، وهلم جراً . هيه ! طلب !

ناتاليا ستيبانوفنا – اي طلب ؟

تشوبوكوف – عجباً ! لقد اتى يطلبك للزواج ؟

ناتاليا ستيبانوفنا – يطلبني ... للزواج ؟.. لماذا لم تقل لي ذلك من قبل ؟

تشوبوكوف – وقد ارتدى من اجل ذلك بذلته الرسمية !

ناتاليا ستيبانوفنا – من إجلي انا ؟ طلب زواج ؟ آه ! (تسقط على مقعد وتئن) إجعله يعود ، ليعد ، ليرجع !

تشوبوكوف – من يرجع ؟

ناتاليا ستيبانوفنا – بسرعة ! بسرعة ! اكاد اصبح مريضة ! الحق به وأعده ! (تأخذها ثورة عصبية)

تشوبوكوف – ماذا ؟ ماذا دهاك ؟ (يأخذ رأسه بين يديه) إنني شقي . سأقتل نفسي ! سأشنق نفسي ! انهم يعذبونني !

ناتاليا ستيبانوفنا – انني اموت ! أرجعه !

تشوبوكوف – اية مصيبة هذه ! (يبصق) على الفور ، كفاك هذياناً ! (يخرج)

ناتاليا ستيبانوفنا (وحدها ، تئن منتحبة) – ما الذي فعلناه ! اعده ! أرجعه !

تشوبوكوف (عائداً وهو يركض) – انه راجع على الفور ، وهلم جراً . ليأخذه الشيطان ! اوف تحدثي اليه انت نفسك ؛ اما انا بالذات ،

فلست أحرص على ذلك !

ناتاليا ستيبانوفنا (مهمهمة) - أرجعه !

تشوبوكوف (صائحاً) - قلنا لك انه عائد ! اية مصيبة يا آلهي في ان يكون احدنا اباً لفتاة كبيرة ! سأقطع عنقي ، وسأكون مجبراً على ذلك ! لقد شتم واسيء اليه ، وطرد .. وانت التي فعلت ذلك كله ... انت !

ناتاليا ستيبانوفنا - لا ، بل انت !

تشوبوكوف - انها اذن غلطتي بالذات ؟! (يظهر لوموف على الباب) حسناً ... كلميه انت نفسك ! (يخرج)

المشهد السادس

ناتاليا ستيبانوفنا ولوموف

لوموف (يدخل بادياً عليه الارهاق الشديد) - ان قلبي يخفق خفقاً مريعاً ... لقد فقدت استعمال ساقي .. وانفي جنبي وخزاً مؤلماً ..

ناتاليا ستيبانوفنا - اعذرنا يا ايفان فاسيليفتش ، فلقد استبد بنا الغضب ... لقد تذكرت الآن : فالحق ان « الحقول البقرية الصغيرة » هي لك .

لوموف - ان قلبي يخفق خفقاً مريعاً ... حقولي الصغيرة ... عيناي تتحركان ...

ناتاليا ستيبانوفنا - إن الحقول الصغيرة هي لك ... لك ... إجلس . (يجلسان) لقد اخطأنا ...

لوموف - القضية قضية مبدأ ، فأنا لست متعلقاً بالارض ... انها قضية مبدأ ...

ناتاليا ستيبانوفنا - صحيح ، المبدأ ... إذن ، لنتكلم بشيء آخر .

لوموف - لاسيما ان عندي أدلة . إن جدة خالتي قد اعطت لفلاحي جد ابيك ...

ناتاليا ستيبانوفنا - كفى ... كفانا حديثاً عن ذلك ... (على حدة) لا أدرى كيف ابدأ ... (للوموف) هل انت ذاهب قريباً الى الصيد ؟

لوموف - تقصدين صيد ديكة الخلنج ، يا ناتاليا ستيبانوفنا المحترمة ، اعتقد اني سأبدأ حالما يحصد القمح . اه ! هل تراك سمعت هذا ؟ تصورى اية مصيبة لحقت بي ! إن كلبي « اوغاداي » ، الذي تعرفينه دون شك ، يعرج !

ناتاليا ستيبانوفنا - يا للأسف ! ولماذا ؟

لوموف - لا ادري ... لا شك بان رجله قد عثرت ، او ان الكلاب الاخرى قد عضته ... (يتنهد) انه خير كلابي ، من غير ان اتكلم عما كلفني إياه من نفقات . لقد اشتريته من ميرونوف بمئة وخمسة وعشرين روبلاً .

ناتاليا ستيبانوفنا - لقد إشتريته غالياً جداً ، يا ايفان فاسيليفتش !

لوموف - اما انا فاعتقد انه رخيص . انه كلب رائع !

ناتاليا ستيبانوفنا - لقد اشترى ابي كلبه « اوتكاتاي » بخمسة وثمانين روبلاً ، وأوتكاتاي خير من كلبك اوغاداي !

لوموف - اوتكاتاي خير من اوغاداي ؟ اتظنين ذلك ؟ (يضحك) اوتكاتاي هو خير من اوغاداي !

ناتاليا ستيبانوفنا - بالطبع ، خير منه ! صحيح ان اوتكاتاي اصغر سناً ، وانه لم ينضج بعد ، ولكن ليس هناك خير منه ، فيما يتعلق بالشكل والمشية ، حتى بالنسبة لكلاب فولتشانيستكي .

لوموف - المعذرة يا ناتاليا ستيبانوفنا : انت تنسين ان فكه قصير ، والكلب ذو الفك القصير كاب ضعيف دائماً .

ناتاليا ستيبانوفنا - انني اسمع هذا للمرة الاولى ! فكه قصير !

لوموف - اؤكد لك ان فكه الاسفل اقصر من فكه الأعلى .

ناتاليا ستيبانوفنا - وهل تراك قد قسته ؟

لوموف - قسته ... إنه يصلح لمطاردة الفريسة ، ولكني اشك في ان باستطاعته ان يقبض عليها ...

ناتاليا ستيبانوفنا - ان كلبنا اوتكاتاي هو اولاً ذو شعر طويل ؛ وهو ثانياً ابن زابرياكي وستامسكا ؛ اما كلبك ، فلا نستطيع ان نحدد عرقه ... ثم إنه هرم وبشع كالبغل ...

لوموف - هرم ! .. الحق اني لا اقبل بدلاً عنه خمسة كلاب من طراز كلبكم اوتكاتاي ! اهذا ممكن ؟ اوغاداي كلب ، واوتكاتاي ... ان من المضحك ان نقارن بينهما . ان كل قائد لكلاب الصيد يملك مثل كلبك ؛ وثمنه لا يزيد عن خمسة وعشرين روبلاً .

ناتاليا ستيبانوفنا - إن شيطان المناقضة يركبك اليوم يا ايفان فاسيليفتش . فقد تصورت اولاً ان الحقول الصغيرة هي ملكك ، ثم ذهبت الى ان اوغاداي خير من اوتكاتاي . وانا لا احب ان اسمع الناس يقولون ما لا يؤمنون به ... فانت تعرف تماماً ان اوتكاتاي يسوى ٥٠٠ مرة كلبك ... السخيف اوغاداي . فلماذا تقول عكس ذلك إذن ؟

لوموف - ارى يا ناتاليا ستيبانوفنا انك تعتبرينني اعمى او سخيفاً . مع انك تدركين جيداً ان كلبك اوتكاتاي ذو فك قصير .

ناتاليا ستيبانوفنا - هذا غير صحيح !

لوموف - ان فكه قصير !

ناتاليا ستيبانوفنا (صائحة) - هذا غير صحيح !

لوموف - لماذا تصيحين يا آنسة ؟

ناتاليا ستيبانوفنا - لماذا تنطق بالسخائف ! ان هذا مثير ؟ لقد آن الاوان لتطلق على اوغاداي طلقاً نارياً ، ومع ذلك ، فانت تجرؤ ان تقارنه باوتكاتاي .

لوموف - اعذريني ، لا استطيع ان اواصل هذا النزاع . ان قلبي يخفق ...

ناتاليا ستيبانوفنا - لقد لاحظت ان اكثر الصيادين مناقشة هم اقلهم فهماً في الصيد .

لوموف - أرجوك يا آنسة ان تصمتي ... ان قلبي ينفجر ... (يصرخ) اصمتي !

ناتاليا ستيبانوفنا - انا لن اصمت ما لم تعترف بان اوتكاتاي هو خير مئة مرة من كلبك اوغاداي !

لوموف - انه اردأ منه مئة مرة ! وليمت كلبك اوتكاتاي ! .. صدغاي ... عيني ... كتفي ...

ناتاليا ستيبانوفنا - لا حاجة لكلبك الحمار ان يموت ، فهو عجوز ...

لوموف (باكياً) - اصمتي .. لقد اصبت بانفجار في أم الدم !

ناتاليا ستيبانوفنا - انني لن اصمت !

المشهد السابع

الشخصان نفسهما وتشوبوكوف

تشوبوكوف - ما القضية ، مرة اخرى ؟

ناتاليا ستيبانوفنا - قل يا بابا ، بكل صراحة ، اي الكلبين أفضل : كلبنا اوتكاتاي ام كلبه اوغاداي ؟

لوموف - ابتهل اليك يا ستيبان ستيبانوفيتش ، لا تقل الا هذا : هل فك كلبك اوتكاتاي قصير ام لا ؟ قل نعم أو لا ؟

تشوبوكوف - وما اهمية ذلك ؟ الحقيقة انه ليس في المقاطعة كلها خير من كلبنا .

لوموف - ولكن بكل صراحة ، ان كلبي اوغاداي خير منه !

تشوبوكوف - لا تهتج يا جوهرتي ... اسمح لي ... ان لكلبك دون شك مزاياه . انه عريق الاصل ، صلب القدمين ، جميل الجنبين ، وهلم جراً . ولكن لهذا الكلب ، اذا اردت الحقيقة ، نقيصتين رئيسيتين : انه هرم ، وان فقمه قصير .

لوموف - المعذرة ، ان قلبي يخفق ...

لنستشهد بالوقائع ! تذكر ان كلبي اوغاداي كان ينافس زازماخاي ، كلب الكونت ، في حشائش « ماروسين » ، بينما كان كلبك متخلفاً الف متر !

تشوبوكوف – لقد ظل متخلفاً لأن قائد كلاب الكونت ضربه بسوطه .

لوموف – وكان ذلك لسبب ! كانت جميع الكلاب تلاحق الثعلب ، بينما كان اوتكاتاي يلاحق خروفاً !

تشوبوكوف – ليس هذا صحيحاً ياسيدي! انني نزق يا عزيزي ، ولذلك ارجوك انتقطع هذا النزاع . لقد ضربه لأن كل انسان يغار من كلب سواه . اجل ! كل انسان يغـار ! وانت نفسك ياسيدي ، هل انت بلا خطيئة ؟ انك ما تكاد تلاحظ ان كلباً هو خير من كلبك اوغاداي حتى تبدأ بقول كذا وكيت واشياء اخرى مماثلة ... الحق انني اتذكر كل شي!

لوموف – وانا ايضاً أتذكر !

تشوبوكوف (مقلداً اياه) – «وانا ايضاً اتذكر ! » وما الذي تتذكره ؟

لوموف – إن قلبي يخفق ... وساقي ترفض الحركة ... لا استطيع ...

ناتاليا ستيبانوفنا (مقلدة اياه) – « ان قلبي يخفق ... » اي صياد انت ! انك غير جدير الا بان تبقى مضطجعاً امام موقد المطبخ تسحق الصراصير ، لا ان تطارد الثعالب . « قلبي يخفق ! »

تشوبوكوف – صحيح .. فاي صياد انت؟ ان خفقات قلبك تقتضيك حتما ان تلازم البيت ، لا ان تنطنط على ظهر فرس ! وليتك مع ذلك كنت تصطاد ! انك لا تذهب الى الصيد الا لتناقش وتمنع كلاب الآخرين وهلم جراً ! .. لقد استخف بي الغضب ! فلندع هذا ... فالواقع انك لست صياداً على الاطلاق !

لوموف – وانت ... هل انت صياد ؟ انك لا تذهب الى الصيد الا لتفاخر امـام الكونت وتدبر المكائد ... آه ! يا قلبي ! انك دساس !

تشوبوكوف – ماذا ؟ أأنا دسـاس ! (يصرخ) إخرس !

لوموف – دساس !

تشوبوكوف – سوقي ! مخاط !

لوموف – وأنت جرذ هرم ! يسوعي !

تشوبوكوف – إخرس وإلا قتلتك ببندقية رديئة ، كما يقتل الحجل ! أيها الحقير !

لوموف – الجميع يعلمون أن ... أوه ! يا قلبي ... ان امرأتك كانت تضربك ... يا ساقي ... ياصدغي ... انني ارى الف شمعدان . انني انهار ، اسقط !

تشوبوكوف – وانت ... انت تحت حذاء وصيفتك !

لوموف – هكذا ! انتهى الامر ... لقد انفجر قلبي ! وانفصلت كتفي ... اين هي كتفي ؟ انني اموت (يسقط على مقعد) طبيب! (يغمى عليه)

تشوبوكوف – جاهل ! ابله ! طفل رضيع! سخيف ركيك ! أشعر بالالم (يشرب ماء) انني في حالة سيئة !

ناتاليا ستيبانوفنا – أي صياد انت ؟ انك لا تحسن حتى امتطاء الحصان ! (لأبيها) ماذا دهاه يا بابا ؟ انظر اليه يا بابا ! (تطلق صيحات) يا ايفان فاسيليفتش ! لقد مات !

تشوبوكوف – انني في حالة سيئة !.. إن انفاسي قد انقطعت ... اريد هواء !

ناتاليا ستيبانوفنا – هل مات ؟ (تشد لوموف من كمه) يا ايفان فاسيليفتش ! يا ايفان فاسيليفتش ! ما الذي ارتكبناه ؟ لقد مـات ! (تسقط في مقعد) طبيب ... طبيب ! (ثورة اعصاب)

تشوبوكوف – أوه ! ماذا هنـاك ؟ ما الذي تريدين ؟

ناتاليا ستيبانوفنا (مهمهمة) لقد مات !... لقد مات !...

تشوبوكوف – من الذي قد مـات ؟ (ينظر الى لوموف) لقد مات حقاً ! يا الـهي! يا الـهي ! ماء ! طبيب ! (يدني كأساً من فم لوموف) اشرب ... لا ... إنه لا يشرب ! وهذا يعني انه مات ، واشياء اخرى مماثلة ! اني اشقى بني البشر ! لماذا لا اطلق على رأسي رصـاصة وأنتهي ؟ لماذا لم اقطع رقبتي حتى اليوم ؟ ما الذي انتظره ؟ اعطوني سكيناً ! اعطوني مسدساً !

(لوموف يتحرك) انه يبعث من جديد ، على ما أظن ... اشرب ماء !.. حسناً ...

لوموف – إنني ارى الف شمعدان . . وارى ضباباً ... اين انا ؟

تشوبوكوف – تزوجا باسرع وقت ممكن .. وليأخذكما الشيطان ! انها توافق ... (يضم يد لوموف الى يد ابنته) انها توافق ، واشياء اخرى مماثلة ! انني اباركما وهلم جراً ... ولكن اتركاني وشأني !

لوموف (ناهضاً) ماذا ؟ من ؟

تشوبوكوف – انها توافق ! هيا تعانقا ، واذهبا الى الشيطان !

ناتاليا ستيبانوفنا (تهمهم) أهو حي ؟ نعم ، نعم ، اوافق ...

تشوبوكوف – تعانقا وليقبل احدكما الآخر !

لوموف – ماذا ؟ من ؟ (يعانق ناتاليا ستيبانوفنا) لذيذ جداً ... المعذرة ! ماذا هناك؟ اه ! انني اتذكر ... قلبي ... الف شمعدان... انني سعيد ، يا ناتاليا ستيبانوفنا (يقبل يدها) انني لا أشعر بساقي !

ناتاليا ستيبانوفنا – وانا ... انا ايضاً سعيدة .

تشوبوكوف – اوف ! انني اشعر بالعبء يخف عني !

ناتاليا ستيبانوفنا – ولكن ... مع ذلك... يجب ان تقر الآن بان اوغـاداي هو اردأ من اوتكاتاي !

لوموف – بل هو افضل منه !

ناتاليا ستيبانوفنا – بل اسوأ !

تشوبوكوف – ها هي السعادة الزوجية تبدأ ! هاتوا شمبانيا !

لوموف – بل افضل !

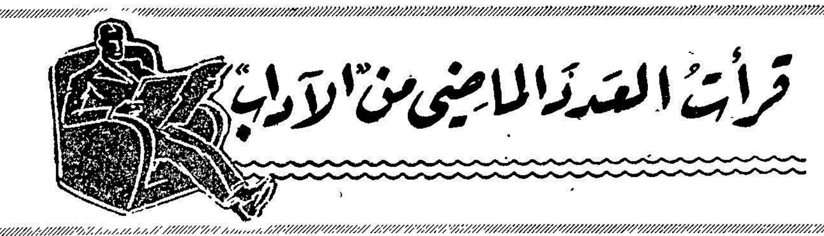
ناتاليا ستيبانوفنا – بل اسوأ ! اسوأ ! اسوأ !

تشوبوكوف (محـاولاً ان يصيح بصوت اكثر ارتفاعاً) – شمبانيا ! شمبانيا !

ستـار

نقلها عن الفرنسية

سهيل ادريس



بقلم
عبدالله عبد الدائم

اول شيء حاولته بعد الانتهاء من قراءة العدد الماضي من الآداب أن التمس الاتجاه الغالب الذي يسيطر عليه ، وأن أكتشف من خلال ذلك شيئين : النهج الذي تسلكه « الآداب » في تخير موضوعاتها ، ثم ضروب الاهتمام الفكرى التي تسيطر على اذهان الكتاب العرب . ذلك أن « الآداب » أرادت ان ترسم لنفسها منذ البداية خطة تهديها وتهدي كتابها . ومهما يكن التمسك بخطة مرسومة في مجال الأدب امراً عسيراً ، فما لا شك فيه أن كتاب « الآداب » وقراءها يشعرون بأن هنالك اموراً يحسن أن تكتب للآداب وللآداب خاصة ، وأن إلى جانبها أموراً اخرى لا تدخل في إطار « الآداب » . وأعتقد ان الذين يكتبون اليها تزورهم اثناء الكتابة في كثير من الاحيان نظرات أصحاب « الآداب » وتهمس في اذانهم وسوسات روحها العامة . وإن هذا لعمري شيء ذو بال ، يدل على « نوعية » خاصة تتصف بها هذه المجلة الناشئة ، ويدل على ان الكتابة في بلادنا بدأت تتجمع في « مدارس » و « نزعات » ، وان المجلات أخذت تعي رسالتها الحقيقية.

والحق ان من الجدير بالاعتبار ان نرى عند قراءة العدد الماضي من الآداب ، وعند قراءة كثير من أعداد الآداب الاخرى ، ان ثمة ما يشبه الوحدة في الموضوعات التي تعالجها . فالقسم الأكبر من مقالات العدد الماضي مثلاً ينصب حول مشكلة اساسية ، هي تحديد الغاية من النقد الأدبي ومن الكتابة : إذ نقرأ فيه كلمة مترجمة بعنوان « ما هو النقد ؟ » وكلمة اخرى بعنوان « تذوق الأدب » ، وثالثة بعنوان « المسؤولية في الأدب » ، ورابعة بعنوان « رمادية الرواية الحديثة » ، وخامسة بعنوان « الامتاع الخادم في الفن والادب » ، وكلها تدور تقريباً حول موضوع واحد هو تحديد رسالة الأديب والغاية من الأدب ، والتزامه او عدم التزامه ، وشروط النقد الأدبي الخ ...

وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فهي تدل اولاً على تأثر كتاب « الآداب » بما أثارته منذ البداية من مشكلات تتصل بالالتزام في الادب وبالنقد الادبي ؛ وهي تدل ثانياً على اشتغال أذهان المثقفين في البلدان العربية بهذه المشكلة مشكلة الأدب وغاياته ، وعلى شعورهم بأن الأدب المرجو في بلادنا ينبغي ان يكون أدباً محدد الغاية والرسالة . وهم بهذا يبينون ان بلادنا دخلت في مرحلة التنظيم ووضع الخطط في كل شيء ، ولم تعد تؤخذ بالهبوات العابرة والصدف السائرة . غير أننا على إكبارنا لهذه الظاهرة ، نرى ان كتابنا و « آدابنا » قد غالوا فيها . ولعلي بدأت أفضل أن يكتب هؤلاء الكتاب « آثاراً » ويبدعوا « نتاجاً » على ان يتحدثوا كثيراً عن شروط الاثر الجيد والنتاج الحسن . لقد تحدث « فاليري » في حفل عن معنى الرقص وقيمته وشروطه ، وختم محاضرته بأن قدم للجمهور الراقصة « ميراندا » (فيما اذكر) لتجد في رقصها ما يغني عن كل ما قاله .

ومع ذلك لا أريد أن أنحي كثيراً على المكثرين من الحديث عن النقد الأدبي في بلادنا ، فنحن نفتح أعيننا من جديد على مشكلات النقد الحديث وما نزال في حاجة إلى زاد غزير منه . كما لا اعتب على « الآداب » كبير عنايتها بهذه الناحية ، فأول رسالة المجلات النقد . وكل ما ارجوه ألا يطغى الاشتغال بالنقد على الاشتغال بالابتكار ، وقد افضل ان يكون النقد نقداً لاثر معين ، بدلاً من ان يكون حديثاً عن الشروط العامة التي ينبغي ان تتوافر في أثر ما .

كذلك من الأمور التي تجلب النظر في العدد الماضي وحدة الروح التي نجدها في القصص التي احتواها . فهي كلها تقريباً تتحدث في بعض المشكلات الاجتماعية وتحاول ان تسلك مسلك ادب الالتزام ، بالمعنى الضيق لهذه الكلمة ، حتى ان هذه الغاية كثيراً ما تفسد عليها الروح القصصية وتجعلها تضحي بفن القصة في سبيل فرض بعض الافكار ورسم بعض التوجيهات . وهنا ايضاً نجد ان كتابنا القصاصين في حاجة إلى حرية اكبر في كتابتهم : إنهم في حاجة الى ان يهبوا لاشخاص رواياتهم حرية التصرف بحيث لا يشعروننا بأنهم يخلقونهم خلقاً ويقسرونهم على ان يدخلوا في قالب معين .

أما الشعر في ذلك العدد فهو أكثر إخلاصاً لرسالته وجولاته . على اننا نجد فيه ايضاً طابعاً غالباً ، هو طابع الشعر الحديث ذي القافية المتنوعة والوزن الحر . و« الآداب » في هذا تشق دون شك طريقاً نحو شعر جديد قيم ، وتحسن انتقاء الاشعار وتخيرها .

أما ابواب المجلة الأخرى ، كباب نقد النتاج الجديد وباب المناقشات وباب النشاط الثقافي في الغرب والعالم العربي وباب « قرأت العدد الماضي من الآداب » فهي من الأمور التي تدل على ذوق المجلة وحسن تنسيقها وقوة تجديدها وأخذها بالأسلوب الحديث في تنظيم المجلات الأدبية . ولا شك ان المجلة تحسن كثيراً اذا تابعت عنايتها بهذه الابواب واحلتها المحل اللائق في عملها .

على اننا لا نود الاسترسال في هذا الحديث العام عن العدد الماضي ، رغبة منا في افساح المجال للحديث عن كلمات المجلة على انفراد . ولهذا فلن ندعي اننا وفينا هذا الحديث العام حقه ، وحسبنا ان ذكرنا أهم ما فيه .

١ ـ الكلمات

دفتر الغزل لامين نخلة ، بقلم مارون عبود

في هذه الكلمة ينتقد الاستاذ مارون عبود الديوان الذي أصدره الشاعر الكبير أمين نخلة باسم « دفتر الغزل » . وهو يأخذ على الشاعر فيه أول ما يأخذ مقدمته التي قدم بها لهذا الدفتر والتي أفسدت عليه ديوانه في رأيه . ففي هذه المقدمة ، كما يصورها لنا الناقد ، اعتماد كبير على الدعاوة في ترويج البضاعة . ويمتاز نقد الكاتب لهذه الناحية بالصراحة الجميلة ، وينبىء عن رغبة مشكورة في أن يترفع الأدباء عن مثل هذه الدعاوات التي تشبه دعاوات الأميركان في الإعلان . ويتهكم تهكماً موفقاً على شهادة لشوقي في شعر أمين ، اعترف له فيها

بولاية العهد في حلبة الشعر ، وساواه فيها بابن هاني بل غلّبه عليه .

ثم ينتقل الناقد إلى بعض قصائد الديوان وينقد بعض أبياتها نقداً صائباً ، كما يطري بعض القصائد الأخرى . ويأخذ على الشاعر بوجه عام طابع العبسة في غزله ، ولا سيما اذا قورن بغزل الأخطل الصغير . ويختم كلامه بقوله : « لولا سخف شوقي وطمع أمين في الولاية ، لظل لهذا الديوان أبهته ووقاره. ولكن الطمع ضر وما نفع » .

ولا نكتم الأستاذ مارون عبود أن في حملته على شوقي خاصة بعض السرف ، وأنه يتجنى عليه أكثر مما ينبغي حين يصفه بالسخف ، أوحين يشير إليه إشارته إلى « شاعر مجنون » أطراه « الشعراء وعظموه وأمّروه حتى تعنفص وتفايش » .. فهذه ايضاً « ثخينة » ، على حد تعبير الناقد نفسه .

على أن الكلمة تمتاز في جملتها بما يمتاز به أسلوب كاتبها عامة من فصاحة فذة وأسلوب غنيّ بالتضمين والشواهد . إذ يطفح مقاله بالعبارات المأخوذة من أقوال الأدباء والشعراء القدامى ، مفصحاً بذلك عن ثقافته العربية الغزيرة :

«فاستطاع وأتته الزعامة منقادة»

« لقد بشمت ثعالب البشرية »

« أو أنه يغمز ابن الفارض من بعيد » مشيراً إلى كرميته

« وضمنا عصي الحاضر المتخيم »

« لكل خطاب يا بثين جواب » الخ ...

كما يمتاز أسلوبه احياناً بتفضيل بعض الكلمات الفصيحة الشائعة في اللغة العامية مما يهب لكلامه رشاقة وظرفاً :

« وهذه ايضاً ثخينة يا أمين »

« وكثيراً ما يقعدها غصباً عن رقبتها »

« لتعود حليمة الى عادتها القديمة »

« الماء لا يمر على عطشان »

« طيب » « فلنمش » ...

والكلمة عامة خفيفة الظل ، فيها حياة وحركة ، وفيها صياغة فنية منمنمة .

ما هو النقد ، بقلم جوليان باندا

لعل هذه الكلمة من الأشياء القليلة التي يجيد فيها جوليان باندا وهو الذي قلما يحلّق في أكثر ما يكتب . وفيها يدعو إلى التفريق بين دراسة الأثر الفكري وبين دواسة مؤلّفه ، وينحي باللائمة على أولئك الناقدين الذين يعنيهم في نقد الأثر الأدبي الحديث عن مؤلّفه . ويتمنى لو تقرأ الآثار كأنها وجدت من غير مؤلف ومن غير توقيع ، ويحمل على تلك النزعة التي سرت إلى الأدباء عن طريق « سانت بوف » وأمثاله ، نعني نزعة الاهتمام بتكوّن الأثر ، بدلاً من الاهتمام بالأثر المتكوّن .

وفي حملته هذه كثير من الصحة ورغبة في المطامنة من غلو الغالية من الناقدين الذين يغريهم الحديث عن صاحب المؤلّف أكثر من الحديث عن المؤلّف نفسه ، والذين ينحدرون في هذا المنزلق السهل ، منزلق البحث عن ولادة الأثر الأدبي ومخاضه في نفس صاحبه . غير أن الكاتب يغلو بدوره حين ينكر تقريباً أثر هذه الدراسة « التوليدية Génétique » في فهم النتاج الأدبي حين يدعي « أن التفكير في الحياة ليس هو إطلاقاً الامتداد الطبيعي للحياة ، ولكنه نشاط من نوع آخر ». والواقع أن فهم الأثر لا ينفصل في كثير من الاحيان عن فهم ولادته في نفس صاحبه ، وهو بذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخاض النفسي ، ومن الصعب فصل المؤلّف عن صاحبه.

ومثل هذا الغلو نجده في حديث الكاتب عن صلة المؤلف بعصره وموقف الناقد من هذه الصلة . فهو يرى ، كما يرى « دوساموسات » أن « على الناقد الحقيقي أن يبحث عن

الحقيقة وهو ينفصل عن حبه وكلفه بعصره » ، وألا يكون له وطن أبداً ، « وأن يرتفع الى الحقيقة من فوق حبه لوطنه وأمته » . وهو يخلط فيما نعتقد بين ارتباط الكاتب بأمته وعصره وبين مسايرته لأهواء الجماهير . فنحن معه تماماً حين يطلب إلى النقد أن «يحصّن القيمة الحقيقية للآثار من أهواء الجماهير » ؛ ولكن هذا شيء ، وارتباط الكاتب بأمته وعصره شيء آخر .

وجملة القول إن كلمة « باندا » تتصف برغبة في الاتيان بمفارقات للمألوف ، أي بما يسمونه في الفرنسية Paradoxes . وهو يوفق في بعضها ، غير أنه يفرض بعضها الآخر فرضاً مصطنعاً .

تذوق الادب ، بقلم عز الدين إسماعيل

يستخدم الكاتب في هذا المقال بعض مقاييس علم الجمال للحديث عن شأن الذوق في الحكم على الآثار الأدبية ، وعن العلاقة بين رضا الانسان عن الشيء وبين جمال هذا الشيء في ذاته ؛ بين نفور المرء من الشي وبين قبحه . ويحاول ان يفرق بين تذوق الشيء ، وبين جماله ، وأن يقيم للجمال نوعاً من الوجود الخاص المستقل عن حكم الحاكمين عليه وتذوق المتذوقين له ، أي نوعاً من الوجود المتعالي ، على حد تعبير الفلاسفة . ويبين ان الذوق مبدئياً شيء ذاتي نسبي ، وانه لا ينفصل عن إدراكاتنا وإحساساتنا وذكرياتنا وتقاليدنا وتكويننا الفكري والنفسي والجسماني ، وأن اختلاف الاذواق بالتالي ليس راجعاً الى الاشياء المحكوم عليها دائماً . ويزيد في إيضاح المسألة حين يفرق بين محتوى الاثر الفني وبين شكله ، او بين مادته وصورته ، على حد تعبير أرسطو ؛ وحين يبين ان الذوق يكون ذاتياً أو نسبياً عندما ينصب الحكم الجمالي على المحتوى فقط ؛ اما الشكل فهو في معزل عن الأحكام الذاتية . ولهذا ينتهي الى القول بوجود قواعد عامة في الاحكام الجمالية ، هي هذه القواعد المتصلة بشكل الاثر لا بمضمونه . ومن هنا يقول بنوعين من الذوق ، ذوق عام هو الذي يختلف بين الناس ، وذوق خاص هو الذي يحكم على شكل الاثر الفني ويظفر باتفاق بين الجميع كما تظفر قواعد اللغة في العبارة اللغوية . ويدعو هذا الذوق الاخير باسم الذوق الجمالي الصرف : ومهمته تبين الجمال الخالص في الشيء ، وتقديره بحسب قواعد عامة (كالانسجام والتناسق والتوزيع والنظام والعلاقـات الخ ...) وهو لا يتيسر الا لمن ملك خبرة وثقافة فنية .

ولا شك ان هذا التحليل الذي يأتي به الكاتب تحليل قوي يثير مشكلة هامة من المشكلات البديعية . غير أنه في رأينا لا يخلو من تبسيط المشكلة أي مما يدعونه في الفرنسية simplisme . وهذا التفريق الذي يورده بين المضمون والشكل تفريق يظل صنيعاً وإن يك مفيداً لتوضيح المشكلة وتيسيرهـا ككل تقسيم وتبويب . والكاتب بعد ذلك يقع في شيء من الغموض حين يفرق بين النشاط الحسي والنشاط العقلي في إدراك الاثر الادبي وحين يعتبر النشاط الحسي مسؤولاً وحده عن ذاتية احكامنا ، بينما يعتبر النشاط العقلي نشاطاً موضوعياً خالصاً ... أو ليس في هذا التقسيم ايضاً صنعة وكلفة ؟

المسؤولية في الأدب ، بقلم أحمد زكي

في هذه الكلمة الطيبة ، على إيجازها ، حديث عـن تلك المشكلة الكبرى ، مشكلة الالتزام في الأدب . وبعد أن يلقي الكاتب نظرة تاريخية على هذه المشكلة ويبين مـا في كتب الأدب العربي من إشارات ذكية إليها ، ومـا في الآداب الأجنبية من كبير اهتمام بها ، ينتقل إلى مناقشة نظرية الفن للفن ، مبيناً أنهـا ليست شراً كلها ، كما أنها لا تقف ضداً لدعوة الالتزاميين . اذ يرى أن الفن نفسه حين يكون خالصاً لوجه الفن لا يخلو من الالتزام ، عندما يصدر عن فنان كبير حقاً . ويميل اخيراً إلى التوفيق بين الاخلاص للفن والمحافظة على سلامة المبادىء الجمالية وبين الالتزام الاجتماعي ؛ ويرى أن خير التزام هو ما صدر عن نفس الأديب ، وما تبع من تحسسه الفني العميق بمشكلات مجتمعه ، أي ما صار جزءاً من تكوينه العقلي والوجداني ، فانطلق عفوياً غير مقتسَر .

ولا شك أن المقال يضع المشكلة في نصابها الصحيح ، غير أنه يظل في الواقع مقصّراً عن شأو هذه المشكلة الجبارة . ولا نكتم الكاتب أن هـذه الأحكام التوفيقية التلفيقية éclectiques ، على ظهورها أحياناً بمظهر الرشاد والسداد ، لا تصل دوماً إلى التوفيق بين الفُرقاء وجمع الشمل بين الخصوم .

البحتري والدراسات الاستشراقية ، بقلم صالح الأشتر

في هذه الكلمة الموجزة ، يتحدث الكاتب عن أمر طالما شغله ودبّج من أجله رسالته للدكتوراه ، نعني حظ البحتري من دراسات المستشرقين . ويبيّن خير بيان أن البحتري أثار اهتمام المستشرقين مؤلفاً ومؤرخاً ، ولم يفز باهتمامهم كشاعر كبير . إذ عنوا خاصة بكتاب « الحماسة » الذي جمعه ونهج فيه نهج استاذه أبي تمام ، وأهملوا الحديث عن عبقريته الشعرية . ويعلل هذا الأهمال بعوامل ثلاثة : أولها أن الطبعات الثلاث لديوان البحتري مشحونة بالأغلاط التي تفسر مقاصد الشاعر وتجعل فهمها عسيراً . والعامل الثاني أنهم لم يجدوا في البحتري مجدداً أسهم في امتداد المحاولات الجريئة التي ظهرت على يد بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وغيرهم من المجددين ؛ بل وجدوا فيه وأستاذه أبي تمام مناوئاً لهـذه النزعات وداعيـاً إلى الكلاسيكية الجديدة في الشعر العربي . والعامل الثالث أن أجمل ما في فن البحتري موسيقاه الشعرية الساحرة وديباجته الشهيرة . وإدراك مثل هذه المزايا عسير على الاذن الأعجمية .

ونعتقد أن العامل الأول والثالث لا يكفيان في الواقع لصد المستشرقين عن دراسة البحتري . ولعل العامل الثاني هو

العامل الأهم . وعند ذلك تغدو المشكلة مشكلة قيمة شعر البحتري ، لا مشكلة إهماله من قبل المستشرقين .

رمادية الرواية الحديثة ، بقلم محيي الدين محمد

يصف الكاتب في هذا المقال الرواية الحديثة بأنها رمادية محايدة ، بمعنى انها تصف الحياة العادية وصفاً محايداً بما فيها من عظائم وتوافه . ويحمل على الرواية الكلاسيكية العادية لانها تقف الموقف المقابل ، إذ تعنى بتكوين العقدة القصصية قبل كل شيء وبحلها حلاً مرتجلاً في النهاية ، كما تفرض على ابطالها سلوكاً مقيداً لا يفلتون فيه من عالم القاص ليعودوا إلى عالم الحياة المطلق الحر. وهكذا تنعقد الروابط بين اجزاء الرواية الكلاسيكية انعقاداً غثاً متكلفاً ، والقاع فيها (إن صحت ترجمة كلمة Background بهذه الكلمة) مستعبد لمضمون القصة لا يخرج عنها ليلاقي مضمون الحياة .

ومن أجل هذا يصف الرواية الكلاسيكية بأنها لا تعرف طابع الصدق غالباً ، لانها لا تعرض علينا صوراً ووقائع يمكن تلمسها في حياتنا الترابية ، في حياة البشر العادي المنغمس في حمأة الارض والوحل والطين . بينما يطري الرواية الحديثة التي تصدق مع الحياة وتعرض لنا جميع صورها مهما تبد مبتذلة ، ولا تترفع عن تحديثنا عن مرور قط أو عن غسل البطل يديه بعد الطعام ، وعن كل تلك الامور العادية التي قد نسميها حشواً ...

والكلمة دقيقة وعميقة ، ودفاع كاتبها عن فكرته دفاع موجه عنيد . ومثل هذا الدفاع العنيد يهب لافكاره قوة ووضوحاً ، شأن جميع الآراء المتمذهبة . غير انه في الوقت نفسه يوقعه فيما يقع فيه اصحاب وجهات النظر القاطعة من تضخيم للامور وعرض كاريكاتوري لها احياناً . فهل صحيح ان العقدة في روايات امثال بالزاك وفلوبير وديكنز تحل في نهاية الكتاب بارتجال سخيف ؟ وهل حوادثها دوماً من صنع القاص وخلقه ؟ وبعد ، هل هناك من حرج في ان يتعرض صاحب الرواية الى جانب من جوانب الحياة الانسانية فيقف عنده ويطيل فيه التحليل ، فيغرق مثلاً في وصف الطابع القاتم في الحياة ، او في وصف الطابع الضاحك ؟ أفلا يلبي مثل هذا العمل حاجة غير التي يلبيها الوصف الحيادي العادي ؟ أفلا يجعل من الرواية شيئاً انسانياً كبيراً ؟ بل هل من الصحيح ان اكثر ما في الروايات الكلاسيكية بعيد عن عالم الحياة ؟ أو ليس كثير من الاشخاص الذين تحدثنا عنهم تلك الروايات اشخاصاً يمكن ان يوجدوا احياناً ؟ بل اننا نجد ، خلافاً لما يقول الكاتب ، أناساً كدون كيشوت نفسه ، وان كانوا قلة . فدون كيشوت يمثل اولئك الحالمين المستيقظين الذين يتصورون العالم على نحو ما يريدون ، ويتخيلون ما في اذهانهم قائماً في الاعيان . وهذه النزعة نزعة معروفة في عالم النفس ، ويدعوها بعض العلماء اليوم باسم « البوفارية » نسبة الى بطلة رواية فلوبير « السيدة بوفاري » . ثم من قال لنا إن الحياة « لا لون لها » ، كما يذكر الكاتب ، وانها لا تتصف بسواد بودلير ولا ببياض بروست ؟ أو ليست تحتوي جميع هذه الالوان مصطرعة متناقضة ؟ وهل يؤدي اصطراع ألوان الحياة إلى لون حائل باهت ؟ وان من العجيب ان يعود الكاتب ، بعد وصفه للحياة هذا الوصف الحائل ، الى الحديث عن الطعم الحريف لحياتنا . فهل يتفق الطعم الحريف مع الطعم العادي الباهت؟

الحق ان الكلمة ، على اعجابنا بها وبالثقافة التي تثوي وراءها ، ماتزال في حاجة الى فضل من الدقة . إنها واحدة من كلمات قد تغري بطابعها الحاد « غير الرمادي » وقد تجد لها انصاراً متحمسين لحماسة كلماتها وإحكامها القاطعة ، ولكنها تقع فيما تقع فيه الاحكام القاطعة من روعة وضعف في الوقت نفسه .

الامتاع الخادم في الفن والأدب ، بقلم الجندي خليفة

هذا المقال دعوة إلى الالتزام ، إلى أدب المجتمع ، مستوحاة من واقع البلاد العربية الأليم . وفيه يبيّن الكاتب أن الجمال الفني يمكن أن يتحقق في وصف مآسي المجتمع وحياته ، وأنه لا يتحقق فقط في الانتاج الفني الخالص لوجه الفن .

فالكاتب القدير يستطيع « أن يخلق من ملاحظة المشردين والمرضى والفقراء ، ومن تلك الجثث التي استشهدت في سبيل الكرامة والفداء أروع إمتاع فني إلى جانب الخدمة العامة » . ولهذا كان تحقق الامتاع في الفن وحده لا يكفي ، وكان من الواجب أن يكون هذا الامتاع خادماً للمجتمع .

والكلمة في مجموعها تنبيء عن معاناة حية لمشكلة الالتزام في الأدب ، يستمدها الكاتب من أحاسيسه القومية الفنية وشعوره المعذّب بآلام أمته العربية :

« هذا المجتمع الواسع المتعذب ، هذه الألوف التي تشرد وتهاجر وتموت جوعاً وبرداً ومرضاً ، ثم هذه الروح التي لم تستكن وإنما ظلت طامحة مؤمنة بكفاحها ، إن كل ذلك

جدير بأن يعين المنبع الغزير الذي يجب أن يغمس فيه قلم الأديب وريشة الرسام وآلة الموسيقار ... »

٢ـ القصة

اعقاب السكاير بقلم موريس كامل

انها قصة معذب من « نفايات » هذه الحياة ، لا يعرف اسم ابيه ، ويعيش حياته في حقد وقلق ، ويحاول ان ينسى بعض آلامه عند ابنة الحان ، فتزداد آلامه ويعيش عيشة انسان ينتحر . ويصور له الشقاء أشباحاً وأخيلة ، ويتوهم صديقه « كوستا » في ليلة من ليالي التشراب « كائناً يشبه قهراً رجلاً لوث امه وتركه هو نفاية في الدنيا ، عقباً من اعقاب السكاير لا اسم له » فينهال عليه ضرباً ويكاد يقتل دون ان تكون له رغبة في القتل كصديقه « هرشو » من قبله .

والقصة جميلة في جوها وسبكها . اما موضوعها فاقرب إلى وصف نفس رجل بائس منه الى موضوع قصة غنية بالحوادث .

نصيب ، بقلم الآنسة سميرة عزام

هي قصة فتاة من بنات المدارس ، تصطدم مع مفاهيم محيطها ، ومع رواسب هذا المحيط في نفسها ، ولا سيما في أمر الزواج ونصيب النصيب فيه .

والقصة موفقة ، تصور تصويراً واقعياً حياً حياة كثير من الفتيات في مجتمعنا . وكل من عرف منا مثل هؤلاء الفتيات المثقفات ، بتعبير ادق ، يستطيع ان يرى في القصة تصويراً دقيقاً حقيقياً لواقعهم . ووصفها لاحاسيس الفتاة المتعلمة ولما تتطلبه في زوجها وصف موفق جميل ، كوصفها لمطالب الزوج الغني البعيد عن الثقافة .

وكم يعجبنا في القصة ذلك التساؤل تطلقه الفتاة عند خطبة الغني لها : « لم اختارها بالذات ؟ » : « إن رصيدها عادي ، توسط في الشكل والمظهر ، وليس هنالك ما يبهر . وغيرها من هن احلى » .

وكم يعجبنا جوابه على مثل هذا السؤال :

« تريدين الحق ؟ لقد تعبت من النساء . وقلت سأختار زوجتي بطريقة تقليدية .. إنني اخشى البضاعة المعروضة » .

أليس في هذا كله تصوير دقيق لما يجري في الواقع ؟

ثم نحن نجد هذا التصوير الواقعي حين تقبل الفتاة ذلك الغني زوجاً لها ، لان عصفوراً في اليد خير من عشرة في الشجر . ونجده عندما تتحدث بينها وبين نفسها عن ودها لابن عمتها وحين تجيب نفسها أن امثال ابن عمتها لا يمكن ان يصلحوا ازواجاً .

انسان ، بقلم بدر نشأت

قصة جميلة في اسلوبها وعرضها ، غير ان موضوعها متكلف مقتسر . انها تتحدث عن الجوع الكافر وما يخلقه في نفس صاحبه من ميل الى السرقة بل والى الاجرام . وتتحدث عن حياة المتعبين الكادحين . غير ان هذا الحديث كله لم يأت ضمن قصة تصهره في جوها وتظهره كنتيجة طبيعية لحوادثها . ان الفكرة هنا سابقة على القصة ، بل قاتلة لها .

تحت الحرير ، بقلم مطاع صفدي

وهذه ايضاً قصة تحتل الفكرة المكان الأول منها وتطغى فيها أحياناً على فن القصة . غير ان الفكرة هذه المرة فكرة غنية قوية مترعة بالثقافة الفلسفية الجيدة ، وبالمعاناة الحية لبعض حقائق مجتمعنا وحياتنا السياسية . والروح الغالبة عليها هي روح وجودية . وهذه الوجودية تأخذ فيها شكلاً فلسفياً لائقاً لا شكلاً ادبياً مبتذلاً .

« ان يكون الانسان **لغاية** ، كأن يكون كتاب **لمعنى** كأن تكون شجرة لموسم ، فذلك ما يجعل الحياة لائقة بعظمة الأمل الذي يبتدعه كائن تكاد تثقب الآفاق عيونه » .

« أن ينبثق عمري الضحل القديم كله في **حادثة صارخة حاسمة** ، اعددتها أنا بوعي **وحريتي** الخاصة » .

« ليس بالنسبة **لغيري** كما أؤمن به **أنا** » ..

« وما أنا إلا تكرار »

« أليس الحب ايضاً اعادة ؟ »

« كان بالنسبة لي **شيئاً** من أشياء الدار ، قطعة من الاثاث أما الآن فهو اشبه بالزوبعة **يكشف** عني ... حتى ثيابي »

«أحد السبل الناجعة لأن يكون الفرد **صنع إرادته**»

والكاتب موفق في عرض هذه الافكار وصياغتها صياغة جميلة ، كما انه موفق حين يستخلص من هذه الروح الوجودية معاني النضال والبطولة ، فيرد بذلك على من يحملون كل روح وجودية معنى الانحلال والخور والضعف .

غير ان القصة تظل كما قلنا أضعف من الفكرة . وبعض الاحاديث فيها لا تخلو من استطراد وكلفة . على أنها تظل قصة عالية الافق ، مما يغفر لها بعض نقائصها . ونعتقد أن صاحبها ممن يرجى لهم شأو سامٍ في هذا الميدان .

٣ً ـ الشعر

خمسة دنانير ، لعبد الرحمن رباح الكيالي

قصيدة قوية في فنها ، قوية في معناها . وأجمل ما فيها تلك البحور التي تبدأ طويلة ثم تتضاءل وتنطفىء . والمقارنة موفقة حيّة بين تلك المعلمة في مخيم الكرامة التي تتقاضى دنانيرها الخمسة وبين ذلك الطبيب الوسيم الجميل الذي يبني متعته من عذاب البشر وقصوره من اكواخهم :

نعض الصلاب ونحني الرقاب ليرقى إلى ناطحات السحاب
ألوف تغص بمر الشراب ليسقى الطبيب الرحيق المذاب

وانتظرني ، لفدوى طوقان

قصيدة رائعة ايضاً كسائر قصائد فدوى طوقان في فنها الشعري ولحنها الروحي . والبحور فيها كذلك مبتكرة جميلة والتصريع مبتدَع .

العودة ، لكمال نشأت

أبيات سمتها الرشاقة واللحن الخفيف . والكلمات فيها واضحة ليس فيها قلق أو غموض . والقوافي مطمئنة راسخة .

طريق ، لعبد العزيز خاطر

قصيدة طويلة ، فيها شطحة ثرة من شطحات الشعراء ، ووثبة من وثبات خيالهم . وهي تذكرنا بمخاطبة كثير من الشعراء لآلهة الشعر والفن وتعشقهم لتلك الموحيات الملهمات من الإلاهات جبل بارناس والاولمب .

حنين ، لسمير صنبر

لحن مليء بالحنين حقاً ، فيه رقة نادرة ، وفيه أسىً مذاب :

أنشدي اغنيتي خلف الهضاب
كلما الغصن انحنى .
ليواسي أرضنا .

المشردون ، لعلي الحلي

قصيدة تصف حال المشردين بعد طوفان دجلة في بغداد وفي نغمها وجرس ألفاظها جلال كجلال الطوفان ، يذكرنا بوصف النابغة للفرات . وهي قوية في معناها ، قوية في لغتها المختارة ولحنها المعبّر .

الفرقة الفدائية الاولى ، لعصام عبد علي

قصيدة بين الشعر والشعر المنثور . فيها لحن جميل مسايرٌ لموضوع القصيدة . وفيها ثورة حانقة على معاقل الاستعمار في الوطن العربي .

في سوق العبيد ، ليوسف الخطيب

قصيدة قومية جميلة ، تعج بروح الثورة ، ثورة العربيّ الصادق على مفاسد مجتمعه . والقافية فيها جميلة الوقع ، فيها رنين وفيها اسىً . واختيار السكون في جميع القوافي اختيار موفق . والاكثار من قافية « النون » بارع معبّر . افلا تتجلى الثورة مع الاسى في هذه « النون » المرنان التي تطفح بالأنين ؟

دمشق **عبدالله عبد الدائم**

الأديب والدولة والمجتمع

بقلم عبد الحليم عباس

يجفل الاديب العربي – في الوقت الحاضر – من حديث هذه الواجبات التي له ، او التي يصور البعض انها له في ذمة الدولة يقتضيها الوفاء سدادها والقيام بها ، والا كانت متجنية على الادب ، ظالمة لأهله .

يجفل الاديب منها على الرغم من أن الادب العربي القديم يجلوها له على احلى صورة وافتن منظر ، فهي حيناً جوارٍ وجواهر ، وهي حيناً آخر ، فضة وذهب ، وارضون وقصور ، وخيول مطهمة ، ودواب فارهة ، وما شاء الحظ وما شاءت ساعة رضى السلطان .

واذا ما اردنا ان نتعرف على اسباب هذه النفرة التي يلقى بها الاديب العربي حديث هذه الواجبات ، فسبيلنا الى ذلك ان نبحث في هذه الصلة التي كانت قائمة بين الأدباء والشعراء منهم بوجه خاص ، وبين رجال الدولة في العصور العربية القديمة .

لقد كان رجال الدولة ، وفي مجتمع كالمجتمع العربي القديم ، باشد الحاجة الى عون الأدباء ليثبتوا لهم الأمر ، ويلموا من حولهم الاتباع والانصار ، فهم اداة التعبير التي لا يستغني عنها حاكم او ذو سلطان . ففي عصري القوة ، الأموي والعباسي مثلاً ، لم يكن الامر خالصاً للأمويين او العباسيين ، وانما كانت هنالك طوائف من الناس ، ترى ان الحق في الملك والسلطان لغير هذين البيتين ، وكانت بسبب ذلك تثور الفتن ، وتراق الدماء ، واذا ما هدأت الغائرة ، وسكنت الفتنة اقبل الناس – الذين هم قوام المجتمع – على بعضهم يتساءلون لمن الحق ، ومن هي الفئة الباغية ، وهنا يجيء دور الادباء ، كل يبرر ان اصحابه على الحق وان من عداهم هم اهل البغي والعدوان .

وقد يهون الامر ، لو ان ما ينطق به هؤلاء الادباء ، وما يجيء في اشعارهم وآثارهم كان هو الشيء الذي يعتقدون ، فهم هنا اصحاب فكرة يدافعون عنها ، مهما كان مقدار الخطأ والصواب فيها ، فلا خوف ولا ضير منها ما دامت غير متأثرة الا بضمير قائلها ، ولكنهم كانوا يقولون ما لا يعتقدون ، ويروجون للرأي الذي لا يرتأون .

يطلب أبان الشاعر ، من أصحابه البرامكة – وقد كان علوي الرأي والهوى – ان يوصلوه الى الرشيد ليأخذ كما يأخذ غيره من الشعراء الذين يترددون على بابه ، فيقولون له ولكنك لا ترى رأي اولئك الشعراء فلا تهجو العلويين ، ولا تشنع عليهم ، فيستغفر الله ، ان يقترف هذا الاثم . ولكنه في اليوم التالي ، يغدو عليهم ، بقصيدة يشجب فيها دعوى العلويين في طلب الخلافة ، ويقول بملء صوته ، دونما وازع من حياء او دين :

نشدت بحق الله من كان مسلماً	أعم بما قد قالته العجم والعرب
اعم رسول الله اقرب زلفة	اليه ام ابن العم في رتبة النسب
وايهما اولى به وبعهده	ومن ذا له حق التراث بما وجب
فان كان عباس احق بتلكم	وكان علي بعد ذاك على سبب
فابناء عباس هم يرثونه	كما العم لابن العم في الارث قد حجب

وقد باعد الزمن بيننا وبين الحماسة للعباسية والعلوية ، وما اليهما ، غير اننا الم نستهول لهذا البعد الاثم الذي في القصيدة فاننا ولا شك نستهول كيف يهون الرأي على صاحبه الى هذا الحد ، فينسى رأيه ، وينسى معه خلقه وانسانيته ، فيقول الشيء الذي لا يعتقد ، ويثني على ما حقه عنده الهجاء .

هذا مثل واحد وليس – أبان – بدعاً في الشعر العربي ، وانما هو كل الشعراء الا من رحم ربي ، وقليل هم . بل لقد بلغ الامر عند الشعراء الكبار ، ان يثنوا الثناء الذي ما فوقه ثناء على شخص بعينه ، ليعودوا اليه بعد ذلك ، فيلصقوا به كل نقيصة يتعفف المرء عن ذكرها ، وكل ذلك والشخص لم يتبدل ولم يتغير ، وانما الذي تبدل وتغير العطاء ، اوالواجب الذي للشاعر عند صاحبه ، فقد منع ومن حقه ان يعطي ، او قلل ومن حق الشاعر ان يجزل فيه ، يفعل كل هذا الشاعر الكبير ولا يرى فيه اثماً او حرجاً . بل هو يذكر لك دونما مواربة او حياء ان العطاء هو السبب في ذلك ، كأنما يراه العذر الذي يفي بكل هذا الذي يصنعه .

هذا طرف من حديث

« ليس لنا عند الدولة من حق ، غير الحقّ الذي نحقّقه نحن ، والواجب الذي نأخذه ، شاءت ام ابت ، وهو الحرية والاستقلال الفكري . الحرية في ان نقول ما نشاء ، وان ندعو الى الرأي الذي نرى ، مستقلين غير متأثرين إلا بما نعتقد انه الحق ... واذا ابت الدولة بعد ذلك إلا ان تساعد الادب ، فلها ان تفعل ذلك وتقوم به كما تقوم باي عمل اجتماعي آخر ، لا تُطالب ولا ينبغي لها ان تطالب حتى بالشكر ، لأن هذا واجبها والسبب في وجودها . »

الواجبات والصلات التي كانت تقوم بين رجال الدولة والادباء وهي صلات عادت بالخير على الادباء ، ووفرت للكثير منهم الحياة المنعمة ولكنها بذاتها جارت على الادب ، وكان من آثارها هذا التراث الضخم من شعر الفحش والنفاق ، والذي لا مثيل له في وفرته ،وبعده من الصدق في آداب الامم الاخرى.

ولا شك ان الوضع الاجتماعي والاقتصادي السائد في الدول العربية ، على اختلاف اسمائها وعصورها ، هو الذي حمل الاديب على سلوك هذا الدرب ، فلم يكن من الممكن ان يعيش الاديب العيشة التي تساعده على ان ينتج ادباً ، الا اذا استظل في ظل امير او وزير، او بيت ذي ثراء ، فقد كان القارئون قلة وكانت هذه القلة بين هذه الطائفة المنعمة صاحبة الامر والغنى ، فكلما كانت هي مضطرة الى الادباء ليساعدوها على الحق او الباطل ويذبون عنها الخصوم ، ويجمعون حولها الانصار ، كان اولئك الادباء مضطرين ايضاً الى السعي اليها ليعيشوا العيش الرخي . فلقد كانت مقاليد العيش بيدها إن شاءت اعطت وإن شاءت منحت ، وعدم العطاء يعني ان يعيش الشاعر العيش الانكد ، وما من اديب عربي اختار برضاه هذا العيش ، حاشا أبا العلاء المعري .

كان الادباء مضطرين الى هذا ، بحكم هذا الوضع ، فمن قصرت به الاداة او كبا به الحظ كما يحلو لادباء ذلك الزمان ان يقولوا ، عن اللحاق باهل الجاه والثراء قعد يندب حظه ويشكو زمانه بل يفعل اكثر من ذلك، يغدو عليهم متذللا، يشير الى بضاعته وانها من الصنف الجيد ، الذي لا يقل قيمة وجودة عن هذه الاصناف التي يجزلون لها الثمن .

وما اكثر هؤلاء الادباء الباكين الشاكين في الادب العربي ، والذين يقال عنهم انهم الطائفة التي ادركتها حرفة الأدب . وكلنا يعرف ان هذه ـ الحرفة ـ كانت تعني عند ادبائنا في مطلع نهضتنا هذه الفترة ، وان الاديب من صفاته ومستلزماته البؤس والفاقة ، ان لم يتداركه ، ويأخذ بيده ذو جاه او سلطان . فلقد كنا نردد مع بدوي الجبل ، امتعه الله بيومه، هذا البيت من الشعر:

خلق الشاعر والبؤس معاً فهما خلان لم يفترقا

وكانت مصر ، والعراق ، ترددان مع حافظ والرصافي رحمهما الله مثل هذا او امعن في الالم والشكاية .

ان الشاعر والبؤس لم يفترقا، ولا يقدران على هذه الفرقة، ولكن في التاريخ العربي القديم . اما اليوم فانهما قادران على هذا الافتراق، بل يجب ان يفترقا ولكن ، على غير النحو الذي كان في الماضي ، وهو التقرب والفناء في اصحاب الدولة. فالأديب العربي اليوم قادر على العيش بفضل أدبه ، او بفضل علمه ، فقد اخذ العلم يشيع من بين طبقات الامة ، ولم تعد مقاليد العيش بيد طائفة بعينها ، وانما العيش لكل الناس .

ومهما بلغ بنا التعصب لتاريخنا القديم فاننا لا نستطيع ان ننكر حقيقة هذا المجتمع الذي كان يعيش في ذلك التاريخ . فلقد كان مجتمعا فقيراً جاهلا وان وراء هذا النعيم والترف والعلم الذي نقرأ آثاره في عصور القوة ، كانت مأساة مجتمع يضم عشرات الملايين الذين لا يعلمون علما ، ولا يملكون شيئا . ولا ينقص من هذه الحقيقة ان ادباء العربية في ذلك الوقت لم يعنوا بها ، بله ان يروا ان من واجبهم ان يسعوا الى تبديلها، فهي موجودة على الرغم من التغاضي والاهمال ولا يحتاج الكشف عنها ، الا ان نضم هذه الاشارات العابرة التي تمر نادرا في التاريخ والأدب ، حتى نخلص الى حقيقة هذا المجتمع، ونرى صورته وهي مؤلمة ، فصورة الرشيد وبذخه وصورة المأمون وعلمه ، لا تخفيان صورة المجتمع المزوّية ، والذي يصف ابو العتاهية طرفا منها :

اني ارى الاسعار اسعار الرعية غالية
وارى المكاسب نزرة وارى الضرورة فاشية
وارى غموم الدهر را ئحة تمر وغادية
وارى اليتامى والارامل في البيوت الخالية
يشكون مجهدة بأصوات ضعاف عالية
من للبطون الجا ئعات وللجسوم العارية

أتراني قسوت على ادباء العربية القدامى ؟

قد يكون هذا ، ولكن في بحث كهذا يحتم الواجب ان نعرض قصة واجبات رجال الدولة نحو الادباء ، في الادب العربي على حقيقتها ، ونعرضها وحدها دون الالتفات الى ما عداها من الجوانب الحلوة الزاهية عند اولئك الشعراء ، ولا نستطيع التغاضي عن هذا الواجب لاننا نحن الادباء لا نزال نتأثر ، ونحن نقرأ الادب القديم ، ونتثقف به ، في حكايات هذه الصلات ، ولا يزال الواحد منا يسيل لعابه ، وتتفتح احلامه وهو يقرأ احاديث الاعطيات والمنح التي كان يأخذها الادباء ، وننسى في غمرة الشوق وما تبرقش الاحلام ، الثمن الذي كان يدفعه هؤلاء الادباء .

ان ادباء العربية اليوم ، لا يقبلون بمثل هذه الواجبات ، ولا يقبلون ان تقوم الصلة بينهم وبين اية طائفة من الناس

على النحو الذي كانت عليه هذه الصلة في الماضي القريب او البعيد . انهم يقولون للدولة ،لكل دولة ، ليس لنا عليك من واجب ، وليس لك عندنا من حق غير هذه الحقوق والواجبات التي تنتظم المواطنين جميعاً .

ان مأساة ادبنا القديم ، ومأساة ادبائنا القدامى ، لا تزال ماثلة امام انظارنا ومتمثلة في نفوسنا . فلقد فقدوا استقلالهم الفكري ، وفقد البعض منهم كرامته كانسان ،فكم واحد منهم سحب من مجلس ، على شكل اثار ضحك وسخرية الحاضرين ، وكم واحد رمي به في الماء للفرجة والتندر ، وكم واحد ضُرب ، وشُجّ جبينه ، ليتغنى بعد ذلك .

ان كان سركم ماقال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكم ألم

كان يُصنع بهم هذا ، وكان يصنع بهم اكثر من هذا ،ولا يغطي على هذه الحقيقة ما كان يتغنى به الشاعر في مدح نفسه ، والثناء على آبائه وانه اذا سيم الخسف أبى ، فقد كان يسام الخسف ولا يتأبى عليه ، ولا احسب ان فخر الشاعر بنفسه الا من اثر هذا الشعور الذي كشف عنه العلم الحديث ، وهو الشعور بالنقص ، فقد كان يشعر بهوان نفسه ، وهو يريق ماء وجهه ، ليعطى وليجزل له في العطاء .

ان البيوت العربية القديمة ، تقاسمت الشعراء ، وكانت تباهي وتلهو بهم كما تباهي بما تقتني من متاع ورياش . واذا وصل الامر الى هذا الحد ،وقد وصل ،فقد هانت رسالة الادب على صاحبها ، ويا شد ما هانت هذه الرسالة وضاعت في أبواب الشعر الخمسة ...

وصحيح اليوم ان رجال الجاه والسلطان لا يضربون الادباء ، وان الادباء انفسهم لا يقبلون بشيء من هذا ولا يحتملونه . وإن الامور قد تغيرت ، وابسط مظاهر هذا التغير هذا الشعور الذي يمتلىء به ضمير كل انسان، وهو ان الكل امام النظام سواء ، لا ميزة لاحد على احد . ولكن الخطر على الادب من قيام هذه الواجبات كرة اخرى هو هو ، فقد يحمل الادباء نتيجة لهذه الواجبات على مراكب صعبة يهون الضرب والرمي في الماء عندها ، فقد يطلب اليهم ، وقد يصنعون ،ان يحموا باطلاً وينفوا حقاً .

وكلنا يعرف الخطورة التي تجيء من الادباء اذا انحرفوا فقد يغررون بالجيل وينحرفون به عن الطريق الصحيح ، بما يملكون من اداة رهيبة ، فهم اللسان ، وهم البيان والتعبير وكفى . واذن أليس لنا عند الدولة من حق ؟!

نعم ، ليس لنا عندها من حق ، غير الحق الذي تحققه نحن والواجب الذي نأخذه شاءت ام ابت وهو الحرية. والاستقلال الفكري .

الحرية في ان نقول ما نشاء ، وان ندعو الى الرأي الذي نرى ، مستقلين غير متأثرين إلا بما نعتقد انه الحق ، وليست هذه فوضى ، فان اول ما يعرفه الاديب الحق ان حريته ليست مناهضة لخير المجتمع وأمنه ،وانما هي لخير المجتمع وأمنه.

واذا ابت الدولة بعد ذلك الا ان تساعد الادب لا الاديب فلها ان تفعل ذلك وتقوم به كما تقوم بأي عمل اجتماعي آخر لا تطالب ولا ينبغي لها ان تطالب حتى بالشكر لان هذا واجبها ، والسبب في وجودها .

وكما يشير الناس على حكوماتهم ، فيما ينبغي ان تصنع لخدمة المجموع واي المناحي هي التي تفتقر الى الخدمة ، وتحتاج الى المساعدة ، فكذلك يجوز للادباء ان يشيروا على هذه الحكومات ، ويدلوها على الانحاء الادبية ، التي تحتاج الى العون ،على ان يكونوا يقظين حذرين في ان لا تمس هذه حرية الاديب واستقلاله ، من بعيد او قريب ، وان تقتصر على مساعدة الادب فحسب دونما قصد او غاية غير القصد النبيل والغاية الكريمة وهي تدعيم الحركات الادبية ، وتوثيق اركانها. ولست اغالي اذا قلت ان هذا التدعيم والتوثيق لا يتأتيان الا اذا اعنا الادب العربي على هذه الحرية وهذا الاستقلال ، فلا تزال هنالك احلام من الماضي ، تنسل الى خيال الاديب العربي فتصور له من جملة ما تصور ان الحياة روضة وجدول يتغنى حالماً في ظلالها ، وعلى الناس بعد ذلك ان يعينوه على العيش . ولا بأس اذا ما ذكر هؤلاء بالخير بل هو لا بد ذاكرهم ، فمن الجحود ان لا يذكرهم .... ، واذن فقد قاربت ان تتكرر مهزلة الادب القديم ثانية ..

بقي علينا ان نبحث في الشق الثاني وهو :

واجب الاديب نحو المجتمع العربي

واشكر الجماعة القائمة على امر هذا المؤتمر والتي وضعت هذا الموضوع ، فقصرت الواجب على الاديب العربي ، نحو مجتمعه العربي ، ولم ترسله على اطلاقه ، بحيث تجعله عاما ،وهو واجب كل اديب نحو مجتمعه. فمما لا شك فيه ان وضع الأديب العربي ، يختلف عن وضع غيره من الادباء ، بقدر اختلاف المجتمع العربي عن غيره من هذه المجتمعات لا سيما التي استقرت منها.

ونحن هنا لا نستطيع أن نحدد هذا الواجب ، قبل ان نلقي شيئاً من الضوء على المجتمع العربي ، الذي يطالب ابناؤه - ومنهم الادباء - بضروب من الواجبات .

ان المجتمع العربي ، على اختلاف دياره ، وتباين اقطاره قد اخذ يعنف ويشتد في هذه الفترة الحاضرة من تاريخه ، في حركة تطوره التي بدأها في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ولقد تركزت هذه الحركة، في بادىء امرها، بالتخلص من الحكم الأجنبي ، وان تسلم البلاد العربية الى ذويها ، ليكونوا فيها السادة الحاكمين .

وشارك الادباء في ذلك ، وحث الشعراء الناس ، على المضي قدما في تحقيق هذه الغاية ، وقيلت القصائد التي الهبت شعور المواطنين ، والتي ما زلنا نتغنى بها حتى اليوم ، بل اكثر من ذلك كان الناس ، تحت حميا هذه العواطف اللاهبة ، يدخلون في حساب تقدير الادباء والشعراء ، هذا الحس والشعور ، فيعظم الاديب والشاعر بمقدار ما يثير الناس ، ويلهب عواطفهم ويغض من قدر انتاجه الفني ، اذا لم يستطع المشاركة في ارواء هذه العواطف ، او كانت مشاركته فيها فاترة .

وآتت هذه الحركة ثمراتها الطيبة ، فاستقل الكثير من الاقطار العربية ، وصحت البقية منها لتطالب بهذا الاستقلال ، واخذ الاستعمار يلفظ انفاسه فيما تبقى له من اركان في دنيا العرب الواسعة .

ولكن الاستقلال مطلب من المطالب ، وغاية من الغايات ، وليس هو في حياة الامم كل المطالب والغايات . فقد انزاح على اثره وبفضله ما كان يعترض النهضة العربية من سدود ، فتدفق العلم بعد ما كان حبيساً ، واضطرمت النهضة بمختلف صورها والوانها ، على مدى واسع لم يكن العرب انفسهم يظنون انهم بالغوه في هذا المدى القليل من الزمن ، وقد كانوا يرون بالامس وهم يتنزون بالقيود كيف يعطى اليهم العلم قطرة قطرة ، لم تكن تخلص من الكدر ، وكيف كانت تحبو نهضتهم حبواً تتعثر معه عند كل خطوة ، فتعقدت لذلك مشاكل المجتمع العربي تبعا لهذا التقدم والارتقاء ، كل هذا التعقيد الذي نراه .

فبعد ان كانت مشكلته القائمة ، هي التخلص من الحكم الاجنبي فحسب ، اصبحت له جملة مشاكل عديدة ومعقدة ، فمنها ما هو في الاقتصاد ومنها ما هو في السياسة ومنها ما هو في هذه المذاهب الاجتماعية القائمة في الدنيا ، الى آخر هذه المشاكل التي تقوم وتثبت في المجتمع المتحضر او الذي بدأ يتحضر ، ان كان لمشاكل هذه المجتمعات ، من آخر .

وما زال الاديب عند الناس كما كان ارفعهم صوتاً ، واقواهم تأثيراً ، فهو لهذا مطالب بأن يساهم في هذه المشاكل ، والدعوة الى حلها ، على الشكل الذي يتصور كل فريق في المجتمع أنه الاقوم والامثل .

وكما تشتد حركة تطور المجتمع العربي ، في متنوع صورها ومظاهرها ، فهي هنا تشتد على الادباء وتعنف ، فلا تزال تدعو الادباء ، وتلح في الدعوة ، في ان يشاركوا كما يشارك غيرهم من المواطنين في الدعوة الى حل هذه المشاكل القائمة .

ولكن اية دعوى يشارك الاديب فيها ؟؟ هذه هي المسألة كما يقولون .

ان المشكلة الواحدة، وما اكثر مشاكل العالم العربي اليوم ، لتتعدد الافكار - كما نرى - وتتضارب الآراء - كما نشاهد - في تحديدها ، وفي طريقة معالجتها ، فأي رأى يأخذ الاديب واي طريق يسلك ؟

ولقائل أن يقول ، ليأخذ الرأي الذي يعتقدانه الاصوب ، وليسلك الطريق التي يرى انها تفضي به الى الصواب ، وتفضي معه بالامة ، الى رحاب الخير ، ودنيا العزة والمنعة ومع ان الاديب سيسلك هذه ، ويأخذ بذلك الرأي ، ولكن قبل ان يفعل هذا ، يقف ليرى ان ما يفعله هنا ، هو مشكلة أخرى ، فان حركة التطور العربي في عنفها واشتدادها لا تعرف اللين والرفق ، فهي عنيفة على نفسها ، عنيفة على الاخرين . فالانسان الذي لا يرى رأي طائفة من الناس ليس هو كما في المجتمعات التي استقرت مخالفة لرأي الطائفة الاخرى ، له اجره ان اصاب او اخطأ بل هو في المجتمع العربي ، باصرح عبارة ، واوضح لغة ، خائن عند الفريق الذي لا يشايعه في الرأي والهوى .

اليس هذا واقع العالم العربي ، او واقع ادباء العربية اليوم ؟ اليس الاديب عند اهل اليمين ، اذا رأى رأي اهل اليسار ، اقل صفاته الخيانة ؟ اوليس هو عند اهل اليسار اذا لم ير رأيهم ، ويأخذ بقولهم شراً من هذا ؟ واين يقف ؟؟ افي المنتصف ؟؟ اذن فهو ، عند الطائفتين ، اهل لان ينعت بارذل الصفات .

وليست الدنيا يساراً او يميناً ، وانما لها جهات اصلية اربع ومثلها فرعيّة ، وبينها ما شئت من جهات اخرى ، وهذا هو الاديب عند كل مشكلة ، وفي كل جهة ، هو خائن أو شر عند كل فريق لا يأخذ برأيه ، ولا يرى الامر بعينه ، ولا

يقف وهو راغم في الجهة التي يقف عندها . **ومن تحصيل الحاصل بعد ذلك ، ان مشايعة الرأي والهوى اوشكت او هي على وشك ان تصبح القاعدة التي يرجع اليها ، في تقدير الادب ، وتقدير قيم الادباء ، حتى اصبح ادباؤنا الكبار ، يخشون ان يناموا فيصبحوا ذات ليلة ، واذا هم غير كبار ، لا لعلة الا ان اناساً قد بحثوا في ادبهم ، واطالوا البحث ، فعثروا من جملة ما عثروا عليه على رأي لا يرتأون ، ومذهب في الحياة والاجتماع والادب الخالص ، لا يذهبون اليه .**

اننا نريد لحركة نهضتنا وتطورنا ان تشتد ما وسعتها الشدة. لنلحق بالناس الذين سبقونا في مضمار الحضارة ،والزمن الحديث لا يحتمل التلكؤ والابطاء ، ولكننا لا نريد لها ، ان تفقد في هذه الحركة اتزانها ، بل نحن نسعى ما وسعنا السعي – لنجنبها ذلك ، مهما اتهمنا ومهما اوذينا في كرامتنا، فالخطر الذي ينجم من وراء ذلك بالغ الخطورة لا يقتصر امره على الادب ، وانما يتعداه الى الحركة ذاتها ، فقد تصاب بنكسة او تنحرف عن طريقها الصحيح ، فقد عانى كل مجتمع في فترة من تاريخه ، شبيهة بهذه الفترة من تاريخنا ما نعانيه نحن اليوم من بلبلة واضطراب ، ولكن هذه البلبلة لم تكن لتفقده صحة الحكم ،وان يقيس الامور بقياسها الصحيح، فلم يتهم فريق فريقاً بالخيانة والمروق ، لمجرد ان هواه لم يطابق هواه ، وان رأيه لم يجيء وفاق رأيه .

ففي حركات البعث والتحرير في الغرب،التي نقرأ آثارها ، الى يومنا هذا ، ونستمتع بها ، لم تكن طوائف الامة ، تقدر هذا الادب ، بمقياس المشايعة بالرأي والهوى وانما تقيسه بالمقاييس الفنية الصحيحة ، وليس من هذه المقاييس المشايعة بالرأي والهوى كما نصنع نحن مع ادبائنا .

واذا كان ادباء العربية لا يرون ان لهم واجبا في ذمة الدولة ، حرصا على استقلالهم وضمانا لحريتهم ، فهم حراص – كهذا الحرص او اشد – ان لا تدعي فئة من فئات الامة ان لها عليها حقاً في التوجيه ، فليس هذا باقل خطر على الادب من ذلك وليشتد كل فريق بعد هذا على الاديب الذي يخالفه بالرأي كما يحلو له ، لن يثني ذلك الادباء عن تحقيق حريتهم كاملة ، ولن يعود بهم الى الوراء ليمالئوا على حساب هذه الحرية ، وعلى حساب كرامتهم واستقلالهم .

واذا ما فرغنا من هذا ، واصبح واضحاً لدى الناس ، فلنا ان نقرر لهم ما يشعر به الاديب العربي ، نحو مجتمعه، في هذه الفترة التاريخية المميزة في تاريخه .

فالاديب مواطن كغيره من المواطنين ، وكما يحس هؤلاء المواطنون ، بمشاكل مجتمعهم يحس هو بها ، بل ان احساسه فيها لأعمق ، فهو رضي ام كره ، يشارك فيها ويصورها ويتلمس الحلول لها ، يفعل ذلك ، لا لان فريقا من الناس اراد له ذلك ، وانما لأن هذه المشاكل مشاكله الخاصة ، وهي بعد من الوفرة والكثرة والتعقيد بحيث تطالعه عند كل نظرة في احوال مجتمعه .

وهو يفضي بعد ذلك ، بالرأي الذي يراه الصواب والحق لا يخشى في سبيله ،قالة سوء ويا ماأهونها ولا مكروهاً يصيبه ويا شدّ ما تحمل الاديب مثله .

ان الحق هو مطلب الاديب الحق ..

ولسنا نغالىء احداً ، اذا قلنا ان النظر في مشاكل العالم العربي ، جزء من رسالة كل اديب عربي ، لان هذه المشاكل والمتاعب تتطلب لضخامتها ووفرتها عون كل مواطن وجهده والا فليس من المستغرب ولا من المستبعد ، ان تحطم كيان المجتمع العربي ، وتأتي عليه . بل ان بعض هذه المشاكل - ولا اقول كلها – يستهدف هذا التحطيم والقضاء على هذا المجتمع ، وهو شيء لم يتعرض لمثله مجتمع من المجتمعات لا في قديم التاريخ ولا في حديثه ، فان غاية الغزوة في القديم ، وغاية الحرب في الحديث نهب المجتمع المغلوب والسيطرة عليه،اماهي في المجتمع العربي اليوم ، فاكثر من ذلك ، انها اجلاء وافناء .

وعلى هذا فان الزام الاديب العربي بهذا الواجب ، لا يتنافى البتة مع حريته ،ويجب ان لا يرى الاديب شيئاً من هذا . فهو لا يستطيع كأنسان في مجتمع مهدد في كيانه ، ان ينعزل عن شؤون هذا المجتمع ، ليقول ان الامر لا يعنيني ، انه يعنيه ويعني ابناءه وذراريه هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ مجتمعه ، وان اول شرط لنجاح حركة تطور هذا المجتمع ان لا يكون مفكك الاراء ، مختلف الاهواء ، كل فريق ينزع الى هدف ويرمي الى غاية ، وليس هنالك من هم اقدر من الادباء على لمّ هذه النوازع وضم هذه الاهداف الى هدف واحد ، لتنطلق الامة اليه وحدة متماسكة .

وكما ساعد الادباء في مطلع نهضتنا على تركيز الهدف ، وهو اجلاء الغاصب فعليهم الان ان يشاركوا في تركيز الهدف ثانية وجمع الاراء والعزائم حوله .

واذا ما فرغ ادباء العرب من القيام بهذا الواجب الذي

لا بد من القيام به والذي تحتمه الفترة التاريخية ، كان لهم بعد ذلك اذا رغبوا – وهم راغبون – ان ينصرفوا الى اعمالهم الادبية الخالصة، فلهم ان ينظموا القصيد للقصيد وان يكتبوا القصة للقصة ، والمقالة للفكرة ، لا يهدفون الى غير ارضاء نوازعهم الفنية ولا يجوز ان يتصل نقد هذه الاثار بحديث النضال وقصة الكفاح ، فما كان ادب امة من الامم وقفاً على هذا الحديث وهذه القصة .

لقد شارك ادباء اليونان وادباء الرومان في القديم في حديث السياسة وحديث كفاح شعوبهم ولكنهم وضعوا بعد ذلك للاجيال الادب الذي ما زلنا نعيش عليه ، وهو لا يقارب حديث السياسة والكفاح .

وصنع مثلهم ادباء الغرب في فجر نهضاته الحديثة ، هذه النهضات التي كان يجيء الادباء في طلائعها روّاداً وقادة ، ولم تكن هذه الريادة والقيادة تجور على رسالة الادب الشاملة ، التي مهما اختلفنا في تحديدها فلا نختلف في ان منها ومن معناها تصوير الحياة والكشف عن حقائقها وتزيينها والعمل على ان تكون الطف واجمل . وهو معنى تشترك فيه جميع الفنون الرفيعة ، فاذا ما قصرنا هذا كله على ناحية واحدة من نواحي الحياة فقد ظلمنا الادب والادباء كثيراً ، وحملناهم ما لا يطيقون ولو كانت هذه الناحية كفاح شعب ونضال امة .

ان المجتمع العربي يضغط على ادبائه ، وليس اخطر على الادب من الاستجابة لهذا الضغط . فلا شيء اقتل للأدب من ان يصب في قالب واحد ليأتي على شكل بعينه فكأننا بهذا العمل قد الغينا جميع هذه المشاعر التي تزخر بها النفس الانسانية والتي لا حصر لها ولا حدّ لنقيم بدلاً منها شعوراً واحداً . ان هذا كذب على الواقع وتدليس على النفس الانسانية ، ولن يأتي معه في النهاية ادب حق ...

والادب الحق هو ما يحتاج اليه الادب العربي ليجدد شبابه ، وليمشي صعداً ليتبوأ هذه المنازل الرفيعة التي استوت عليها الاداب العالمية من قبل ...

*

والان وبعد هذا الذي ذكرنا نعود الى السؤال الذي يتردد على السنة المشتغلين في القضايا العربية ، وهو هل قام الادباء في حدود ما رسمنا بواجباتهم نحو المجتمع العربي ؟

نظلم الادباء اذا قلنا انهم لم يقوموا بهذا الواجب ونظلم المجتمع العربي اذا قلنا انهم قاموا به على اتمه . ولأمثل على هذا بمثل واحد وهو نكبة فلسطين – .. نزعم نحن العرب اننا اكثرنا القول فيها وان هذا القول يجب ان يتجسد بعد الان عملاً . والواقع اننا لم نقل شيئاً بعد ، اولم يقل ادباؤنا – على ما قاله البعض منهم – شيئاً بعد، فلم تنعقد حول هذه النكبة القصة الخالدة او الملحمة التي تمشي مع الخلود تحفز وتستثير الاجيال التي في ضمير الغيب . وقبل ان يقول ادباؤنا وشعراؤنا هذا واشباهه فلا يحق لهم ان يدّعوا قولاً او يزعموا مشاركة.

وهذا هو شأنهم في كل مشكلة عربية قائمة .

وان هذا هو ما تريده الاجيال العربية الحاضرة منهم، ومن اجل هذا تكاد في غمرة الاحداث ان تنتقص من اقدارهم وهي الكبيرة .

وقد يكون لادبائنا الكبار اعذارهم في هذا التخلف ، ولكنها اعذار لا تصمد الى منطق الجماعات التي ترى ان ظروف الامة القاسية تحتم جمع كافة القوى وحشد جميع الامكانيات .

واحسب ان ادباءنا الكبار قد مالت بهم السن الى الحياة الوادعة ، بعد ان عاشوا حياة الكفاح في شبابهم ، فهم يرون ان ناشئة الادباء اقدر واقمن بان تعيش الحياة التي سبق وعاشوها ، وان تؤدي القسط المحتوم من الواجب الذي ادوه هم ، فهم على هذا الحسبان قد ملّوا حياة المنافحة وجنحوا الى هذا الادب الخالص يطلعوننا على كنوزه ودرره .

وهي كنوز غالية ، ودرر ثمينة ، ولكنها لا تغني عن مشاركتهم في قضايا العروبة .

ان ادباء الشباب يقومون بالمشاركة المطلوبة ، ولكن قواهم الادبية محدودة ، وتأثيرهم غير بالغ . واين هي من قوى وتأثير هؤلاء الادباء الكبار الذين اصبحت حياة البعض منهم اشبه بالاسطورة ؟

واذا وضح هذا ، فقد وضح معه ان مشاركتهم حتمية تجيء مع الحق والواجب ومنطق الجماعات العربية ، وان لا شيء يسد مسدها او يغني غناءها .

فهل هم بعد ، ذاكرون هذا الحق والواجب والمنطق ؟

ان عليهم ان يذكروه ، وان على العالم العربي ان يذكرهم به كل وقت . ولا ملامة اذا جاء هذا التذكير عنيفاً بعض الحين .

عبد الحليم عباس
عن ادباء الاردن

مناقشات

إلى الأستاذ يوسف الشاروني

كنت علي وشك أن أكتب إلى الدكتور سهيل ادريس راجياً منه ان يعيد نشر مقالي « مفهومات في الانسان والفن » كرد على تعليقك عليه في العدد الماضي ، فلا خلاف بينك وبين الكاتب الذي دفعني كلامه يوماً إلى كتابة المقال . وقد عدت الى القضايا نفسها وعرضت لها بالفهم نفسه ، وإن كنت لم تبد رأيا فيا يخص كلامي عن أهل الكهف ، وعن البحث الذي أعجبك . أما فيا يخص كلامي عن موقف الفن والقصة خاصة من التعبير عن الإنسان ، فقد اعلنت كذلك الرأي نفسه الذي أعلنه صاحبك من قبل حيث تقول إنه « ليس هناك فن تشغله قضايا الإنسان المجرد » . أما دليلك في هذه المرة فهو أن التجريد عملية بعدية يقوم بها القارىء أو الناقد ؛ ولست أدري ما معنى هذا الكلام على التحديد : أيحدث القارىء أو الناقد في الأثر الفني ، في قصة مثلا ، شخصيات غير الموجودة فيها ، فيجرد ما أراده الفنان أن يكون غير مجرد ؟ لقد كنت فيا أذكر أتكلم عن العمل الفني بعد أن يتم ، ومن وجهة نظر القارىء والناقد ، أي الناس ، ولم أكن أتحدث عن العمل الفني وهو في ذهن صاحبه جنين . أو شعور غامض ، ولم أكن أتحدث عنه وقد ألقى به صاحبه في وسط محيط او في صحراء ، بحيث لا يراه الناس أو يحددون موقفهم منه . وسواء قام التجريد من القارىء أو الناقد أو الفنان ، فهو تجريد قائم في العمل الفني ذاته ، على أساس أن القيمة الأولى فيه للانسان لا للبيئة ولا لأي ظرف خارجي آخر . ومن العجيب أن تضع كلمة « معين » في مقابل كلمة « مجرد » ولست أدري ما يبرر ذلك عندك ، في حين أن سلوك « إلينا » باعتبارها إنسانة لا تخضع لسيطرة خارجية ما ، لا يبرر أن تعدم تعينها في مجال الشخصية الإنسانية . إن « إلينا » شخصية معينة فيا هي في التزامها لمنطق ذاتها إنسانة مجردة من سيطرة انتسابها الى وطنها أو أسرتها أو طبقتها أو غير ذلك من الظروف التي تحللت منها واختارت في حياتها موقفاً لا يعتمد اعتماداً سابقاً على أحدها . وكذلك لم افهم قولك « ما معنى ضرورة التجسيد في العمل الفني إذا كان التجريد هو الهدف ؟ » وأغلب الظن أن السؤال ناتج عن فهم لم أقصد إليه للتجريد الذي لا يتنافى أبداً مع التجسيد أو التعين ، ومن اللازم أن أقول هنا ان مفهوم « التجريد » ليس اصطلاحاً يتعين استعماله بمعنى محدود ثابت ، أن التجريد في الفن ، كما قلت ، وببساطة ووضوح : ان يكون الإنسان لا البيئة ولا نظرية ما ، ولا أي عامل خارجي آخر ، هو مصدر القيمة في الفن . وازن بين الأطفال في قصة « المدينة القديمة » لاهرنبرج وبين الاطفال في الفصل السادس والعشرين من قصة « شارع السردين المعلب » لشتاينبك (ترجمة الأستاذ البعلبكي) — الأطفال في القصة الاولى ضرب من الدمى مصنوع لخدمة شيء معين ، أما في قصة شتاينبك فهناك اطفال حقيقيون : من خلال العادي والمتكرر ينفذ شتاينبك الى الصدق في الحياة ، هذا الذي يعرض لنا أعمق ما يمكن أن ينزع الفن الى التعبير عنه ، دون الحاجة الى قصد سابق ، نظري غير معاش في الغالب .

وإذا كنت قد فهمت سؤالك لي عن ماهية الإنسان ، فانا اجيبك على أساس فهمي للسؤال بعد جهد ، بأنها ليست عدة أفكار تكون بناء نظرياً للانسان يتسم بالسكون والكمال مما قد يكون مضمونا للفلسفة المثالية (فأنا لم ادرس القضية من هذا الجانب) ، ولكنها المظاهر الداخلية والخارجية المتحققة في كيان سلوكي لا يتسم بالسكون والثبات السابقين. إنها لا تنفصل عن الفعل ، عن الوجود ، فهي إيجابية ذات فعالية سلوكية بالنسبة للانسان الذي تحققت فيه . إنها في الوجود الذي يحتويها ، ومتحققة في كل انسان بتفاوت . وهنا أحب أن أشير إلى أنني لم استطع ان افهم وضعك لكلمة « علمي » التي وصفت بها ما كتبه الأستاذ حسين ، وكلمة « مثالي » التي وصفت بها ما كتبته في مقالي ، على صورة مفهومين متقابلين ، ما العلاقة بين الكلمتين ؟ هل كلمة « علمي » تساوي عندك « واقعي » ؟ أو كلمة مثالي تساوي « غير علمي » ؟ أو لا تكون على خطأ لو كان هذا هو ما في ذهنك ؟ ام ان العلاقة بينهما هي العلاقة بين كلمتي « بعدي » و « قبلي » مع ان الكلمتين الاخيرتين لا تتساويان مع المفهومين السابقين على الاقل لانهما منطقياً متقابلتان بينما علمي ومثالي غير متقابلين . دعني أسألك بعد ذلك هل مفهوم البيئة عندك هو الثلوج والزحافات والخيول ؟ ألا ترى في هذا المفهوم وصفاً للبيئة من الخارج فقط ، وأنه وصف لا يقف امامه إلا دارس الجغرافيا الطبيعية دون البشرية فضلا عن دارس فن ؟ إن هناك جانبا آخر في البيئة هو ما يعنينا أولا وقبل كل شيء في الفن ، وهو حقيقة علمية لا ينقضها اعتيادك على تضييق مفاهيم الكلمات التي تستعملها ، او بالأحرى استعمالها في مجال واحد من مجالات مدلولاتها ، أليس مظهراً رئيسياً من مظاهر البيئة ما يتركه احتكاك الإنسان بالطبيعة فيه من خصائص نفسية وجسمانية تميزه عن غيره في البيئات الأخرى ؟ في بعض قصص نجيب محفوظ تجد شخصية « الفتوة » شخصية مصرية لا لأنها تتخذ مجالاً لسلوكها أحياء مصرية معينة ، ولكن لأنها تتصف بالخصائص النفسية التي تتسم بها هذه الشخصية في ذلك الجانب من جوانب الواقع المصري ، والشخصيات المصرية في « قنديل ام هاشم » ليحيى حقي ، شخصيات مصرية لا لأنها تتحرك في نطاق حي « السيدة » بل لتحقق تلك الصفات النفسية البارزة في نظرة تلك الشخصيات الى الحياة والمصير ، وفي علاقاتهم فيما بينهم — خذ بعد ذلك « ايفان » أو « أليوشا » في « الإخوة كرامازوف » . إنك لا تستطيع أن تتميز في هذين النموذجين خصائص نفسية معينة تربط بينهما وبين بيئتهما روسيا ، إنها نماذج إنسانية تتحرك بفلسفتها ونظرتها الى الحياة في مجال واسع ... في كل بيئة .

قل لي بعد ذلك هل يكون طبيب القرية من ألمانيا ، أو تشيكوسلوفاكيا ، حين يعجز بلا مبرر واضح عن رد السائس عن خادمته ، وحين يقفز من النافذة نافذة المريض ، ليركب عربته ، ثم يسير في « الصقيع » إلى حيث لا يدري عاجزاً مرة أخرى عن الحصول على معطفه المعلق بمؤخرة العربة — حسبي أن أقول لك إن هذه القصة عندي لا قيمة لها بواقعيتها الحرفية إن صح التعبير ، بقدر ما تتمثل قيمتها العميقة الفنية في رموزها الدالة على أزمة الإنسان وغربته وضياعه بازاء واقعه ومصيره ، وعلى هذا الأساس تأخذ الثلوج دلالتها الإنسانية عندي كلما قرأت القصة ، كما تفقد تماماً دلالتها الجغرافية — المحدودة ، أما إذا كنت تريد أن تقف بفهم البيئة في الفن عند حدود الجغرافيا الطبيعية ، ثم تفهم الثلوج في القصة بدلالتها المباشرة ، فلا بأس من أن أعترف لك بأن ذاكرتي قد خانتني ، وهي تخونني دائماً بعد أن أقرأ طبيب القرية ، وكثيراً ما أقرأها فلا أحس بالخصائص التي تميز في بطلها أو في إطارها العام بيئة معينة ،

كما هو عهدي كذلك بأبطال كافكا – وأحب أن أسألك هنا : إلى أي بيئة ينسب أشخاص قصتك « الطريق إلى المعتقل » وأنت متأثر فيها إلى حد بعيد بأجواء كافكا ونماذجه ، وبطبيب القرية على وجه الخصوص ... إلى أي بيئة ينتسب « البطل » و « صالح » و « خليل » ؟

أما قولك إنني اعتمدت على جملة واحدة للأستاذ حسين في عرض رأيه ومناقشته فقد كان مقبولا لو أنك أتيت من مقال الكاتب وخاصة حديثه عن شعر المدد الذي نقده، بما يتنافى مع المفهوم الذي حماته تلك الجملة وأكدته طريقته في الفهم والتذوق .

وبعد فلقد أثبت بتعليقك شيئاً كنت متشككاً فيه ، ذلك هو ضرورة مقالي عن تلك القضايا التي كنت أحسب أن الحديث فيها لا يعدو تأكيد بديهيات ، ومسلمات عامة ، وإن كنت قد شعرت بالأسف لأنك – أنت – صاحب التعليق .

القاهرة رجاء النقاش

★

حول مقال « أدبنا الملتزم »

نشرت هذه المجلة في عدد أيلول الماضي مقالاً نقد به كاتبه الاستاذ يوسف الشاروني العدد السابق . وقد تفضل الناقد المحترم فخص مقالنا عن « أدبنا الملتزم » بكلمة ، لسنا نكتم أننا سررنا بها . وقولنا « سررنا » هو من باب التجاوز ، والواقع أننا ابتسمنا بل ضحكنا أيضاً . فالناقد المحترم لم يقتصر بعرضه لطريقته الخاصة في فهم المقال على إعطائنا المثال الرائع والدليل القاطع على عنصر من جملة عناصر المشكلة التي أثبتنا أنها مشكلة العرب الرئيسية ، بل خاص بطريقة الاستنتاج الى التعريض بالنوايا ، والطعن في الوطنية ، معتقداً أنه يكشف سراً ويفضح مؤامرة ، وذلك في حماس ظاهر . وكنا نود أن نجله عن هذا النزول السريع الى هذه المنازل التي وضع نفسه فيها ، كنا نود ذلك لا لشيء سوى أنه نشر كلمته على صفحات مجلة تعنى بشؤون الفكر ، وأنه وعد في مستهل نقده بأن « يأخذ فيه بروح العلم » . لذا لن نجاريه في هذه المزالق التي ارتضاها لنفسه ، لأن ذلك لبس من عادتنا ، وحسبنا أن غمزه في نيتنا قام على استنتاج شاذ ، وأن كل من قرأ مقالنا وكل من يتتبعون ما ننشر ، يعلمون جيداً أين نحن وأين هو بكلمته هذه من العمل الوطني الحق .

قلنا في مقالنا إن مشكلة العرب الرئيسية هي التأخر ، وأبرزنا حقيقة هذه المشكلة وخطورتها بايضاح جذور وأصول لها عميقة ، ولم نقف عند مظاهر الحياة الاجتماعية التي تخفي بخداعها وبريقها تلك الجذور والأصول . ثم دعونا الى العناية ببحث هذه المشكلة ، باعتبارها موضوعاً من موضوعات الأدب الملتزم ، واستغربنا موقف الكتاب الذين يتجاهلونها أو يغفلون عنها ، للتلهي بموضوعات لا ترقى الى أهميتها ، وضربنا مثالاً على ذلك ما فعله أحدهم ، حين واجه نقداً مفيداً للواقع العربي بفورة من الحماس الخاوي الذي جعله يراه لوناً من التهجم على الكرامة والدعاوة للاستعمار . وقد أبنا في التعليق على موقفه أنه لا يخدم إلا أسباب استقرار التأخر ، لأنه يعاون في طمس الحقائق المرة التي من جلائها وحده يمكن أن ينبعث نور الرقي الصحيح ، ولأن القوة الروحية التي هي النتيجة الطبيعية لهذا الرقي ، هي الحرز المكين لكل استقلال مهما كانت الظروف ، ولأن انعدامها مدعاة في اي وقت واي ظرف لتضييع الاستقلال أو للعجز عن نيله . وسقنا للتدليل على هذا مثال البلاد العربية التي نالت استقلالها السياسي ولم تفد منه شيئاً لتعزيز كيانها بحكم افتقارها الى القوة الروحية التي لا تتأتى إلا من تمثل الرقي الخالص ؛ والكل يشهد اليوم ماذا يعاني هذا النوع من الاستقلال من انتهاك لحرمته ، ومن خطر لزواله الكلي ، دون أن نلمس في الشعوب قوة روحية تقف حائلاً منيعاً في وجه ذلك . هذا هو ملخص الفكرة الرئيسية في المقال ، وقد انتهينا الى القول : « وهكذا نرى كيف أن للعجب أن يتملكنا بعنف وقوة ، حين نسمع بكتاب يبغون الالتزام ، فلا يجدون غير الاستعمار أو نحوه كموضوع للتناول يبذلون فيه الجهد دون جدوى حقيقية ، مع أن الاستعمار قد جلا عن البلاد أو هو في طريق الزوال ، في حين أن ما ظل راسخاً فيها ، وما يحدد تأخرها ويمهد الأسباب لعودة النفوذ الأجنبي ذاته أو بقائه ، هو استعمار الأثرة في النفس ، واستعمار السطحية في الفكر » .

وقد أعجبت الناقد المحترم تسميتنا العرضية في سياق المقال للتحرر الذي أحرزته بعض الدول العربية تحرراً سياسياً ، ولم نقل إنه تحرر عسكري فقط ، فأحب أن يعتبر أننا قد غفلنا أو تغافلنا عن أمر النفوذ الأجنبي ، مع أننا أوضحنا فكرتنا بالاستدراك القائم في معنى لفظة « أو » المتكررة مرتين في الفقرة الآنفة الذكر ، وهو إذ يفيد توسيع نطاق الاعتبار ، يشير ضمناً إلى أن المجال هنا ليس مجال البحث والتبسط في هذا الموضوع . وهذا فضلاً عن أننا عنينا جيداً بتأكيد أهمية القوة الروحية التي حددنا بها قيمة الاستقلال أياً كان نوعه . ولو تأمل في مدلول القوة الروحية هذه ، وفي سائر فقرات المقال وفي مغزاه العام ، لأدرك أننا لا نعلن بـه فقط ثورة على اتجاه من يعملون على « هدهدة الأوضاع الراهنة وإطرائها » أو « تجاهلها » ، ولكن عرضنا أسس البناء العلمي الذي يجب أن يتمم عمل كل ثورة ، وذلك بأن أوضحنا ضرورة ايجاد القوة الروحية التي تنبثق في الواقع عن تمثل الرقي الصحيح . فلسنا ممن يكتفون بالانفعال العاطفي لمعالجة المشاكل كما فعل الأديب موضوع الاستشهاد في المقال ، وكما يريدنا الناقد المحترم أن نفعل . بيد أن صاحبنا لم يشأ أن يفهم كلامنا على غير هواه ، فرمانا بتجاهل أمر النفوذ الأجنبي ، وجعل يتعجب من جمعنا في الحديث بين التأخر العربي ، وبين الاستعمار الزائل ، وبين وجوب الاهتمام بالقوة الروحية ، وظن أننا نرمي الى ثني العزائم عن مكافحة الاستعمار ، لكي يتلهى الناس بأمور خاوية لاغية سميناها قوة روحية وتقدماً الخ .. وحبكت معه الفكرة فقال ما يعني أننا نسعى الى تخدير الشعوب في سبيل خدمة الاستعمار ، وهو ادعاء مردود من قبل اي قارىء يتمتع بأدنى قسط من التمييز ، وراح يسائلنا عن « العلاقة القوية بين التحدث عن الروحية وبين وجود الاستعمار بشكل او آخر » ، وعن الجهة التي نعمل لمصلحتها ، ويستغرب « كيف سمحت مجلة الآداب بنشر المقال » ، ثم يتخذ لهجة نائب عمومي ليدعو الى « كشف هذا اللون من التفكير وفضحه حيثما وجد » ...

مهلا ، رويدك يا هذا .. فلم تبلغ بنا السذاجة الى هذا الحد لنكشف عن ميولنا الاستعمارية بهذه البساطة والصراحة ، ويجب علينا على الأقل ان نداري ونحاذر الأذكياء الفطناء الذين يفضحون هذه الميول بأقلامهم العتيدة .. أليس هذا ما يقضي به المنطق ، منطق الخيانة الوطنية الذي أبيت إلا ان تجردنا منه ايضاً ؟

بقي أن نعرف كيف يتصور صاحبنا مدلول « القوة الروحية » ، وما تعنيه « الروحية » و « المثالية » بوجه عام . فهو يبدو غير مقتنع بقيمة هذه الألفاظ الفارغة ، ولا يوافقنا على أن بها شيئاً من الجدوى

بالنسبة لحل مشكلة التأخر العربي ، بل يذهب الى اعتبارها خيالات سرابية غرض الحديث عنها مجرد التضليل . وإزاء هذا ، نربأ بأسفنا أن نعلنه إياه ، ولا نرى ضرورة أو فائدة من الإطنـاب في شرح هذا الموضوع الذي عقدنا الفصول المتعددة عنه ، وإنما ننصحه بالرجوع الى ما كتبنا في افتتاحيات مجلة «الأديب» ، ولا سيما ما نشر في أعداد يونيو وأغسطس عام ١٩٥٢ ، وسبتمبر ونوفمبر عام ١٩٥٣ ، وفبراير عام ١٩٥٤ .

إن هذا الموقف بالذات هو ما يؤيد رأينا في أن مشكلة التأخر العربي هي في الأساس مشكلة مفاهيم : فالتمدن يبدو عـلى أنه فقط صورة من التلبس بقشور من المدنية خادعة ، والوطنية هي عاطفة خاوية ، والروحية مجرد مزيج أجوف من نشوة العاطفة والخيال . وجلاء الحقـائق بإبادة هذه الأوهام المستبدة هو وحده الكفيل ببناء إرادة التقدم والنهوض والخلاص من كل قيد مادياً كان أو أدبياً . ويخطىء صاحبنا كل الخطأ اذا ظن أن المادة هي التي تسير العالم اليوم ، فالقوة التي تحرك الأمم الراقية ليست هي المادية ، بل الروحية ، فالروحية هي وراء كل خاق لهذه الأشكال المـادية المتعددة التي يراها في نتاج الحضارة الراهنة . ولا يظنن أن بالعالم العربي اليوم شيئاً من الروحية ، فلو كان أمره كذلك لما كان حاله الحاضر حـال الخزي الذي تردى فيه . وليثق بأنه بغير الروحية الشـاملة في النفوس ، وبغير القوة الروحية التي يمكن ان تعتمر بهـا قلوب الشعوب ، لا قيمة لأي استقلال ينال ، ولا لأي استعمار أو نفوذ أجنبي يزول ، فالاستقلال في مثـل هذا الوضع الآسن يباع ويشرى دون ان يواجه أي وازع ، والاستعمار في أي شكل كان عائد لا محالة . ولقد ثبت بالدليل المـادي القاطع أن القوة الروحية تفعل فعلهـا الرائع حتى في أبعد الأحوال عن أي كيان استقلالي ، ولسنا هنا بحاجة الى إيراد الشواهد والأمثلة ، فهناك من الأمثلة القريبة المعروفة ما إذا أوردناه يؤلم الشعور القومي . وليذكر أن الشعب الخامل الجاهل ، والمغرور بالأوهام والفتات من قشور الحضارة ، سرعان ما يضيع بيده استقلاله ولو كان كامـلا ، أو يدفنه في دياجير جهله وغفلته ، بحيث يصح القول فيه إن استقلاله وعبوديته سيـان . وهذا الكلام ليس للتخدير ، وليصدقنا هذه المرة . وليعلم أن تساؤله عن رأينـا في النفوذ الأجنبي الذي خيل اليه أننا نتجاهله ، إنما جاء في غير محله ، وانه في الواقع برهان لنا وليس له ، لأنه بالفعل من جملة ما رمينـا الى التنبيه اليه في مجمل روح المقال ، بمعنى أنه إذا كان هناك نفوذ أجنبي من أي نوع كان ، فالسبب الوحيد هو انتفاء القوة الروحية . وهكذا يتضح مما تقدم أن الحديث عن القوة الروحية ليس أداة تمويه وإلهاء وتخدير ، كما تهيأ له ، وإنما هو لب الموضوع وحجر الزاوية في درسه .

على أنه يبدو لنا أن للناقد المحترم وجهة نظر خـاصة اخرى بالنسبة لمدلولي الروحية والمادية ، قد تكون هي التي أملت عليه كلمته بكاملهـا . فلعله يعتقد بأن المادية تمثل فريقاً سياسياً من دول العالم ، يقـابله فريق آخر تبنى الدعوة الى الروحية . ونحن لا نحب أن نصـدق هذا ، لأنه تصور شاذ وغريب عن حقيقة الموضوع ، ولأننا نؤمن بأنه لا سبيل المرء في هذه البلاد الى أن يصبح عضواً نافعـاً في مجتمعه ، ولا أن يصير أديباً ومفكراً يقوم بخدمة التوجيه بين مواطنيه ، إلا إذا تحرر من مثل هذه القوالب الدخيلة المصنوعة في الخارج والتي قد يلغو بها بعض الناس . ولذا ننصحه مخلصين بأن يبتعد جهده عن هذه القوالب اذا كان قد اقترب منها ، وان يخرج من إطارها اذا كان قد ولجه ، وذلك على الأقل حين ينبري للكتابة باسم « روح العلم » .

إننا نود ان نؤكد أن ما صدرنا عنه في كتابة مقالنا ، إنما هو إيمان راسخ بان الشرط الأساسي لنهوض اية امة هو ظهور موجة جماعية فيها من نقد الذات ؛ فمبدأ « إعرف نفسك » هو في الحقيقة نقطة الانطلاق نحو اي إصلاح جوهري ، سواء اكان ذلك للفرد ام للجماعة . ونحن اذا كنا نرى أن مهمة اثارة هذا النقد وتوجيهه من اقدس المهام الملقـاة على عاتق الكتاب العرب ، نعلم انها مهمة دقيقة وشائكة ، وان على القائم بها ان يتوقع التهجم والطعن حتى في نيته وإخلاصه ، لان ما سيصطدم به هو من اهواء العاطفة لا منطق العقل ، ولكن التضحية في سبيـل هذه المهمة واجبة ، وهي لا تضير شأن صاحبها إلا إذا كان في قيام المرء بالواجب ضير عليه . والجدير بالذكر أننا وجدنا في صاحبنا خير مصداق لما توقعنا ، وهو في الواقع لم يخـدم بموقفه سوى وجهة نظرنا ، إذ أنه بعد أن قرأ مقالنا الذي اتخذ صيغة النقد الاجتماعي في روحه ، واستهدف بنقده صورة معينة من التفكير ، قد أطل علينا بهذه الصورة عينها ، وتصرف بوحيها ، وقدم لنا وللقراء مثالاً عينياً ساطعاً يؤيد كلامنا ، ويثبت أننا أصبنا نقطة حساسة ، ومسأله جوهرية في صلب الوجود العربي ، هي أخطر ممـا قد يظن ، وينبغي ان تعبأ لها الجهود المخلصة . وهو كمثل ذلك الذي استشهدنا به في المقال ، وشأنها في حل المشاكل شأن من يشتم اسبابها بدلاً من ان يعمل على إزالة هذه الأسباب .

والطريف ان صاحبنا شديد الثقة بنفسه لدرجة انه راح يلوم ويسأل كيف سمحت المجلة بنشر المقال ... سامحه الله ! إن الجواب على سؤاله بسيط ، فالذين « سمحوا » بنشر المقال قد فهموه على حقيقته ...

محمد وهبي

★

حول قصيدة « الصامدون »

قرأت في العدد الماضي تعليق الاستاذ يوسف الشاروني عـلى قصيدة « الصامدون » ، ولقـد ادهشتني الاحكام المبتسرة التي اطلقها الصديق الكاتب ، هذه الاحكام التي أبت الا ان تواجه عقيدتي مشبعة « بعقيدة » صاحبها ، والا ان تحكم على القصيدة من خلال بضع كلمات لم ترد عفواً بطبيعة الحال ، غير ان الكاتب وجد فيها « دعاية » لاتجاه ما !!

ان الحكم على قصيدة من خلال بعض كلماتها التي تكون هي وسواها ثقيلة على بعض الآذان « المرهفة » يذكرني بالحادثة التالية : يروون ان احد الاساتذة ، في قطر شقيق ، عرض على لجنة المناهج الوزارية كتاباً لتدريس اللغة العربية ، استهله بالقول المـأثور (اطلبوا العلم ولو في الصين) ... وكان ان رفضت تلك اللجنة ذلـك الكتاب بدعوى ان « الصين » اصبحت « حمراء » !! بيد ان المؤلف اعاد الكتاب الى نفس اللجنة باستهلال جديد : « اطلبوا العلم ولو في فرموزا !! »

اني ارجو الا تتسرب مثل هذه الاساليب البوليسية التي ترى ، بسطحية غريبة ، في كل شيء مجالاً للتهمة والدعاية لاتجاه ما ، الى اقلام إخوانـنا الكتاب الذين يرون الى مجلاتنا وكتبنا تسقط في كل يوم صريعة مثل هذه المقاييس .

اني الآن في سبيل دحض آراء الاستاذ يوسف الشاروني ولست في سبيل اتهامه وهو الكاتب الذي ارجو منه وله كل خير ، واليه ملخص ردي :

١ – وقف الكاتب عند كلمة « الواعي » الواردة في المقطع التالي :

ونساؤنا الشكلى ، ووحشتنا ، وجارتنا العجوز
– بالامس سيق وليدها الواعي الى ليل السجون
معروقة عمياء ، تطرد بالتعاويذ الهموم !

واعتبر مجرد وجود تلك الكلمة دعاية لاتجاه ما ، في حين ان كاتب هذه السطور قصد – كما هو واضح – كيف ان الوعي يسوق الاحرار ، في المجتمعات القديمة ، الى ظلام السجون ، وكيف يصنع الاحرار الواعون مصيرهم بانفسهم في حدود انغمارهم في الكفاح لتحقيق عالم افضل ضمن كفاح المجموع ، وكيف ان الجهل يدفع بالفرد غير الواعي الى تعليق كل شيء على القضاء والقدر ، حتى الارهاب مثلاً ، والى اللجوء « للتعاويذ » لطرد الهموم . مجرد محاولة للتعبير عن تناقض . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان « الوعي » الاجتماعي الذي لا بد ان يتحول ، عند سريانه الى الآخرين ، الى قوة نوعية ومادية تستطيع القيام بالتغيير هو الذي قاد ذلك الوليد الى السجن ، وأن السجن لم يطبق عليه بسبب جريمة سرقة او ازهاق روح ، وان هذا الوعي ليس هو « اللقانة » او « الحدس » كما يعبر برجسون وليس هو « وعي الذات لاجل الذات » كما يعبر احد كتاب الوجودية ، .. انه الوعي الذي يثير القوى السائدة فتندفع لتشييد سجون القرن العشرين للحفاظ على مصالحها واعاقة التقدم .

٢ – يرى حضرة الكاتب انه يتحتم علينا ان نقدم « رشوة » الى القارىء عند استعمال بعض الكلمات ، والا حملت على محمل الدعاية المقصودة . حبذا لو تقدم الكاتب باقتراح « يعلم » فيه بعض الكلمات بشارة خاصة بحيث لا تستعمل الا لذاتها ، حيث يجري تقديم « الرشوة » .. نحن نريد ان نعرف هذه الكلمات ، .. ومهما يكن فالذي اعلمه ان اهم خاصية للادب الواقعي هي الوضوح ، الوضوح الذي يجعلنا في موقف مباشر امام القوى التي نصارعها ، وما استعمال الرمز او اي رشوة مفتعلة الا لون من الوان التهرب من المسؤولية ، كما انني اعلم ان للحقيقة جانباً واحداً : لا او نعم . وهذه حقيقة جدلية لا ينكرها الكاتب ، وان التضحية بالحقيقة في سبيل وجهة نظر فنية مشكوك في صحتها ، شيء كبير . ومن جهة اخرى ارى من الصحة بمكان ان نطلب من الشاعر ان يعتمد الالفاظ الملتزمة والمجازية في دلالتها على المعاني ، ولكن اكثر المواقف ، في الادب الواقعي ، تستوجب اعتماد الكلمات المطابقة في دلالتها على المعنى كما يعبر المناطقة ، وان اعتماد تلك الكلمات بصورة تجعل لها محلاً في الخارج ، لا مجرد رنين اجوف ، لا يحتمل معنى الدعاية المقصودة .

يقول الاستاذ ماركوت هاينان « يجب تسجيل المشاهد بصورة تظهر الافراد كممثلين حقيقيين للمجتمع ، ومن اجل ذلك كان لمصائرهم كممثلين للمجتمع – الواعي في ليل السجون – مغزى اوسع وقيمة اكبر من مصائرهم كافراد » .

٣ – ان الادب في اساسه ظاهرة اجتماعية ، وقد برزت هذه الظاهرة بصورة اكثر تأكيداً ، واشد ارتباطاً بالحياة ، في هذا العصر الذي نحياه ، وتبعاً لذلك اصبح للادب معنى يحمل معنى الدعاية في اطواء ذاته . وارجو الا يحاول الصديق يوسف ايجاد تناقض بين هذا القول واقوالي السابقة ، لان احتمال معنى الدعاية هو ما يفرضه الواقع طبقاً لهذه المقولة :

ادب العصر الحديث يستلهم الحياة
والحياة نظم واوضاع واشكال متناقضة متطورة
واذاً فالادب الذي يعكس قيم هذه النظم وهذه الاوضاع لا بد ان يلتزم جانباً منها . ليس هذا مجرد تصور ، بل مما يؤكده الواقع ويؤمن به اولئك الذين يرفضون كل تفكير غيبي مسبق . خذ مثلاً قصة « رجال وفئران » لجون شتاينبك ... اليست هذه القصة تنطوي على فضح بشاعة النظم الاستغلالية ، على « دعاية » ضدها ... ثم لمصلحة من هذه الدعاية ، اليست في سبيل نقيض تلك النظم ، كذلك قصة « الام » لمكسيم جوركي تحمل نفس الطابع وذات اللون من كشف مساوىء نظام متهرىء ، والدعوة لحياة افضل ، وفي ميدان الشعر – سأهمل ذكر شعراء عالميين نضاليين خوف ان اتهم بالتحيز – لنأخذ اروع قصيدة كتبتها الشاعرة الانكليزية المسيحية ايديث سيتويل « عصر الذرة » اليست هذه القصيدة الطافحة فناً واصالة وشاعرية مبدعة دعوة الى سيادة السلام والكفر بقيم حضارة استعمارية تبيح لنفسها اضطهاد البشر ، وتقتيلهم بالجملة في سبيل الجشع والربح ؟ من المستحيل ان يخرج الادب العالمي الحديث عن نطاق التفضيل ، تفضيل شيء على شيء ، والدعوة الى الشيء الافضل ، وان هذا ما يؤكده استلهام الواقع في بحث هذه الامور ، ونحن نجد مثل ذلك حتى في ميادين الدعوة لمجتمعات جديدة ، فما رولد لاسكي مثلا لا يدعو الى الاشتراكية لانه « يحلم » بها ، بل لأن اوضاع الواقع الراهن واشكاله المألوفة هي التي تحتم ظهور الاشتراكية ، ولا يقول بغير ذلك الا اولئك الذين لايدركون التطور ، ولا الصراع الناشب بين عالم الضرورة وعالم الحرية .. اولئك الذين يستوردون بالبريد « روح » « اشبنجلر » ليكتشفوا « روح » « عروبتنا » مثلاً . ومنذ ثلاثين سنة ونحن ننكب بمثل هذا التفكير في ميادين الأدب والاقتصاد .. الخ .. وقد آن لنا ان نتحرر منه .

٤ – يرى الصديق الاستاذ يوسف ، انه لم يجد في قصيدة « الصامدون » معنى الصمود ! لانني لم انقله – وهنا يستعمل احدى عباراتي ليلزمني بها – الى « ذات الحدث » . وهذا الرأي عجيب لانه يصدر من كاتب اقصوصة ناجح ، لا يريد ان يفرق بين موضوع ينتج احداثاً في الواقع وبين موضوع تعبيري ليس الا ، ولهذا كانت مقارنته لهذه القصيدة ، مع قصيدة « احد والحرية والربيع » مغلوطة من الاساس . لان هذه القصيدة تحتمل « حدثاً » هو معركة أحد ، وان محاولة ايجاد تصوير لجوانب هذه المعركة لا تقتضيه رواية حادثة كما وقعت فحسب . ولا تقتضيه رواية حادثة من « الممكن » ان تقع فحسب ، ولا لان ضرورة فنية تستدعي ذلك فحسب ، بل لان تناول الاحداث بدون الاعتماد على التفكير الغيبي ، هو الذي يدفع الانسان بالضرورة الى الانغمار في « ذات الاحداث » ومحاولة نقلها كي تتجرد من المسحة الغيبية .

ومهما يكن فالذي اود ان اقوله ان قصيدة « الصامدون » تعبيرية ولا تشير الى اي حدث ، ليس صامدوها امام قلعة محوطة بالحديد والنار ، تتفجر احداثاً وحركة ، بل ازاء قيم بائدة ثقيلة الوطأة على النفوس التي تريد ان تتحرر وتنعتق . انه صمود معنوي حيال القيم التي تريد ان تزهق النفوس .

الحق انني ادافع عن لون من التفكير لا عن قصيدة . فانا اعتقد ان كل عمل ادبي عرضة للنقد والتقييم ، ونحن عندما ننحاز الى جانب شعبنا الذي يخوض اقسى الصراعات في سبيل بقائه ، في سبيل الاجهاز على الاستسلامية والخور والخوف ، في سبيل تحرره ، نستطيع ان نهتدي الى التفكير الخاص بنا والذي يسدد خطانا . والى الكاتب اخلص تحيات الود والحب والتقدير .

بغداد
كاظم جواد

الأدب العربي الحديث بـــين الازمة والتقدم

– التتمة من الصفحة ٣٢ –

فلقد ابقته الخبرية واللاهوت في طور الطفولة. ويعود السبب في ذلك هنا الى انعدام الفلسفة اكثر منه الى انعدام العلم .

ليست الجماعة ، عندما يحركها الفكر الناقد، خليطاً بسيطاً من الاعضاء الذين يؤلفونها بل هي اتحاد اشخاص مستقلين ، يعون شخصيتهم ويعملون بارادة حرة لخير المجموع . آنذاك تعرف الجماعة مجرد وجودها وتعرف وسط الامم رسالتهـــا الزمنية والروحية . انها تحقق مساهمة الفرد في الخير العـــام وتحدد مهمة الرجل والمرأة ، كما تعطي العامل ولرجلي الفكر والفن حظهم في الحياة . وينتج من ذلك في النهاية ديمقراطية صحيحة يعيش في ظلها اشخاص احرار يحملون الى ذلك تبعة مصير المجموع .

غير ان كل هـــذا منوط بنقد فلسفي للشخص البشري ، لواجباته وحقوقه . ولمساهمته مع الغير . وحالما يفتقد هـــذا النقد تتحول الجماعة الى خليط مبهم ، خليط افراد لا حدود لهم . ويبـــدأ ذلك بالعائلة حيث ينظر الى المرأة لا بالنسبة لشخصيتها بل بالنسبة الى الرجل والى وظيفة التناسل، ثم بالولد الذي تضحى شخصيته لمصلحة العائلة . ويتفاقم الامر في سياسة الاحزاب التي تتكون حول مصالح انانية تسعى وراءها فئة او فرد ، بمعزل تام عن المصلحة العامة . ان انقلابا يحصل في جو كهذا يبدل مصالح من مصالح دون ان يحقق اصلاح معطيات الديمقراطية الحقة . وتبقى الطبقات الاجتماعية قائمة على الثروة لا على مساهمة الفرد الاصلية في الدولة . وتظل الامة اخيراً تفتش عن رسالتهـــا دون جدوى مترددة بين الاتفـــاقات الاقتصادية المحضة (التي هي فوز الخبرية) وبين الاتفـاقات الدينية المحضة (وهي فوز النزعة الدينية) .

ان هذا الجو من البلبلة وانعدام الحرية الصحيحة يقتل في الجنين نوابغ الفكر والفن .

انه مجال واسع للعمل امام مفكري السياسة عندنا وامام كتاب القصة والمأساة ، ومنتجي الافـلام السينمائيـة ، مأساة المرأة المقيـدة ، والولد ضحية التقليـد ، مأساة النزعة الجنسية الشرقية في بلبلتها امام النزعة الجنسية في الغرب، مأساة الحزب يسحق العضو المنضوي اليه ، والجندي الذي يقـــاتل لسبب يجهله ، مأساة الفنانين والكتّـاب الذين يجدون في الخـــارج شروط خلق وانتاج لا تتوفر لهم في بلادهم ، كلهـــا مواضيع خصبة يمكن ان تنهل من معينها القصة والمسرحية والافـلام السينمائيـــة .

وهي هذه المواضيع التي ألهمت طه حسين وميخائيل نعيمه وتوفيق الحكيم وتيمور ، وبين الشباب سعيد عقـل وسهيل ادريس وغيرهما . وبسبب تغاضيناعن ان نتبين اسباب ضعفنا، فلا يزال عدد المفكرين ضئيلاً ، هؤلاء الذين يتناولون بالبحث هذه المواضيع التي يجب ان تشمل جو الثقافة العام .

المحنة القوبية

ولن اسهب في بحث النقطتين الاخيرتين ، النزعة الدينية

ومقياس الانسان الشرقي ، لان ذلك يستوجب وقتاً طويلا .

اما فيما يختص بالنزعة الدينية فاننا بدأنا نرى الايمان عند كثير من الجماعات المتوزعة في بلادنا ، يفقد كل صلة بالعقل فيجد نفسه وحيداً لا وسيلة له للدفاع ، امام النقد الفلسفي والنجاح العلمي . لا اعرف اذا كنتم تشعرون ، مثلي ، بالمأساة التي يعيشها الشباب الاسلامي والمسيحي معا ، هذا الشباب الذي لا يحمل من الدين الا اسمه .

وان رواج الفلسفات الشيوعية والوجودية – وهو رواج خادع اذ ليس مرده ، عندنا حالات النفس التي ساعدت على ولادة هذه الحركات في الغرب – ان هذا الرواج اذن ، قد استفاد من انعدام اللاهوتيين والفلاسفة الشرقيين اكثر مما استفاد من الاسباب الجوهرية التي تميز الفلسفة الشيوعية او الوجودية . وليس ما يثير دهشتنا ايضاً ان نرى الحركات الاكثر صلة بالدين تتيه عن اهدافها الدينية سعياً وراء اهداف سياسية ، غير مميزة بين الروحية والزمنية . لذلك فاني اتوقع للشرق الادنى في وقت قريب ازمة إلحاد لامثيل لها في التاريخ الشرقي ، سوف تؤدي الى مالا تحمد عقباه .

وفيما يخص النقطة الأخيرة ، فقد قلنا في بداية محاضرتنا ان الانسان الشرقي يمتاز عن الغربي في موقفه من الكون والزمن . ولكن هذا الامتياز ، بنظري لن يدوم طويلا ، فسيشعر الشرقي قريباً بانه غريب حتى في وطنه ، وهو ، بوراثته فلسفة غير فلسفته ، وبتقليده حضارة لم يبعثها هو ، سيجد نفسه في جو عقلي وفي اطار حضارة لم يساهم نبوغه كفاية في خلقهما . وتجد نفسها الكتل الاجتماعية التي تروعها عدالة اجتماعية تنظر اليها وكأنها غريبة وعالم يبدو لها غريبا ، مهددة بالانحلال فتقع على نفسها بعد ان تكون قد فشلت في التوازن المنشود .

✶

الازمة التاريخية ومسؤولية الشباب

بقي عليّ ان اختتم ولا يسعني سوى الاعتذار عن الاطالة عليكم . لا شك بانكم عرفتم الآن لماذا تحمل محاضرتي عنوان « الادب العربي الحديث بين الازمة والتقدم » . فاذا كنا قد احرزنا تقدما جزئيا بفضل موهبة بعض المفكرين والكتاب ، فهذا لا يعني اننا على وشك ان نتخلص من ازمتنا . نحن امام ازمة تاريخية لا يخرجنا منها المجهود المنعزل الذي يقوم به افراد معدودون . ان ما يتحتم القيام به بعث العامة من الشعب .

ولن يتم هذا البعث الا اذا ساعدنا هذه العامة على التحرر من قبضة الخبرية واللاهوت . ولكن حذار ، فلست اعني انه يجب الاستغناء عن درجتي المعرفة هاتين ، بل يجب ان ندخل بينهما العلم والفلسفة .

وليس اكثر اثباتاً لصحة ماأقول من مشكلة اللغة العربية . فهي اداة للثقافة يجب ان ترقى على درجات المعرفة الاربع . ولكنها تجد نفسها هي ايضاً متجاذبة بين الخبرية واللاهوت . وهذا ما يشرح انشقاقها الى قسمين : لغة عامية ولغة ادبية كطرفي جرح لا يلتئمان . وهو هذا الجرح الذي تئن منه ثقافتنا . لذلك يجب ان نرحب بسرور بجهود بعض الافراد كالشيخ عبد الله العلايلي ومعجمه الجديد ، وبعض المؤسسات كدار المنشورات العربية التي اعلنت في باريس عن عزمها على اصدار اللاروس بالعربية مع احرف طباعية جديدة . وان مشروع الجامعة اللبنانية في اصدار دائرة للمعارف يفتح امامنا افاقاً جميلة . ولكنه يجب الا يغيب عن بالنا ان الهامّ في كل ذلك ليس في ابتداع الكلمات ولا في تحسين اداة الثقافة بل في تغذية هذه الثقافة نفسها التي تضمن بدورها تحسين اداتها . فلن اتردد اذن والحالة هذه في توجيه شكر علني للصحافة العربية . فهي التي تغذي منذ قرون ثقافتنا وهي باتصالها الدائم بالعلوم والفلسفة العالمية قد سدت الفراغ القائم بين الخبرية واللاهوت ، ومن معينها يجب ان ينهل جميع المشتغلين في المعاجم اصطلاحاتهم الجديدة التي تتناقلها الالسن .

لقد تعدت الصحف اليومية والمجلات دورها الاخباري لتكون اداة ثقافة حقة . بيد انها لم تقم بدورها الاستثنائي ، هذا إلا لسبب انعدام العلماء والفلاسفة ، فهؤلاء هم المسؤولون الحقيقيون عن ازمتنا التي هي اعمق من ان تكون ازمة سياسية . ومن هنا يجب ان ننظر الى الحل والدواء هذا اذا اتتهم الجرأة الكافية ليفهموا ان الازمات التاريخية تفرض حلولاً تاريخية طويلة المدى . وكل توانٍ في هذا المضمار فجيعة لانه يضيف الى المصاعب القديمة مشكلات جديدة لا تبرح ان يستعصي حلها .

وهذا ما يجعلنا نتوجه الى الشباب الطالع لنقول له انه يحمل من وراء العتمة ، تبعة انبلاج الفجر . ففي مستقبله مشرقنا الحقيقي .

رينه حبشي

اسبوع الأدبــاء العرب في لبنــان

« تتمة المنشور على الصفحة ٣ »

وتحول من دون انسرابها الينا الحدود ، اذا ما عولجت خارج الحدود ، وتنتظرها النار . هي هذه التي تنكروا بسبب بعضها لجبران وكفروا الريحاني . عادات موروثة وتقاليد مهترئة واشيـاء اخر .

وما دام الأديب العربي محروماً من ارتياد كل المطلات ، مـا دام مكرهاً على التزام الصمت حيال بعض نشاط الفكر ، ما دام باب الاجتهاد موصداً من دونه ، فلن يستطيع ان يؤدي رسالته ، وان يخلق اي اثر مرموق . بل سيظل يشعر في اعماقه حتى عندما يعالج من القضايا ابعدها عن هذه ، انه خاضع مكبل وهذا الشعور كفيل بان يهيض جناحيه وان يخمد الجذوة في نفسه ويخنق العبقرية .

الاحزاب السياسية تتمتع بحرية الاجتماع والتظاهر في بعض اقطارها وتطالب بها في الاقطار الاخرى . والنقابات على انواعها تتمتـع بحرية الاجتماع والتظاهر حتى بحرية الاضراب في بعض اقطارنا وتناضل من اجل تحقيقها في الاخرى .

فلا اقل من أن يطالب اهل القلم بحرية التعبير المطلق عن الفكر ضمن حدود الاخلاق او يظل الأدب العربي مؤرجحاً بين عهدي الطفولة القاصرة والشيخوخة العاجزة لا يبلغ شبابه ابداً .

ولتكن المطالبة جهاداً . إن لأنفسنا علينا ولامتنا وللانسانية حقـاً ، وان علينا واجباً هو واجب النطق فلنضطلع بمسؤوليتها . انه لمن بوادر النصر ان يستشهد كتاب فيحرق وان يقاضى اديب وتنهشه اظافر الغوغاء .

ولكن كيف نوفق بين المطالبة بالحرية ومبدأ الانضواء او الالتزام بدعوى خلق أدب حي ينتصب مدافعاً عن طبقة او عن وطن او عـن دين او عن فلسفة ؟

اذا كان المقصود من الالتزام ان يتمرس الأديب بمجتمعه وان يعي كل مشاكله وان يعبر عن الحقيقة ، فلا تعارض بين الحرية والالتزام . لنعم ، قبل ان نتساءل هل ينبغي لنا في الأدب اتباع خطة الالتزام ان التعبير عن الحقيقة الـتزام بذاته ، وان الأدب الذي لا يعـبر عن الحقيقة لا يكون حراً ، وان حرية تمويه الحقيقة ليست حرية بل فوضى .

اما اذا كان المقصود من الالتزام ان يخضع الأديب لتوجيه مـن الخارج يأمره فيأتمر ، فلا . شرط صحة الأدب ان يظل الأديب حراً يلزم او لا يلزم نفسه ، ينضوي او لا ينضوي ، لينضو او يتراجع عـن انضوائه . المهم ان يظل منضوياً تحت راية الحقيقة . وكل الـتزام آخر وطنياً كان او دينياً او فلسفياً ضئيل بالنسبة الى هذا الالتزام الحر .

ويبقى ان التعبير عن قضية معينة ليس هو الذي يجعل مـن الانشاء ادباً . قد نجد ادباً في انتاج ملتزم او غير ملتزم ، وقد لا نجد ادباً فيهما ، بل نجد ادباً في انتاجين ينضوي الواحد منهما لخدمة عكس مـا ينضوي لخدمته الاخر يكون الأدب او لا يكـون ..

هذه هي اهم القضايا المطروحة عليكم . واذا كنت عبرت عن رأي بصددها فانه لا يلزم احداً . وهكذا ترون اننا ما دعونا كم لمتعة بل لعناء . طويلة هي الطريق وضيق الباب . ولكننا بمحبة دعونا . واني لواثق من انكم بمحبة استجبتم ، ومن اننا سنعمل ونتقصى ونقرر بمحبة .

صلاح لبكي

حرية الفكر

« تتمة المنشور عـلى الصفحة ٩ »

ولا بأس من تسميتها هكذا ، التي يستحقونها مقابل كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم ثم فرضها على دور النشر واصحـاب الصحف والمجلات والسلطات الحكومية حسب قواعد معينة تدعم بنصوص قانونية .

كذلك ينبغي ان يطالب اهل القلم الحكومات والمجالس النيابية بازالة جميع القيود على حرية الصحافة والنشر والكلام والاجتماع وان يقتصر تدخل الدولة هنا على الحـالات التي يحدث فيها اي اعتداء على كرامة الافراد وشرفهم او اي إضرار بحقوقهم .

ثم ان حرية الفكر لا تتحقق الا اذا توفرت للجميع وسائل الحصول على المعلومات الصحيحة التي يقتضي الحيلولة دون احتكارها وتوجيهها من قبل اصحاب المصالح . ولذلك يجب على اهل القلم ان يقاوموا سيطرة ارباب المال والدول الاجنبية على الصحف ودور النشر والسينما والاذاعة .

ولا يجوز لأهل القلم ان يهملوا معاهد التعليم . فانه لا يمكن تكوين عقول حرة اذا لم تكن المناهـج الدراسية قوية ولم يتمتع المدرسون بالاستقلال ، ولم تبق المدارس بعيدة عن الاختلافات الحزبية والطائفية فعلى اهل القلم ان يطالبـوا الحكومات بجعل التعليم العام انموذجاً حياً للتسامح والتجرد ووسيلة فعالة لتحرير الافكار .

واخـيراً اعود فـأقول ان حـرية الفكر ليست هبة تمنـح الى الافراد بـل انهـا صفة يكتسبونهـا بجهودهم الشخصية ، بعد نضال طويل وتضحيات كبيرة . ولا يحق لأي شخص ... ان يطالب الاخرين باحترام آرائه اذا لم يبرهن على انه هو نفسه يحترمها ويدافع عنها ويعمل بها . لا يكفي ان نمجد حرية الفكر ونتفق على ضرورتها ، بـل يجب كذلك ان نعرف كيف نتوصل اليهـا في حياتنا قبل النص عليها في قوانيننا ، وكيف نحققها في انفسنا قبل مطالبة غيرنا بها . والامر يتوقف قبل كل شيء على الجهود التي نقوم بهـا نحن انفسنا . ان حرية الفكر تؤخذ ولا تعطى فهل نحـن مستعدون للنضال ؟

كامل عياد

المصطلحات العربيـــة وحاجات المجتمع

—التتمة من صفحة ٢٣—

الحروف العربية قديماً محدودة بمخارجها فلم يكن عندهم «الباء» الاعجمية فكانوا يقلبونها تارة « فاء » كما هي في « سولاخ باي سلحفاة » وتارة أخرى « باء » مثل « باي دار » و « بيطار » وقد عالجت العرب « الباء » والجيم والزاي والفاء والكاف . فأوجدت لها مخارج. وذكر ابن سينا في كتاب اسباب حدوث الحروف انها كانت مستعملة عند قبائل من القبائل العربيـة ، وقد صار العربي اليوم يستطيـع النطق بجميع الحروف الاعجمية وبهذا يسقط التغيير الحرفي الذي أوجبوه في التعريب .

وقد قرر المجمع اللغوي بمصر فيما يختص بالاصطلاحـات اربعة امور: أولها تفضيل اللفظ العربي على المعرب القديم ، الا اذا اشتهر المعرب ، والثاني النطق بالاسم المعرب على الصورة التي نطقت بها العرب وقد أسقطنا هـذا الشرط . والثالث . تفضيل الاصطلاحات العربية القديمة على الجديـدة ، الا اذا شاعت . والرابع تفضيل الكلمة الواحدة على كلمتين فاكثر منها ، عند وضع اصطلاح جديد ، اذا أمكن ذلك ، واذا لم يمكن ذلك ، فالترجمة الحرفية . أرادوا أن يقولوا « فان لم يمكن ذلك » ومن أوهام هذا العصر عدم التمييز بين إن واذا .

والظاهر أن المجمع يعني بالمعرب المشهور مثل اللجنة من « الليجيون » (Legion) الفرنسية أو أصلها اللاتيني ، والشرطة من (Securitas) اللاتينية ، والصراط من (Strata) اللاتينيـة والسلحفاة من « سولاي باى » الفارسية . ويعـني بالنطق بالمعرب على الصورة العربية عند العرب مثل اللطيني واللاطيني بمعنى اللاتيني ولا أراه واجباً في هذا الزمان لتطور مخـارج الحروف العربية عند العرب كما أومأت اليه. وهذا يعني اننـا لا نوجب قلب التاء طاء في الاصطلاحات المعربـة الحديثة كالفوتوغراف والسينما توغراف والترمومتر اذا اردنا تعريبهن نعم قالوا « بريطانيا » و « ايطاليا » وغيرها وصقلها الاستعمال أما اليوم فلا باعث على الابدال غير الصرفي ، وقـد يقال ان الأخذ بالتعريب القديم وخصوصاً في الاعلام فيـه فائدة تاريخية أو لغوية « كالاطربون » (Tribunus) وأرسطاليس وافلاطون (Aristote . Platon) ولكنا لا نرى فائدة في إلزام أنفسنا ان نقول « ديكارط وشاطوبريان وطاييس » فمن ترك هذا التفخيم فهو غير حليم لانه يستثير شيئاً من الاستغراب عند الكلام اذا فخم .

وعندي ان التعريب لا يعمد اليه الا بعد استعجاز العربية عن أداء المعنى بالفاظها الصريحة وينبغي أن يكتفى فيه بالتغيير الضروري اليسير ، وبهذا التحديد يجوز تعريب أسماء العقاقير ، والمائعات الطبية الحديثة ، والاثاث الجديد ، وألوان الطعام الجديدة ، والملابس الجديدة ، والامراض الجديدة ، وأفعال هذه الامراض كما قال القدماء برسم فهو « مـــبرسم » من البرسام. ويعرف البرسام اليوم بمرض ذات السحايا ، ولا ادري صحة هذه التسمية ، لاني بعيد عن الطب ، وقالوا نقرس فهو « منقرس » من النقرس ، وكذلك يستحسن تعريب جميع الأشياء التي لم يعرفها العرب من الاشجار والاطيار والحيوانات التي يتعذر وجودها في بلادهم ، ولم يصفها سياحهم القدمـاء ، ومنها الفلزات والجواهر ، ويشتق منها أفعال ، كما قال القدماء « كوفره » من الكافور و « طلسمه » من الطلسم ونورزه من النوروز ، ولا يفتني هنا ان اذكر ان طائفة من الراغبين في معاناة الاصطلاحات أباحوا التعريب بلا قيـد ولا شرط ، واستدلوا على ذلك بكثرة المعربات القديمة ولا أجـد رأيهم على صواب . فلو جمعنا جميع المعربات القديمة ، وقسمناها على سني الهجرة لكان نصيب كل سنة ثلاثة معربات او اربعـة أو خمسة . ثم ان المعربات اكـثرها فارسية الاصل ، وغير مجهول اختلاط العرب بالفرس منذ العصور الجاهلية ، الى اليوم خصوصاً في العراق ، فالتعريب كان قائماً على المجاورة الدائمة والمعايشة والخلاط والمتاجرة والمصاهرة ، واين هذا من التعريب المتناول من وراء البحار . انـك ان عربت الكلمة او لم تعربها لم تتأثر اللغة العربية ولا المجتمع العربي بذلك لان الانكليز لا يعرفون العربية ولا يعايشوننا حتى تحصل الفائدة من استعمال المعرب كما كان الفارسي يفعل وهو يتكلم بالعربية. ولم يتقيد القدماء بتعريب ما لا فائدة في تعريبه إلا في المعاهدات المحررة بينهم وبين الغربيين وذلك نحو كلمة « الترم » (Terme) أي القسط والنجم وجمعه تروم كنجم ونجوم وبدر وبدور ، فقد جاء في مسودة معاهدة الصلح بين السلطان صلاح الدين الايوبي والافرنج بعد فتحهم عكا سنة « ٥٨٠ » هـ وبعد رفض صلاح الدين معونة الجيش العباسي ، ان القرار وقع على ان يدفع صلاح الدين الى الافرنج فيما يدفع مائة الف دينار « في تروم ثلاثة أي في نجوم ثلاثة كل ترم شهر . وانقضى الـترم الاول في ثامن رجب من السنة المذكورة فانفذ الافرنج الى صلاح الدين يطلبون اليه الوفاء ، قال القاضي الفاضل « فقـال

لهم السلطان إما ان تنفذوا الينا اصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقي وليصل اليكم في ترومكم الباقية، واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه اليكم حتى تخرجوا إلينا اصحابنا » ذكر ذلك أبو شـامة في كتاب الروضتين وتمام الخبر هناك .

وقد يكون من الطريف ان اقول إن في كثرة التعريب إذلالاً للعربية ، كما أن « الترم » لم تدخل في هذه اللغة الايوم دخول الذل على أهلها كما نقلت في الخبر .

وكنت اشرت في الكـلام على الترجمة الى المصطلحات الغربية المركبة تركيبا مزجيا وهي مثل « سايكوسوماتيك Psychosomatic أي الطب النفسي والجسمي معاً وان شئت النفسـاني الجسماني ، وهـو مركب من «بسيك » أي النفس « وسوم » أي الجسم فالنطق به أصلاً يحتاج الى رياضة اللسان العربي أي « سايكوسوماتيك » وتعريبه خلو من كل فائدة . ولو كان مرضا جديداً لهان أمره ، ولكنه مركب من النفس والجسم فينبغي نقله الى العربية وكذلك امثاله وذلك بالتركيب المزجي أيضا فيقال الطب النفسجسمي واذا قرأ العربي هـذا الاسم أو سمعه يدرك المراد به في الحال وانما يقال النفسجسمي قياسا على البعلبكي والأحد عشري وفلان النهرَ ملكي والقصر قضاعي والبابصري والشارمساجي نسبة الى شارمساج مـن كورة الدقهلية بمصر ، ولا يصح النحت في هذا الاسم خشية التفريط في الاسم باضاعة شيء من الاحرف كأن يقـال « النفسجي او النفسجسّي » ممـا يبعد الاسم عن أصله فيختلط بغيره وتذهب الفائدة المرتجاة منه .

وعلى ذكر النحت أود ان اشير الى أني لا اركن اليه في المصطلحات الجديدة ، لانه نادر في العربية ويشوه كلمها . وما ذكره منه ابن فارس في مقاييس اللغة وفقه اللغة لا يعدو الظن والتخمين والتأويل البعيد ،وكل ما ثبت عندي منه عدة رموز جملية مثل « سبحل فلان » أي قال سبحان الله أو حوقـل قال لا حول ولا قوة الا بالله وطلبق قال أطال الله بقاءك ولولا أن هذه الجمـل كانت من الشهرة والتكرار بالمكان المعلوم ماستجازوا لها هذا الاختصار المضحك ،ثم إنه اتخذ للافعال لا في الاسماء ، أعني أنهم كانوا يقولون « سبحل فلان وحوقل » ولم يقولوا في العادة « اعتاد فلان السبحلة والحوقلة » فالمصدر لم يكن مُراداً مع أن وضعنا للمصطلحات يعني الاسماء قبل غيرها فاذا احتجنا الى الفعل اشتققناه من المصطلح .

هذه هي الاساليب الفعالة التي احسب انهـا تؤدينا إلى وجدان مفردات تعبر عن حاجات المجتمع الحديث في العلم والفلسفة والأدب ، أما توحيد هذه المصطلحات فيتم فيما أرى بأن يجتمع ممثلون ينوبون عن اللجان التي قدمت الكلام على تأليفها في الاقطار العربية في أحد هذه الاقطار ويعرضون ما اصطلح عليه أصحابهم ، ثم يختارون الضروري مـن تلكم المصطلحات بعد الاتفاق عليه بالبداهة ويبعثون به إلى صاحب سر المصطلحات في الادارة الثقافية للجامعة العربية وتقوم هذه الادارة بطبع معجم للمصطلحات تسميه «معجم المصطلحات »ثم توزعه بين وزارات المعارف في الحكومات العربية وهذه تنشره في المؤسسات الثقافية في بـلادها ، وفي كل مؤسسة تحتاج الى استعمال المصطلحات ، ويصبح مرجعاً لاساتـذة الكليات ومعلمي المدارس ومؤلفي الكتب الدراسية والتقارير الفنية ، وتبقى لجان المصطلحات عاملة لا يفوتها مصطلح جديد ، فاذا اجتمع لديها ما استحق النشر ، فانه ينشر على الطريقة المار ذكرها في كراسة ، وتوزع الكراسة كذلك التوزيـع ، واذا مـا نفدت طبعة المعجم وأريدت إعادة طبعه أدخلت فيـه تلك المصطلحات الجديدة فهو تام متزايد أبد الدهر وعلى مرّ السنين كالذي نعلمه من معجم لاروس الفرنسي العام وغيره مـن المعجمات الغربية .

هذا ونحن نعتقد أن قضية المصطلحات العربية إن لم تعتنقها الادارة الثقافية في الجامعة العربية وتسعى في نشرها في أقطار العروبة على النحو الذي ذكرنا بجد وصراحة ، فلا نجاح لها ابداً .

مصطفى جواد

عن ادباء العراق

مع الأدباء العرب

انعقد اسبوع ادباء العرب في لبنان بين الثامن عشر من ايلول الماضي والسادس والعشرين منه في فندق بيت مري الكبير وحضره عدد كبير من رجال الادب والعلم في الاقطار العربية. وكان وفد مصر مؤلفاً من الدكتور طه حسين (الذي اعتذر في آخر لحظة عن الحضور وعن القاء محاضرته حول تبعات الاديب) والدكتور حسين هيكل واحمد رامي والسيدة امينة السعيد ومحمود تيمور وحبيب جاماتي.

وكان وفد العراق يضم الدكتور مصطفى جواد وروفائيل بطي والدكتور عبد الحميد الكاظم والدكتور عبد الرحمن الجليلي والدكتور حسن الشلبي وحارث طه الراوي.

وكان وفد سوريا مؤلفاً من فؤاد الشايب وعمر ابو ريشة والدكتور كامل عياد والدكتور عزة النص والدكتور صلاح الدين المنجد وشاكر مصطفى وسامي الكيالي وسعيد الجزائري وخليل هنداوي وحلمي اللحام.

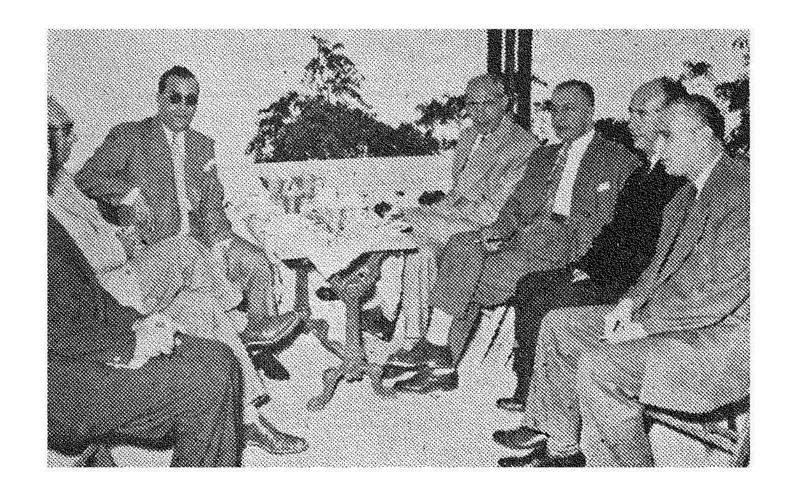
وكان وفد الاردن يضم عبد الحليم عباس (الذي اعتذر عن الحضور) وخالد الساكت الذي القى محاضرة مندوب الاردن وحسني فريز. وكان الوفد السعودي يتألف من عبد العزيز الرفاعي وحسن عواد.

اما الوفد اللبناني فكان يضم اعضاء اللجنة الادارية لأهل القلم واعضاء اللجنة الوطنية.

وقد القيت في المؤتمر ست محاضرات اولاها: «الادب العربي وازدواجية اللغة» لممثل لبنان الاستاذ فؤاد افرام البستاني، والثانية «واجبات الدولة نحو الأدباء من حيث تسهيل وسائل الانتاج وحماية الملكية الأدبية واطلاق حرية التفكير والقول وتأمين العيش الكريم لهم، ثم واجب الادباء نحو الدولة والمجتمع العربي» لممثل المملكة الاردنية الهاشمية الاستاذ عبد الحليم عباس، والثالثة «الأساليب الفعالة التي تؤدي الى ايجاد مفردات تعبر عن حاجات المجتمع الحديث في العلم والفلسفة والأدب، ثم توحيد هذه المصطلحات في جميع الاقطار العربية» لممثل العراق الدكتور مصطفى جواد، والرابعة «حرية الفكر» لممثل سوريا الدكتور كامل عياد، والخامسة «الفنان بين الواقع والالهام» لممثل مصر الاستاذ محمود تيمور (بدلاً عن الدكتور طه حسين)، والسادسة «الوسائل المؤدية الى توثيق العلائق بين الأدباء في الاقطار العربية، وافادة بعضهم من بعض ونشر مؤلفاتهم ووضع تشريع خاص يؤمن للكتاب الانتقال الحر واقامة رابطة ادبية في كل بلد عربي». لممثل المملكة العربية السعودية الاستاذ حسين عواد (*).

وقد القيت على هامش المؤتمر محاضرتان اخريان اولاهما للاستاذ رينه حبشي عن «الادب العربي الحديث بين الازمة والتقدم» والثانية للاستاذ

(*) يجد القارىء نصوص المحاضرات الاربع الاولى في هذا العدد من «الآداب». اما محاضرة المندوب المصري فقد سبق ان نشرت، واما محاضرة المندوب السعودي فاقتراحات عملية اخذت بعين الاعتبار في وضع توصيات المؤتمر التي يجدها القارىء في مكان آخر.



من اليسار: روفائيل بطي، شفيق جبري، الدكتور عزة النص، الدكتور كامل عياد، فؤاد الشايب، حلمي اللحام، سعيد الجزائري

*

سامي الكيالي حول نظرات في الأدب العربي الحديث.

واقيمت في اثناء المؤتمر ثلاث ليال شعرية القى فيها عدد من الشعراء قصائد من نظمهم، وليلة زجلية شارك فيها بعض الشعراء الزجليين في لبنان.

وتألفت لجنة من بعض مندوبي الوفود لوضع توصيات المؤتمر ومقرراته.

وفيما يلي تفاصيل المناقشات على محاضرات المؤتمر ومقرراته:

مناقشة محاضرة المندوب اللبناني

علق الاستاذ روفائيل بطي (من الوفد العراقي) على محاضرة الاستاذ فؤاد افرام البستاني عن «الادب العربي وازدواجية اللغة» فتساءل لماذا دمج المحاضر موضوع الالفاظ والحروف عاميها وفصيحها باساليب الكتابة العربية على ممر العصور والموضوعات التي طرقها الناظمون والكاتبون. فتلك انماط في النثر دبجها الكتاب للخاصة لا لجمهور القارئين والمتحاورين وظلت صفحات مدونة في تاريخ ادبنا لا يلجأ اليها اديب اليوم الا عند التندر. واضاف: «ثم لا نعلم لماذا اعتبر مكاتبات التجار ودفاتر البقالين وحوار الصبية وأهازيج العوالم ادباً يتساوق مع النثر الفني والقصيد المحكم... فالكلام العادي المحكي والمكتوب الذي يستوعبه كل ابناء المجتمع ليس ادباً بمعناه الصحيح... واللغة العامية اعجز من ان تعبر عن خوالج الفكر واحاسيس القلب تعبيراً وافياً. وأوضح دليل على ذلك ان النهضة الادبية عند العرب قامت على اللغة الفصيحة قديماً وحديثاً ولم يحفظ لنا تاريخنا الادبي بتراثه الضخم الا النزر اليسير من المكتوب باللهجات العامية. وليست لغتنا العربية بدعاً في هذا الازدواج بين محكيها ومكتوبها.

وقال الاستاذ بطي اننا نخطىء كثيراً اذا شئنا ان نبسط الادب الحي فنجعله قولاً مبتذلاً رخيصاً، لاننا بذلك ننزل الادب من سماء الفن الرفيع. وأخذ على المحاضر حملته على المترادف والمتوارد في لغة العرب وتسميته عباراتها بالمحنطة والمغلقة بينما هي ادوات ثمين على اجادة البيان وسحر البلاغة. وعارضه في ان الازجال وحدها تعبر عن عبقرية الشعب الاندلسي الادبية، كما ان «الف ليلة وليلة» ليست وحدها من الادب الشعبي الصميم مع التأكيد انها لم تكن بالعامية المحض، فكثير من الاقاصيص والحكايات

النشاط الثقافي في العالم العربي

مع طائفة من الشعر الحماسي قد أصابها كلها الذيوع على تعاقب الحقب . وإنما فتن المستشرقون بالف ليلة وليلة لما عكسته من اطوار اجتماعية لبيئتنا العربية صادفت هوى في نفوس الغربيين . ثم ان الادب العربي لا يزال في آذان العرب وبخاصة اهل التوحيد يرن مع جرس فصاحة القرآن الكريم، فنجد اشد الافراد سذاجة يتساوون مع النخبة الذواقة في الفصاحة في متعة سماع التنزيل واسترواح تلاوته .

وخالف المعلق المحاضر في ان تمسكنا بالتعابير اللغوية الدقيقة يجعلنا اناساً ذوي شخصية مزدوجة من الناحيتين النفسية والاجتماعية ، وانهى تعليقه بان المشكلة تحل حلاً طبيعياً عندما يستقيم الحكم في البلاد العربية ، فتتفرغ الحكومات منفردة ومجتمعة تعاونها الهيئات المختصة المعنية بالموضوع لاصلاح طريقة تعليم اللغة وضبط قواعدها وخلق المعلم الجديد ووضع الكتب المدرسية المبتكرة وفقاً للتقدم العلمي الحديث .

وناقش المحاضرة عدد من الادباء ، فقال حبيب جاماتي انه لا بد في كل لغة من فصحى وعامية وان خير وسيلة لازالة المشكلة تسهيل الفصحى وتيسيرها ورفع مستوى العامية. وقال الاب حنا فاخوري بضرورة استعارة المفردات من العامية وبتطوير الفصحى . واقترح جميل جبر ايجاد هيئة تتبنى الكلمات وتكرس المفردات الجديدة ، وطالب بأن يعيش الاديب على الارض اي ان ينزح مادة مفردأته من الواقع ؛ واعاد رشاد داراغوث اقتراحاً له بضرورة دراسة الادب من العصر الحديث رجوعاً الى العصور القديمة . وقال عبدالله لحود ان المحاضر بالغ كثيراً في المشكلة ، وهي من ابسط المشكلات ، وأضاف ان ايسر الحلول ان نعلو قليلاً بالعامية حتى تقرب من الفصحى وننخفض بالفصحى حتى تقارب العامية وتساءل عن علاقة ازدواجية الشخصية بازدواجية اللغة .

واعترف خليل هنداوي بخطر ازدواجية اللغة ، وضرب لذلك مثلاً بان احدى دور الاذاعة طلبت اليه وضع تمثيلية بالعامية ، فلم يستطع ان يخط حرفاً اذ ان القوالب العامية لم تلب افكاره ، فاضطر الى كتابة المسرحية بالفصحى ثم بدأ يعربها الى العامية ... وقال إن هذا يعني ان اللغة المكتوبة هي اللغة التي فرضت علينا قوالب تفكيرنا وتعبيرنا ، وليست اللغة مسؤولة عن استخدامنا هذه القوالب، وانما المسؤول عنها من حنطوا انفسهم داخلها، فليست هنالك قوالب محنطة ، بل ادباء محنطون . ودعا اخيراً الى تكييف اللغة الفصحى تكييفاً يلائم حياتنا ومجتمعنا .

ويرى عبد اللطيف شرارة ان هناك ادب لغة وادب شعب ، وان ادب اللغة اليوم في انحطاط ، وينبغي ان يوجه الشعب توجيهاً حراً وهو الذي يصنع اللغة وهو الذي يحسن ما فيها من عيوب . وقال واصف البارودي : اتركوا الحياة تجري في مجراها الطبيعي تحل قضية اللغة .

ورد فؤاد افرام البستاني على المعلق والمناقشين فقال إنه لم يحمل على الفصحى ولا ناصر العامية ، واضاف باننا لم نخرج بتحديد واضح للمشكلة ، ولكنه اعترف بان الازدواجية هي الآن في طريق تضييق الشقة بين العامية والفصحى ، واننا سنحل المشكلة بتضافرنا في تعزيز انتشار اللغة الفصيحة المتطورة يوماً فيوماً وطالب بضرورة مساعدة التطور لا افتعاله وفرضه .

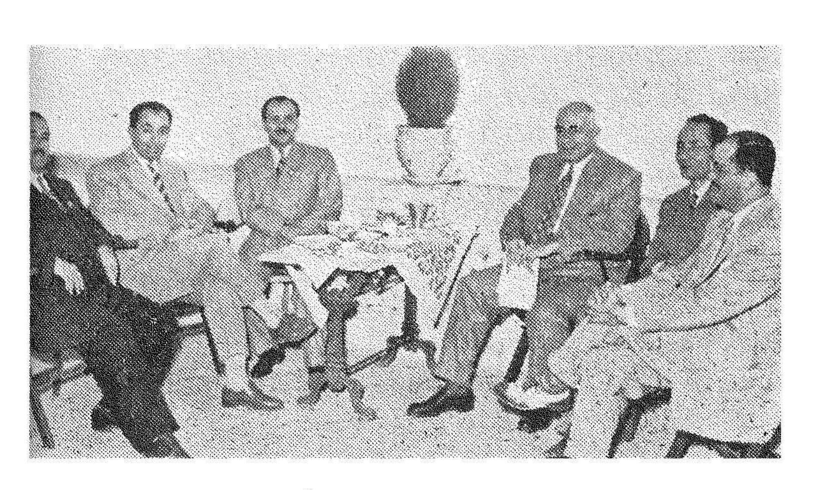
مناقشة محاضرة المندوب الاردني

اما محاضرة الاستاذ عبد الحليم عباس في « الأدب والدولة والمجتمع » فقد علقت عليها السيدة امينة السعيد (من الوفد المصري) فأقرت المحاضر على المطالبة بترك معونة الحكومات والاقتصار على المطالبة بحرية التعبير ، لأن المساعدة المادية او الأدبية تكبل الأديب بقيود وتثقله بالتزامات لا بد ان تقف دون اخلاصه في اداء رسالته وصراحته في اعلان ما يمليه عليه ضميره . ثم علقت على حديث المحاضرة عما يعانيه الكاتب من الناس فقالت إن الاقلام تعاني من الرأي العام اضعاف ما تعاني من تشدد الحكومات بسبب ضعف الثقافة بين افراد الشعب .

ولكن السيدة السعيد اخذت على المحاضرة ان معظمها يتناول الأدب السياسي و « الأدب ليس سياسة فحسب ، فهناك الأدب النفسي ، والأدب الاجتماعي والأدب كفن مستقل بذاته... فالحديث عن الاديب كسياسي خروج عن صميم فنه الرفيع ؛ فقد كان الاديب فيما مضى سياسياً واقتصادياً ومشرعاً وموجهاً ، وكانت كلماته فصل الخطاب فيما يبلبل الافكار او يعقد الحياة . ولكن الأمر يختلف اليوم كل الاختلاف ، اذ انقسم نتاج الفكر وتوزع ، وأصبح لكل فنه واختصاصه ، فانتقلت السياسة الى الصحافة ، واصبحت مهمة صاحبة الجلالة ان تناقش هذه الناحية وتنتقدها وتوجهها ، فلا يصح اذن ان نجبر الاديب على هجر فنه الرفيع الا في حدود معينة . »

وذهبت المعلقة الى انمحنة الادب ذات وجهين: احدهما داخلي مبعثه ضعف الايمان بكرامة الاديب في نفوس بعض الكتاب واستغلالهم لأقلامهم فيما يتعارض مع دستور الفن الرفيع ، هؤلاء يسيئون الى الأدب . والآخر خارجي مبعثه مسايرة الجماهير والانقياد لها بدل قيادتها ، وفي هذا اساءة الى الوطن باخفاء الحق والنفاق وتضييع كرامة الادب بالخنوع ...

وقالت السيدة السعيد: « ونحن اذ نطالب الحكومات ان تمنح الاديب حقه الشرعي من الحرية المطلقة ، فلا يغيب عنا ان نقدر ما لهذه الحرية من حدود والتزامات في بلادنا التي يؤمن فيها القارىء بكل كلمة يسطرها الكاتب ، وهذه مسؤولية خطيرة تجعل رسالة الكاتب فنية وتربوية في آن واحد ، وليس من المصلحة العامة ان ننطلق مع حريتنا دون قيد ولا شرط ،



من اليسار : خليل هنداوي ، شاكر مصطفى ، الدكتور سهيل ادريس ، سامي الكيالي ، قحطان الجندي ، يحيى الشهابي

النشاط الثقافي في العالم العربي

خشية ان نضلل الاذهان والنفوس . »

وأخذت المعلقة على الاديب العربي تقصيراً في الاستجابة للحياة المحيطة به ، وقالت إن الادباء لم يقصروا في الدفاع عن فلسطين ، وختمت تعليقها بان يقطع الادباء المؤتمرون عهداً على انفسهم يسمونه « ميثاق الشرف » يتعهد كل اديب بمقتضاه الا يكتب الا ما يمليه عليه ضميره وما يوعز بـه ايمانه ، وان خاف نتائج الصراحة فلا اقل من ان يسكت وينصرف الى طلب الرزق عـن طريق الانتاج الأدبي الفني ، وفيـه الكفاية اذا كان حقاً اديباً ... »

وكان ممن شاركوا في المناقشة رشاد دارغوث فقال إن حق الأديب بالحرية يقابله واجب ، والحرية التي يمارسها بعض رجال القلم تجاوز الفوضى ، كأن ينهض بعض الناشئين هنا وهناك لتهديم ادباء كبار . وان على الاديب العربي ان يبدأ بنفسه فيحررها من عبوديات الغرور وشهوات الظهـور وخساسات المادة ، فيكون رجلاً خليقاً بمركز القيادة في الأمة .

وقال حبيب جاماتي : إن علينا ان نحدد ما هو واجب الاديب نحـو وطنه وحكومته وجمهوره ، وما هي حقوقه بالمقابل . وعارض واصف بارودي ان يكون لأحد ان يوجه الاديب الذي لا يطلب حرية بل هو يحققها ، واقترح ان يعنى المؤتمر بالتمييز بين المتأدب والاديب .

اما الدكتور حسين هيكل فقد عارض السيدة امينة السعيد وجاماتي وقال بأنه لا يجوز ان يكون للحرية قيد وخاصة في عالم الادب ، لأن اي قيد للحرية هو اساس للاستبداد ، والحرية المطلقة التي لا حدود لهـا هي التي تنظم نفسها ، والاديب الكاتب الجدير هو الذي يستطيع ان يعـرف حدود حقه وحدود واجبه ؛ اما ان نضع حدوداً وقيوداً للحرية فهذا يعني اننا لا ثقة لنا بانفسنا .

وطالب روفائيل بطي باتخاذ قرار لاحياء آثار بعض الادباء الخالدين ، ثم دعا الى ضرورة التفريق بين الادب والكتابة السياسية ، وهو يرى ان محنة الادباء مع شعوبهم ، في تحجر بعض افكارها ، اعظم من محنتهم بالقوانين التي تحد من حرية الكاتب .

وقال مدحت فتفت (مندوب اللجنة الثقافية في الجامعة العربية) بضرورة اعطاء الحرية لكبار الأدباء . اما صغارهم فيجب ان تقيد حريتهم لأنهم قد يستعملون الحرية للاساءة !

وقال حسني فريز دفاعاً عن المحاضر ان الواجب ان نوجه ادبنا لخدمة مجتمعنا ، ولا مناص لنا آنذاك من ان نعنى بالامور السياسية ، وعليـه فيجب على الاديب ان يتخذ من قضية الحرية السياسية قضيته الاساسية .

وقـال خالد الساكت : إن حرية الأديب العربي جزء لا يتجزأ مـن حرية الشعب العربي ، فعليه ان يحارب الظلم والاضطهاد وان يقود معركة الحرية في الوطن العربي ، وليس هناك خلاف بالضرورة بين الاتجاه نحو الحرية وبين خلق الادب الذاتي .

مناقشة محاضرة المندوب العراقي

وكان الدكتور كمال الحاج المعلق على محاضرة الدكتور جواد ، فأخذ عليه انه وقف من قضية المصطلحات موقفاً لغوياً فقط ، ورأيه ان البحث في اللغة قضية فلسفية بالأساس ، ثم قـال : « ان اللغويين يعرفون اللغة علماً ، ولكن قل من احكمها عملاً » . ولهذا اخفق اللغويون وفشلت المجامع اللغوية في ايجاد المصطلحات التي تعبر عن مشخصات عصرنا الحاضر . ان البحث في اللغة هو بحث في الانسان الذي يتكلم اللغة ، اذ لا لغة بدون انسان . لقد كانت اللغة عين الانسان ، بل عين عينه ، بها قوامه وبها بقاء نوعه ، وهذا يعني ان اللغة ملكة اولى تنبثق من صميم الانسان انبثاقاً حياتياً . إن منطقها منطق الطبع البشري ، لا منطق المجامع اللغوية . وحياة اللغة فوق محنطات قواعد صرفها ونحوها واشتقاقاتها .

ويرى الدكتور الحاج ، على ضوء هذا المبدأ ، ان اللغة غـاية لا واسطة ، لان وجودها معاصر لوجود الانسان ، وعلى هذا ايضاً ينبغي ان نترك الانسان يعيش لغته بالفعل ، قبل ان يطلبهـا بالقول ، حينئذ تأتي المفردات بصيغتها اللفظية امتداداً للحيـاة . ويضيف : « ان كلمة الزم اصوب لغة » والحياة تقول « الكبت افضل ، هذه مشيئتي لتكن » فكانت مشيئة الحياة . ومشيئة الحياة واحدة لا اثنتان . وان فهم المصطلحات على انها رموز الى مسمياتها وكنايات عنها هو تحريف لحياتية اللغة ، فالواقع ان المصطلح توقيف يستمد توقيفيته من الحياة ، اي من العمل ذاته . وعـلى هذا فان المصطلحات يضعها من يزاولمعانيها والا بقيت في حكم المات . فتى وجد الفيلسوف وجدت معه المصطلحات الفلسفية وكذلك العالم والاقتصادي . الفعل اولاً ثم القول به ثانياً ، او الفعل والقول متعاصران . وهذا يعني ان وضع المصطلحات عمل تشترك فيه الامة كلها . فهذا عمل اوسع من التفتيش في الكتب ، انه قضية استعمال قبل كل شيء ، والاستعمال هو المنطق الذي تفرض به الحياة عنفوانها الصارم .

ويستطرد الدكتور الحاج الى القول بان اللغة العربية قادرة على ان تجاري اوسع اللغات ، شرط ان نريد نحن هذه المجاراة الواسعة . انها مرآة تعكس احوال الامـة ، وهي اصدق سجل لنشاطاتها . ومن هنا كان الناس هم الذين يخلقون اللغة من صميم الحياة « فلا المجامع اللغوية ، ولا وزارات المعـارف ولا الحكومات العربية ولا الدائرة الثقافية

اشتات ادبية

● منحت الحكومة اللبنانية الاستاذ صلاح لبكي رئيس جمعية أهل القلم وسام الارز تقديراً لنتاجه وما بذله من جهود في مؤتمر الادباء العرب .

● لوحظ غياب الاساتذة ميخائيل نعيمة وعبدالله العلايلي وسعيد عقل عن مؤتمر ادباء العرب ، مع ان جمعية أهل القلم وجهت اليهـم دعوات خاصة للحضور .

● يفكر الاستاذ فؤاد صروف باعادة اصدار مجلة « المقتطف » على ان تصدر في بيروت . فاذا تم ذلك ، فستعود هذه المجلة العلمية الى الصدور في المدينة التي انبثقت عنها اول مرة .

● تصدر هذا الشهر عن دار العلم للملايين الكتب التالية : « معالم الفكر العربي » للدكتور كمال اليازجي و « افول القمر » لكالدويل وترجمة الاستاذ منير البعلبكي و « في ظل الاشتراكية » للاستاذ عبد السلام الأدهمي و « بستان الكرز » مسرحية لتشيخوف وترجمـة الدكتور سهيل ادريس و « دروب » للاستـاذ ميخائيـل نعيمة ، و « السابقون » للاستاذ قدري قلعجي .

● جاءنا من الزميلة « الثقافة الوطنية » ان عددها القادم سيتأخر صدوره حتى منتصف هذا الشهر ، بسبب انه سيكون عدداً مزدوجاً يحتوي الابحاث الفكرية التي القيت في مؤتمر الكتاب العرب في دمشق والمقررات التي صدرت عنه .

النشاط الثقافي في العالم العربي



من اليمين : يوسف غصوب ، عبد العزيز الرفاعي ، عمر ابو ريشة ، مارون عبود ، فكتور حكيم

✡

في الجامعة العربية بقادرة على ان تفرض مصطلحاً واحداً على الشعب اذا كان لا يحمل اولاً في اعطافه جواز مرور من الشعب ذاته » .

وانهى الدكتور الحاج تعليقه بان تمنى على المؤتمر التبشير بضرورة الترجمة ، بحيث نضع بين الايدي الفاظاً تتفاعل فيما بينها على محك الذوق السليم الجماعي ، فاما ان تقبل واما ان تنبذ ، ومن ثم يأتي عمل المجامع واللجان اللغوية ، وكذلك التبشير بنسف الحواجز الجمركية بين البلاد العربية في وجه الكتاب العربي وكذلك ضرورة اعطاء العلوم والفنون والصنائع باللغة العربية في المدارس والجامعات .

وحين جرت المناقشة على محاضرة الدكتور جواد طالب رشاد دارغوث بان نيمم وجهنا شطر العالم لنأخذ كلمات « الرادار » و « التلفزيون » و « السينراما » الخ ... وتمنى حبيب جاماتي ان يشارك علماء اللغة ومجامعها في ايجاد الكلمات اللازمة ، وقال إن الصحفيين يحلون المشكلة خيراً مما يحلها العلماء والادباء . وايد عبد الله لحود كلمة المعلق في ان على العمل اللغوي ان يكون عملاً حياتياً ، ولكن ينبغي لنا ان نعاون المؤسسات الرسمية في العمل ، واقترح انشاء مجلة تجمع خلال شهر المصطلحات الشائعة في البلدان العربية وتنشرها على علاتها موقتاً ليصار الى السعي الى توحيدها .

وأخذ الدكتور خليل الجر على المعلق انه ظل يحلق في جو الفلسفة بعيداً عن الواقع الملح . وقال إن اللغة واسطة للتعبير لا غاية كما قال المعلق وذهب الى ان هناك نوعين من المصطلحات : الأول ما يعبر عن حالات نفسية ، وهذه نعيشها ونفرضها بعد ان نشعر بها ، والثاني ما يعبر عن أمور ليست داخل الانسان وهذه رموز لا اكثر . إن اللغة بالاجمال محض مصطلحات ، وليس ضرورياً ان يعيش الشعب كلمة لنكرسها ، لانه لا يستطيع ان يحيا عشرات الالوف من الكلمات ، ونحن اذا تركناه يختار الكلمات وقعنا في فوضى ، وعليه فلا بد من ان تكون الكلمات العلمية موحدة .

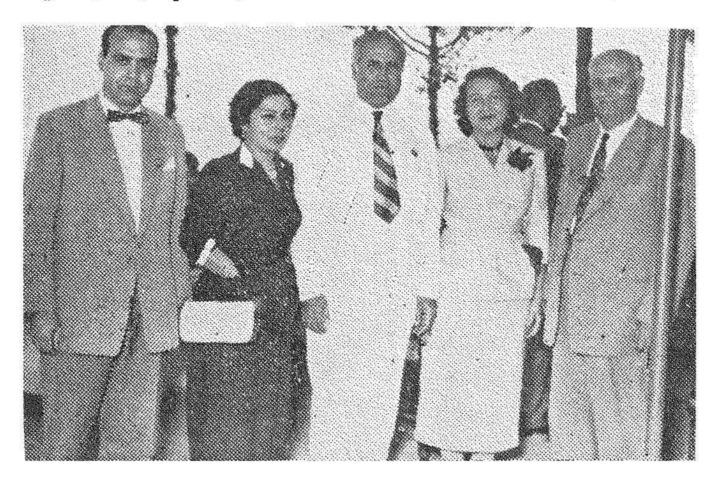
وتحدث الدكتور صلاح الدين المنجد عن جهود مجمع دمشق وطالب بضرورة العودة الى الكتب القديمة لاستخراج المصطلحات . ودافع روفائيل بطي عن المحاضر وطالب بأخذ الكلمات الاجنبية الموضوعة للمخترعات الحديثة وعارض بترك الامور الى اللجان التي تقبر المشاريع .

وكان رأي واصف بارودي ان تبذر الكلمات للشعب يختار منها ما يصلح ويميت ما لا يصلح . وقال عبد اللطيف شرارة إن قضية المصطلحات تتعلق بكل فرع من فروع المعرفة وليست هي قضية فلسفية ، واقترح انشاء مجامع علمية ومعجم فلسفي للكلمات العربية القديمة وتعريب الكلمات العالمية بشكلها الخاص .

ورد الدكتور مصطفى جواد على المناقشين فقال : إنه تقدم بمحض اقتراحات تقريرها من حق الامة ، وقال انه لم يكل الأمر الى المجامع اللغوية بل دعا الى تأليف لجان ، واقر ان الاصطلاحات رموز لا اكثر ، وقال إن الفيلسوف مثلاً لا يستطيع ان يترجم الا اذا كان مطلعاً على المصطلحات العربية ودعا الى التخلي عن المعرب الثقيل .

مناقشة محاضرة المندوب السوري

اما محاضرة الدكتور كامل عياد عن « حرية الفكر » فقد علق عليها الدكتور عبد الحميد الكاظم (من وفد العراق) فقال : إن الموضوع شائك ومعقد لاتصاله بحياة كل فرد وكل هيئة وبالتاريخ والتفكير الانساني ، ولاحظ ان المحاضر قد اطال وتمهل عند بحثه حرية الفكر عند اليونان واختصر في استعراضه تطوره في القرون الوسطى وخاصة عند المسلمين . ثم انه لم يكن واضحاً في بعض آرائه ، فقد قال إن الحرية مقيدة ولكنه لم يبين لنا حدود هذا القيد وشروطه وقال بالحرية العادلة وغير العادلة ولكنه لم يوضح الحدود الفاصلة ، هذا فضلاً عن بعض التناقض : فمرة يرى ان الأمر قد انتهى في العالم الاسلامي الى الجمود والخمول ، ثم يقول إن الحرية الفكرية هي من التقاليد الرئيسية في الفكر العربي . وعارض المعلق قوله بالنضال الطبقي وقال إن هذا لا ينسجم مع مصلحتنا القومية من جهة وليس هو بالظاهرة الحتمية من جهة اخرى ، كما عارضه لقوله بان شواهد الاضطهاد الفكري في اليونان تؤيد حرية الفكر وان الحكم على سقراط كان من أروع الشواهد على سلطان حرية الفكر . واضاف ان بحثه كان خلواً من التطرق الى الطبيعة البشرية وعلاقتها بالحرية الفردية كما انه اكتفى بالكلام عن الحرية الاجتماعية ، تاركاً الحرية الفردية التي هي ، في رأي



من اليسار : الدكتور صلاح الدين المنجد ، الدكتورة زاهية قدورة ، عادل عسيران رئيس المجلس النيابي اللبناني، الآنسة جميلة خوري، روفائيل بطي

النشاط الثقافي في العالم العربي



من اليمين : الدكتور عبد الحميد الكاظم ، الدكتور مصطفى جواد، يحيى النجار ، حارث طه الراوي

*

المعلق ، اساس للحريات الاجتماعية .

وقال الدكتور الكاظم: لا اعتقد ان هنالك موضوعاً اسيء فهمه كموضوع الحرية ، في غرفة الدراسة وفي الصحافة والسياسة والبيت والأدب ، بسبب جهلنا لمعناها وحدودها . فان حريتنا تتوقف عندما تبدأ حرية الآخرين ، ولكن مجال الحرية ضمن هذا الحد واسع يساعد على نمو الشخصية وازدهارها ، ولايمكن مساعدة الأنسان في انماء شخصيته وبالتالي التمتع بالحرية الا اذا ادركنا ان هناك قوتين تلعبان في حياة الأنسان ومجتمعه : الأولى هي ما ورثه من ميول وغرائز ، والثانية هي القوى المتمدنة فيه ، ولا يمكن ان تفهم الحرية إلا بالتوفيق بين هاتين المجموعتين ، فليس الانسان حراً اذا اطلق لغرائزه العنان وليس حراً اذا كبتها ، وليس حراً اذا خضع للتقاليد او اذا ثار عليها ، وإنما هو حر اذا توصل إلى التوفيق والانسجام وهذه وظيفة التربية .

وكان ممن ناقشوا المحاضرة بعد ذلك الدكتور جورج حنا فقال مما قاله: « لقد رأيت بين من صفقوا للمحاضرة ادباء ساهموا في حمل سيف النقمة المصلت على الفكر ورجاله عندما كانوا من حملة السيوف ، وكدت أهمّ بسؤالهم عما كانوا يفعلونه بالأمس وما يفعلونه الآن لولا حرمة الموقف... فالاديب بنظري ليس من يكتب الأدب ويصوغه صياغة فنان فحسب ، انما الاديب من يعيش ادبه سواء كان في صفوف الادباء المحكومين أم في صفوف الأدباء الحاكمين . »

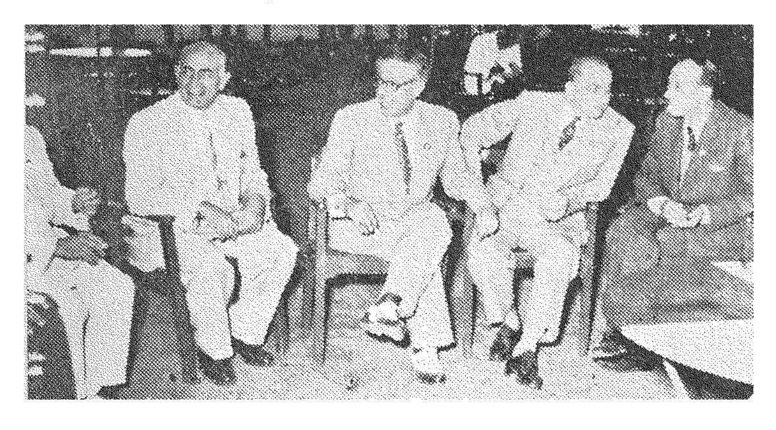
ويرى الدكتور حنا ان أقل الناس كفاءة لتحديد مفهوم الحرية رجال السياسة في أي بلد ، وعلى الاخص في البلدان التي لا يحكم فيها الفكر والعلم والمعرفة ، بل تحكم بوحي من اعتبارات وراثية او اقطاعية او لاهوتية او استعمارية . ثم يرى ان الاكفاء لتحديد هذا المفهوم هم الادباء الذين يعيشون مجتمعهم ويتكلمون بلغته ولا يسلخون انفسهم عن اصول الحياة ، ويضيف ان الفترة الحرجة التي يمر بها وطننا العربي هي احوج ما تكون لاعطاء الحرية مفهومها الصحيح ، فلا يبقى هذا المفهوم لعبة في أيدي رجال السياسة والحكم ، وان الادب لن يقوم برسالته في العالم العربي ما لم يكن ادباً متمرداً وخلاقاً . وانهى الدكتور جورج حنا كلمته باقتراح شجب التدابير الزجرية التي تتخذها الحكومات العربية لخنق حرية الفكر واضطهاد رجاله .

وتكلم بعد ذلك الدكتور كريم عزقول ، فاستشهد بفقرات كثيرة من محاضرة الدكتور عياد تدل على تناقض في فهم الحرية ، فتارة تفهم منها الدعوة الى الحرية المطلقة وتارة الى الحرية المقيدة . وقال: يبدو ان المحاضر بدأ الكتابة وفي فكره رأي مسبق بتقييد الحرية. والحرية هي الكلمة الوحيدة التي لا يمكن تحديدها من غير افنائها وسلبها ونفيها . ويرى الدكتور عزقول ان المحاضرة لم تتعرض لما هو مشكلة التاريخ الحالي ، وانها تتجاهل المشاكل الاساسية التي يعالجها العالم اليوم ، وانها كان جديراً بها ان تلقى منذ عشرين سنة ...

وقالت السيدة اميلي فارس ابراهيم إن المحاضر اقام محاضرته على اساس صحيح ، على انها لا تسلم بتقييد حرية الفكر مهما كانت الغاية ، لان من بيدهم مقاليد السلطة سيستغلون هذا التقييد لفرض آرائهم وتحقيق رغباتهم ، وحذرت من المتاجرة الرابحة التي يلجأ اليها من يستغلون الضغط الذي تمارسه السلطات بحقهم لخلق موجة من العطف عليهم قد تسيء اكثر من افساح المجال امامهم لنشر آرائهم بكل حرية .

وتكلم الدكتور الشلبي فتساءل : لماذا يخشى من تحديد الحرية ما دام المقصود من التحديد تنظيم فكرة الحرية على نحو يجعلها اداة انشائية "موجهة في المجتمع ، تقوي من قابليات الابداع في افراد المجتمع . وهو يرى ان فكرة الحرية يجب ان تكون فكرة تشريعية وتنظيمية لبناء المجتمع ، ويرى وضع حدود تقريبية بين الحرية التي تبني والحرية التي تهدم ، واحسب ان الحرية المطلقة في هذا العصر لا يمكن ان تقدم اي انتاج مجد .

وتكلم الدكتور سهيل ادريس فتمنى لو ان المؤتمر قصر اعماله هذا العام على موضوع حرية الفكر الذي هو اخطر موضوع نواجهه ، لا سيما وانه يتصل اتصالاً وثيقاً بعدد من قضايانا الادبية الكبرى ، ومعنى هذا ان دراسته دراسة تفصيلية مدققة كان جديراً بها ان تيسر لنا كثيراً من هذه المشكلات الاخرى . ثم أخذ على المحاضر اهماله الناحية الفلسفية من الموضوع. ولولا ذلك لأكسب موضوعه حظاً اوفر من التركيز والتقعيد ، وقال



من اليمين : احمد رامي ، حبيب جاماتي ، امين نخلة ، سامي الكيالي ، يوسف غصوب .

النشاط الثقافي في العالم العربي

مقررات مؤتمر ادباء العرب

١ – مقدمة

ان مؤتمر ادباء العرب الذي انعقد في بيت مري –لبنان، بين ١٨ و٢٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٤ وفقاً للاهداف التي وضعها ، والحاقاً بالابحاث التي القاها اعضاؤه ، يعلن ما يأتي :

ان الشعوب العربية التي تتوفر لها روابط القربى والجوار واللغة والمصلحة المشتركة ، مما لا سبيل الى انكاره ، لترقى الى مستواها الانساني الارفع بنضالها التحريري المستمر في سبيل الانسان والقيم الانسانية العليا ، وهذا النضال هو امتداد لذاتها التي تمثلت في مجهود انساني مشترك ما فتىء يتكامل عبر الاف السنين في سبيل حياة افضل. والفكر العربي تمشياً مع روح العروبة التي هي حركة انسانية لا ينشد إلا الحرية والخير والحق ويناضل ضد الظلم والطغيان والاغتصاب .

واللغة العربية ملك ثمين للأمة العربية، وهي رابطة روحية بالاضافة الى كونها اداة التعبير عن الفكر العربي وصلة التفاهم بين الجماهير العربية.

والاديب العربي ملزم تجاه كيانه القومي بواجب احترام سيادة هذا الكيان وحريته فلا كيان لأديب ليس له كيان قومي ولا حرية لأديب إلا في وطن حر . فالاديب من ثم ملزم بواجب تبعي تجاه مواطنيه ، أي جمهرة الشعب الذي ينتسب اليه ألا وهو الدفاع عن حريتهم ، فالوطن الحر لا ينهض إلا بسواعد حرة ، ولا حرية لوطن إلا بحرية مواطنيه ، وان حرية الفكر والمفكرين لتبقى وهماً وخرافة ، ما لم يرفع الاديب مواطنه الى مستوى شعوره بقيمة الحرية وما لم ينشد حريته في حرية شعبه ووعيه ويقظة ضميره .

ان المفهومات الفلسفية تؤثر تأثيراً بالغاً على التاريخ ، بل إن الفلسفة والتاريخ يتبادلان الأثر ويشاركان في خلق التطور العملي لكل قضية . ثم أخذ على المحاضر ايضاً انه لم يعرض لحرية الفكر في البلاد العربية اليوم الا عرضاً نظرياً ، فلم يتحدث عما تعانيه الحرية الفكرية في اكثر من بلد عربي واحد من إرهاب ومحن ، ولا سيا في البلد الشقيق العراق ... وانهى كلمته باستنكار هذا الضغط وبدعوة الادباء الى توحيد جهودهم للدفاع عن الحرية الفكرية التي هي حظهم الاول وقوام حياتهم الفكرية في تأدية رسالتهم .

ودعا رشاد دارغوث الى ان ينسجم الاديب في انتاجه وسلوكه وطالب بالزام دور النشر بنشر الكتب الصالحة، والزام معاهد التعليم بانشاء مكتبات واخذ عبدالله لحود على المحاضر انه لم يحدد المفهوم الاجتماعي لحرية التفكير .

وطالب روفائيل بطي بأن تقيد حرية التفكير بقيود القوانين والمصلحة القومية .

وقد رد الدكتور كامل عياد على مناقشيه فاوضح انه بحث حرية الفكر كما هي في التاريخ والواقع ، وقال انه لا فائدة من المفاهيم المجردة ، وينبغي ان ندرس النقاط التي يقيد بها الفكر ، ولكنه دعا الى مكافحة كل قيود تفرضها الحكومات لانها لا تمثل رغبات المجتمع .

٢ – حرية الفكر

يؤمن اعضاء المؤتمر ايماناً عميقاً بان حرية الفكر حق للانسان غير قابل للتجزئة ولا للاسترداد ، لانه لم يكن منحة من أحد .

وبان حرية الفكر هي حرية كل انسان في ان يكون له رأياً او معتقداً وفي ان يعبر عنه . وان هذه الحرية تعبر عن اعمق النزعات الانسانية وهي الدعامة الاساسية للتقدم والرقي . ومن طبيعة الحرية احترام تعدد الاراء . وغاية الحرية احترام كرامة الانسان الذي تلزمه طبيعته بخدمة الجماعة .

ولذلك يطالب المؤتمر :

أ – بضرورة النص على ضمانة حرية الفكر والتعبير عنه في دساتير الدول العربية وتشريعاتها والغاء كل ما يعطل هذه الحرية .

ب – بضرورة نضال المفكرين في كل قطر عربي متعاونين فيما بينهم لتحقيق هذه الحرية وتوطيدها عملياً وازالة كل ما يعترض سبيلها من مختلف العقبات .

ج – بضرورة تعاون الادباء على مقاومة كل ما يعتمده الاستعمار والقوى الرجعية والاستغلالية لتحقيق مآربها في العالم العربي .

د – بالا يضطهد انسان بسبب آرائه الحرة .

طه حسين يوضح سبب اعتذاره

تلقى الاستاذ صلاح لبكي رئيس جمعية اهل القلم رسالة من الدكتور طه حسين يعبر فيها عن شكره للدعوة التي تلقاها للاشتراك في مؤتمر ادباء العرب ، ويقول مبيناً سبب اعتذاره عن تلبية الدعوة ما يلي :

« كنت معتزماً أن أبحر الى بيروت غداة وصولي الى مصر ، وكنت معتزماً كذلك ان اصطحب زوجي وسكرتيري على ان لا أكاف الجماعة من نفقتهما شيئاً لا في السفر ولا في الإقامة ، ولكن رد السفارة اللبنانية أشعرني بأن المجاملة كانت تنقصه فآثرت الإقامة في مصر على سفر يظهر ان السفارة اللبنانية كانت تراني مشتطاً فيه ، وليس كل الناس يحبون السفر في الطائرات ، ولم أكن لأفرض على السفارة ولا على الجماعة نفقات من لا بد لي من مرافقتهم ، وقد كان من الممكن ان تتصل السفارة بي لتستبين رأيي في هذا الأمر كله ، ولكن السفارة جهلتني كما جهلت الاستاذ العقاد ، مع أنها كانت تعرفني حق المعرفة . وقد أحسنت الاتصال بي والعناية بأمري حين تفضلت على حكومة لبنان منذ سنين بتلك الدعوة الكريمة التي لن أنساها .

وأؤكد مخلصاً مرة اخرى اني أسفت أعمق الاسف حين اضطررت للعدول عن هذه الرحلة . فقد كنت وما زلت شديد الشوق الى زيارة لبنان ولقاء اهله الكرام ولي فيهم اصدقاء اوثرهم بأصفى المودة وأصدق الحب . ولكني أرجو ان لا يفوتني بعد قليل ما فاتني في هذه الايام وأن تتيح لي الفرص المقبلة زيارة هذا البلد الحبيب الى نفسي ، الاثير في قلبي ، انهض بها انا ، ساعياً اليكم سعي الصديق الى الصديق دون ان أشق بها على أحد .

فتقبل تحيتي وشكري ومعذرتي ، وتفضل فاقرأ هذه التحية والمعذرة والشكر على اصدقائنا من الزملاء اللبنانيين ، والى لقاء قريب ان شاء الله .»

طه حسين

٣ – فلسطين

ولما كانت قضية فلسطين في طليعة القضايا القومية التي يؤدي اهمالها الى كارثة عربية شاملة وكنا قد قرننا الزام الاديب قومياً ، فان المؤتمر يدعو الادباء الى النضال بجميع وسائلهم في سبيل هذه القضية القومية العليا .

٤ – الانتاج العربي

أ – يوصي المؤتمر الكتاب العرب ان يساهموا بمختلف الوسائل في تيسير اللغة لتوثيق الصلة بين طبقات الامة كلها .

ب – يوصي المؤتمر الجامعة العربية بالمزيد من العناية بنشر المخطوطات العربية وتعميم مصورات (افلام) المخطوطات على دور الكتب العامة في العالم العربي ، وتمكين الباحثين من الحصول على هذه المصورات .

ج – يرى المؤتمر ان ترجمة روائع الاداب العالمية ضرورة واجبة لتغذية الثقافة العربية لا تقل عن ضرورة التأليف ، وهو يطلب الى الادباء العناية بترجمة تلك الروائع .

د – يوصي المؤتمر الدائرة الثقافية بالمزيد من العناية لايجاد المصطلحات العلمية والفنية وتوحيدها في البلاد العربية والتعاون مع اهل الاختصاص ورجال العلم والادب .

ه – يوصي المؤتمر الكتاب العرب والمؤسسات الثقافية بالعمل على بعث التراث العربي القديم وبحثه على ضوء المفاهيم الحديثة التماساً لربط الماضي بالحاضر والافادة عنه في سبيل النهضة العربية .

٥ – واجبات الدولة نحو الاديب

يطالب المؤتمر الحكومات العربية :

أ – بالغاء الضرائب الجمركية على ورق الطباعة وذلك لجعل الكتاب العربي بمتناول الجميع .

ب – بحماية حق الملكية الادبية .

ج – بحرية انتقال الكتاب العربي وسائر المطبوعات العلمية والادبية وتسهيل ذلك .

د – بدعم الحركة الادبية وتشجيعها بمختلف الوسائل التي تملكها (جوائز ، اعتمادات ثقافية ، اقامة مؤتمرات ، وطبع كتب الخ ...)

ه – بتعميم المكتبات العامة ورصد الاموال الكافية لتغذيتها .

٦ – تنظيم الحركات الادبية في بلاد العرب

أ – يوصي المؤتمر جميع ارباب القلم في مختلف الاقطار العربية بتأسيس جمعيات لاهل القلم يكون لها تنظيم نقابي وضمان اجتماعي .

ب – يتألف للمؤتمر مكتب دائم من ممثلين عن الهيئات الادبية في البلاد العربية وينتخب هذا العام مكتب موقت لوضع مشروعات التنظيم لعرضها على المؤتمر في دورته المقبلة .

هذا وقد قرر المؤتمر قبول دعوة الحكومة السورية لعقد دورته المقبلة في سوريا وقبول دعوة المملكة العربية السعودية لعقد الدورة التي تليها في بلادها مع توجيه الشكر الى كل من الدولتين العربيتين الشقيقتين .

مؤتمر الكتاب العرب

انعقد في دمشق بين ٩ و ١١ ايلول الماضي مؤتمر «الكتاب العرب» الذي دعت الى عقده « رابطة الكتاب السوريين » وقد اصدر المؤتمر عدة مقررات فكرية وسياسية واجتماعية ستعمل على تنفيذها « رابطة الكتاب العرب » التي انبثقت عن المؤتمر . ومما اوصى به الكشف عن النواحي الخلاقة في حياتنا الفنية واعادة النظر في الادب العربي كله والعمل على اظهار الدور الذي نهضت به الجماهير في تكوين الادب وعلى كشف المفكرين العرب الذين طمسهم الطغيان او عفى عليهم النسيان والعناية بالمنهج العلمي الواضح في قضية تحقيق التاريخ العربي ، ومساهمة الكتاب العرب مساهمة واسعة في اذكاء المقاومة الوطنية عند الشعوب العربية ضد الاحتلال الاستعماري والمشاريع الحربية العدوانية ، والمساهمة في محاربة الاتجاهات الاستعمارية في « الثقافة » الرامية الى اشاعة الروح اللاوطنية ، والدفاع عن الحريات الديمقراطية وفضح الصحف والكتب والأقلام الأجيرة التي يستخدمها الاستعمار ، ومحاربة الوسائل التي تعرقل التبادل الثقافي بين الشعوب العربية وتقطع الاتصال مع الفكر العالمي التقدمي ، والمساهمة في النضال لتجنيب بلادنا ويلات الحرب الاستعمارية ، والمطالبة باطلاق حرية الصحافة والفكر في البلاد العربية واطلاق سراح الكتاب والادباء المعتقلين ، والمطالبة والعمل على مكافحة الامية وتعميم الزامية التعليم الابتدائي ومجانيته في جميع الاقطار العربية ، وتأليف لجان محلية مهمتها انتقاء الكتب القيمة والدعوة الى ترجمتها .